أحسن تفسير للقرآن الكريم في تاريخ الإسلام بفيض من الله عز وجل

معالم الإيمان في تفسير القرآن

الجزء السابع والعشرون

سورة البقرة الآيات (١٥٨ – ١٦٤)

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح الطائي

أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

معالم الإيمان/ج٢٧ـــــــ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي جعل القرآن مصاحباً لأيام الحياة الدنيا ليكون سفينة نجاة، ووسيلة فعل الصالحات وصلى الله على محمد وآله خير البرية الحمد لله المتفرد بالخلق والمشيئة المطلقة العالم بسرائر القلوب والهادي إلى سواء السبيل.

وفي خطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال : ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس أنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا من أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله تعالى وذكره[1].

وقد أنعم الله عز وجل علينا بهذا الجزء من معالم الإيمان في تفسير القرآن وهو السابع والعشرون، ويتضمن تفسير الآيات ١٥٨ -١٦٤ من سورة البقرة ويبدأ بتفسير وتأويل قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

ومع قلة كلمات أول آية يبدأ بها الجزء فقد ذكرت فيها كلمات لم تذكر في آية أخرى وهي :

الأولى : الصفا .

الثانية : المروة .

الثالثة : حجّ .

---

(١) الدر المنثور ١٨٢/٤.

الرابعة : إعتمر .

الخامسة: يطّوف .

السادسة : شاكر .

ويولي المسلمون في مشارق ومغارب الأرض عناية خاصة بالصفا والمروة وهما جزء من حياتهما اليومية وفيه مسائل :

الأولى : هذه العناية من أسرار إستقبال المسلمين للبيت الحرام.

الثانية : تعاهد المسلمين لمعالم الدين.

الثالثة : إتصاف المسلمين بصيغة التقوى، قال تعالى﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1].

الرابعة : تجديد كل مسلم ومسلمة العهد بالصفا والمروة من وجوه:

الأول : تلاوة آية الصفا والمروة.

الثاني : إستقبال البيت الحرام في الصلاة.

الثالث : أداء مناسك الحج فريضة وندباً.

الرابع : السعي بين الصفا والمروة.

الخامس : أداء العمرة المنفردة أو عمرة التمتع.

وأختتم هذا الجزء بتفسير قوله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[2]، لبيان غاية حميدة من غايات الخلق وهي صيرورة كل فرد من آيات الله عز وجل، مناسبة للتدبر، ودعوة للناس للإيمان، وإمتحاناً وإختباراً على الإنسان أن يوظف فيه عقله ويدرك وجوب الصانع، وإستحالة إستدامة النظام الكوني البديع من دون عناية ومشيئة وأمر من عند الله عز وجل، فكل نعمة عامة وخاصة هي من عند الله، قال تعالى﴿هُوَ الَّذِي

---

(١) سورة الحج ٣٢.

(٢) سورة البقرة ١٦٤.

﴿يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[١] .

ليكون من وجوه الصلة بين آية (الصفا والمروة) التي بدأ هذا الجزء بتفسيرها وبين الآية أعلاه أن النعم الإلهية العظيمة على الناس نوع طريق ومقدمات عقلية لضروب العبادة.

وقد بدأت بكتابة التفسير قبل خمس وعشرين سنة، واثناء كتابة الأجزاء رزقني الله عز وجل علوماً جديدة مثل :

الأول : إفاضات الآية .

الثاني : الآية لطف .

الثالث : الصلة بين أول وآخر الآية

الرابع : من غايات الآية .

بالإضافة إلى السعة والبيان الإضافي في تفسير الآية ومفهومها وباب إعجاز الآية، والآية سلاح، ونحوها، فرجعت إلى أجزاء تفسير سورة البقرة لإستنباط العلوم من آياتها بعمل دؤوب وجهد مضاعف بفضل من الله، أساله تعالى القبول وإستدامة المدد والفيض ، قال تعالى﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢].

---

[١] سورة يونس٢٢.

[٢] سورة غافر ٦٠.

قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الآية ١٥٨.

القراءة والإعراب واللغة

قرأ حمزة وعاصم والكسائي (يطوع) بالياء، والباقي على القراءة المرسومة في المصاحف، وروي في الشواذ عن علي عليه السلام وابن عباس وسعيد بن جبير وابي بن كعب وابن مسعود (الا يطوف بهما)[1].

ومنهم من نسبه الى ابن مسعود وحده ولعله لمناسبته الانفراد في القراءة، مع الحاجة الى اثبات السند وهو أمر غير سهل في مثل هذه القراءات.

ان الصفا: ان واسمها، والمروة: عطف على الصفا.

من شعائر: جار ومجرور.

إسم الجلالة: مضاف اليه.

فمن: الفاء استئنافية، من: إسم شرط جازم مبتدأ.

حج البيت: حج: فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وفاعله ضمير مستتر يعود على من، البيت: مفعول به.

أو أعتمر: أو: حرف عطف لأحد شيئين على الآخر، وقد يكون لمطلق الجمع، وهو هنا من الأول لأن الفعل العبادي من الطواف والسعي أما أن يكون جزءً من الحج أو من العمرة أو مستحباً. إعتمر: فعل ماض معطوف على حج.

---

(١)مجمع البيان ٢٣٩/١.

فلا جُناح: الفاء رابطة لجواب الشرط لأنه جملة إسمية، لا: نافية للجنس تعمل عمل ان وتسمى تبرئة، لأنها تنفي الحكم عن جميع أفراد جنس إسمها، جُناح: إسمها مبني على الفتح.

عليه: جار ومجرور، أن يطوف: أن المصدرية، وهي وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي: في طواف.

ومن تطوع: الواو عاطفة، من: إسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ، وتطوع: فعل ماض في محل جزم فعل الشرط، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو، وعلى القراءة بالمضارع "يطوع" كما تقدم يكون الإعراب نفسه اذ يجوز ان تكون جملة الشرط مضارعة مثل "فمن يصبر يفوز"، او ماضية مثل "فمن صبر فاز" أو "إن صبرت فزت" أو كما في قوله تعالى ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾[1].

خيراً: صفة لمصدر محذوف، فهو مفعول مطلق، أي يتطوع تطوعاً خيراً.

فان الله: الفاء رابطة لجواب الشرط.

إن الله: إن وإسمها.

شاكر عليم: خبران لإن، وجملة إن الله في محل جزم جواب الشرط.

الصفا: العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاة والمثنى صفوان، والصفا والمروة جبلان في مكة يسعى الحاج والمعتمر بينهما، ويجوز التذكير والتأنيث في الصفا بلحاظ المكان والبقعة.

ويقع الجبلان بين بطحاء مكة والمسجد ، وهما متصلان بالمسجد في هذا الزمان، وكأنهما ومسعاهما جزء منه وكل من الصفا والمروة إسم لاحد طرفي المسعى[2]، والجناح: الإثم.

وحكي ان اسافاً ونايلة زنيا في الكعبة فمسخا حجرين، ونصبا على الصفا

---

(١) سورة يوسف ٧٢.

(٢)أنظر رسالتنا مناسك الحج ص ١٥٥.

والمروة لكي يتعظ الناس ويرون الآيات ويحرصوا على إكرام البيت وتنزيهه، ولكن مع تقادم الأيام وظهور الكفر وإنتشار ظاهرة الأصنام توهم إن الطواف كان تعظيماً للصنمين فلذا تساءل المسلمون فنزلت الآية وقيل لم يفجر بها في البيت ولكن قبلّها، وكسرا في يوم الفتح، وكانت مكة لا يقر فيها ظالم ولا باغ ولا فاجر إلا نفي عنها.

(وطاف بالشيء: دار حوله) ومنه الطواف بالبيت، والمطاف: موضع المطاف حول الكعبة، (وطاف في البلاد طوفاً وتطوافاً: وطوف سار فيها) [١]، والطائف هو الخادم الذي يؤدي وظيفته باتقان بان يخدمك برفق، والجمع طوافون، وكأن في الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة خدمة وعناية بهما، وبه تستديم فريضة الحج ويتواصل أداؤها.

والتطوع: إتيان الشيء تبرعاً، والمطوعة: الذين يتطوعون بالجهاد، والخير: عنوان جامع للفضائل وهو ضد الشر ويأتي بعنوان الزيادة في الفضل والعمل العبادي كما في الآية الكريمة، وبمعنى المال والإحسان والمعروف لذا تجده دعاء عاماً متعارفاً إذ يقول الشخص لصاحبه على نحو الدعاء والثناء والشكر: "جزاك الله خيراً".

والشعائر: جمع شعيرة وهي إسم ما أشعر، أي جعل شعاراً وعلماً للنسك، وعنواناً للعبادة، وشاهداً على الإمتثال لأوامر الله.

في سياق الآيات

تتعلق الآية بمناسك حج بيت الله الحرام فهل لها صلة بالصبر وجزائه كما في الآيات المتقدمة، الجواب: نعم من وجهين:

الأول: العبادة من أفضل وجوه الصبر خاصة وأن الحج عبادة بدنية مالية.

الثاني: أداء الحج توفيق ورحمة ولعله من مصاديق الرحمة الواردة في الآية السابقة ومن وجوه الإهتداء.

---

(١) لسان العرب ٩/٢٢٥.

الأول: الصلة بين آية (إستعينوا بالصبر)[١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: المؤمنون هم الذين يؤدون شعائر الله.

الثانية: دعوة المسلمين لتعاهد السعي بين الصفا والمروة.

الثالثة: السعي جزء وركن من أركان الحج.

الرابعة: الحج عبادة بدنية تستلزم الصبر، ويفيد الجمع بين الآيتين التحلي بالصبر في المقدمات العقلية والمالية للحج وفي أداء الفريضة ذاتها.

الخامسة: لا ينحصر السعي بين الصفا والمروة بالحج بأيامه المخصوصة، قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾[٢]، فالسعي جزء وركن من العمرة التي تستوعب أيام السنة كلها، فهو الرابع من أفعال العمرة، والعاشر من أفعال الحج[٣].

السادسة: يستلزم السعي بين الصفا والمروة الصبر، وهو من مصاديق الصبر على طاعة الله.

السابعة: أختتمت الآية أعلاه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، والذين يؤدون مناسك الحج ويحرصون على الشعائر من الصابرين ويفيد الجمع بين الآيتين أن الله عز وجل مع عمّار بيته الحرام.

الثامنة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، لبيان أن الله عز وجل يشكر المسلمين لإستعانتهم بالصبر وأدائهم للصلاة.

التاسعة: ذكر الله من شعائره، ومن الآيات أن السعي بين الصفا والمروة من الذكر العملي والقولي.

---

(١)الآية ١٥٣.

(٢)الآية ١٥٤.

(٣)أنظر رسالتنا مناسك الحج ١٥٣.

العاشرة: جاءت خاتمة الآية أعلاه بالزجر عن الجحود (ولا تكفرون) وحج البيت والعمرة من الشواهد على أن المسلمين دائبون على الشكر، لم يكفروا بالله عز وجل.

الحادية عشرة: الحج والعمرة والسعي بين الصفا والمروة من الشكر لله عز وجل على نعمة الهداية.

الثانية عشرة: ذكرت الآية الصفا والمروة من شعائر الله، وجاءت الآية أعلاه بأربعة أطراف كل طرف منها يمكن إعتباره من شعائر الله، هي:

الأول: الإيمان بالله ورسوله والذي تدل عليه لغة الخطاب.

الثاني: الإستعانة بالصبر والصيام.

الثالث: أداء الصلاة والإستعانة بها.

الرابع: المدد والعون الإلهي للصابرين، واللطف بهم.

الثاني: الصلة بين آية (بل أحياء)[١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: القتال في سبيل الله من أصدق شعائر الله.

الثانية: عدم التعارض بين أداء مناسك الحج وبين الدفاع في سبيل الله، وعن الإمام الصادق عليه السلام (يذكر الحج: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هو أحد الجهادين وهو جهاد الضعفاء ونحن الضعفاء، أما أنه ليس شيء أفضل من الحج إلا الصلاة في الحج ههنا صلاة وليس في الصلاة قبلكم حج.." الحديث)[٢] [٣].

الثالثة: يفيد الجمع بين الآية أعلاه، وخاتمة هذه الآية أن الله عز وجل يشكر للمسلمين جهادهم في سبيله، وأن أمر الله بوصف الذين قتلوا في سبيله بالأحياء من شكره تعالى لهم.

---

(١)الآية ١٥٤.

(٢)مناسك الحج ٤.

(٣) بحار الأنوار ٩٦/١٢.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، والله عز وجل يعلم المنافع العظيمة لنعت الشهداء بالأحياء، وإقرار المسلمين بأنهم لم يموتوا بل هم أحياء يرزقون عند الله.

الثالث: الصلة بين آية (ولنبلونكم)[1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إبتلاء المسلمين بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس لا يمنعهم من أداء المناسك وتعظيم شعائر الله.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين الترغيب بأداء المناسك في حالات الشدة والإبتلاء.

الثالثة: أداء المناسك واقية من الإبتلاء، وهو من عمومات المحو في قوله تعالى﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[2].

الرابعة: أداء المناسك سفر روحي، ورياضة نفسية، وفزع إلى الله، وإعراض عن زينة الدنيا، وسلامة من الحزن والفزع والخوف الذي يأتي مصاحباً للإبتلاء.

الرابع: الصلة بين (المصيبة)[3]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: أداء الحج قهر للمصيبة وآثارها.

الثانية: يجب أن لا تكون المصيبة برزخاً دون أداء الفرائض والمناسك.

الثالثة: يأتي المسلمون بالعبادات والمناسك في حال الشدة والرخاء من غير إنقطاع.

الرابعة: لا يكتفي المسلمون عند المصيبة بالإسترجاع، بل إنهم يأتون بالمناسك، ويؤدون الحج، والعمرة، ويسعون بين الصفا والمروة تجلية وتخلية

---

(١)الآية ١٥٥.

(٢)سورة الرعد ٣٩.

(٣)الآية ١٥٦.

وتحلية، إذ تتجلى فيه مفاهيم الجهاد في سبيل الله، وفيه إنقطاع إلى الله، وتخل عن الحزن والألم بالمصيبة، وتحل بالصبر والرضا بأمر الله عز وجل.

الخامسة: جاء في الآية أعلاه ذكر التطوع بالزيادة والتعدد في الطواف.

السادسة: لم يقف المسلمون عند الإسترجاع، يل يؤدون المناسك ويواظبون على تعظيم شعائر الله.

السابعة: لم تشغل المصيبة وآثارها المسلمين عن أداء المناسك.

الخامس: الصلة بين الآية السابقة (الصفا والمروة) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من رحمة الله عز وجل بالمسلمين بيان الأحكام والمناسك لهم.

الثانية: حج البيت والعمرة من مصاديق الهداية.

الثالثة: إذا كان قول﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ساعة المصيبة سبباً للثواب العظيم فإن السعي وأداء الشعائر باب للثواب العظيم أيضاً ، ليكون كل آن من حياة المسلم وحال السراء والضراء مناسبة لإكتناز الحسنات.

الثاني: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (الذين يكتمون) [2]، وفيها مسائل:

الأولى: الحج والسعي بين الصفا والمروة من البينات التي أنزلها الله.

الثانية: سلامة القرآن من التحريف، وعجز الناس عن كتمان الأمر الإلهي بالسعي بين الصفا والمروة.

الثالثة: جاءت الآية أعلاه بياناً لأحكام السعي بين الصفا والمروة.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى (فان الله شاكر عليم) ويدل على

(١)الآية ١٥٧.

(٢)الآية ١٥٩.

الثنـاء علـى المسـلمين في أدائهـم المناسـك، وجـاءت الآيـة التاليـة بالوعيـد والتخويف للذين يخفون حقائق التنزيـل، ويكتمـون البشـارات بـالنبي محمـد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين الثناء على المسلمين لأنهـم لا يكتمـون الآيات والبينات.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (إلا الذين تابوا) [1]، وفيها مسائل:

الأولى: من مصاديق التوبة والصلاح أداء مناسك الحج والعمرة.

الثانية: تلاوة هذه الآية من البيان الذي ذكرته الآية أعلاه (وبينوا)، وكذا الإتيان بالمناسك فانه من البيان العملي.

الثالثة: بشارة توبة الله عز وجل عن المسلمين من باب الأولوية القطعية، فإذا كان الذين يكتمـون الآيـات يقبـل الله تـوبتهم وصـلاحهم فـإن المسـلمين الذين يؤدون المناسك يتوب الله عز وجل عليهم ويرحمهم.

الثالث: الصلة بين هذه وآية (إن الذين كفروا وماتوا) [2]، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التضاد في الفعل بين المسلمين والكفار.

الثانية: إستمرار التضاد وظهوره في الأثر، فإن المسلمين يشكرون الله عز وجل على أدائهم الشعائر، بينما تأتي اللعنة المطلقة والمتعددة للكفار.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين الترغيب بالتوبة وأداء المناسك.

إعجاز الآية

تنظم الآية أحكام فريضة الحج والعمرة وتبين أن أحكام الحج من شعائر الله تفضل سبحانه بجعلها عبـادة ونسـكاً وطاعـة لـه، وفي الآيـة بشـارة الأمـن والسلامة عند السعي بينهما.

---

(١)الآية ١٦٠.

(٢)الآية ١٦١.

وتذكر الآية الصفا والمروة بالإسم ، وفيه مسائل:

الأولى: منع البس والجهالة والترديد.

الثانية: بيان موضوعيتهما في مناسك الحج.

الثالثة: تثبيت إسم كل واحد منهما إلى يوم القيامة.

الرابعة: توكيد قدسية بعض المواضع لإتيان المناسك فيها.

الخامسة: جاء ذكر المحل في الآية وإرادته مع الحال والفعل.

وورد لفظ (شعائر) أربع مرات في القرآن بصيغة الجمع، ولم يرد بصيغة المفرد، وفيه مسائل:

الأولى: الترابط والتداخل بين الشعائر، وحاجة الناس للإتيان بها على نحو العموم الإستغراقي، لتعلقها بالواجبات والفرائض.

الثانية: مجيء حرف التبعيض(من) في إثنتين منها، كما في هذه الآية الكريمة لتوكيد لزوم الإتيان بالشعائر مجتمعة وقوله تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(١) ، وفيه دعوة لإستقراء ومعرفة الشعائر والتفقه في الدين.

الثالثة: الزجر والنهي عن التفريط بشعائر الله كما في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾(٢).

الرابعة: دعوة المسلمين للتفقه في الدين، وعدم التفريط في أي شعيرة من الشعائر والحث على إتيان الفرائض والواجبات على نحو العموم المجموعي.

ويمكن تسمية الآية آية (الصفا والمروة) ولم يرد في القرآن كل من إسم الصفا والمروة إلا في هذه الآية الكريمة.

---

(١)سورة الحج ٣٦.

(٢)سورة المائدة ٢.

الآية سلاح

تحث الآية على أداء مناسك الحج، وترغب في إمتثال المنفرد والجماعة على نحو الدقة، وتبين مواطن العبادة فيها، ويعتبر بيان معالم الحج عوناً ومساعدة على أدائه باتقان مقترناً بالإكرام، وفيها نوع جهاد فكما أن العون متعدد فان الجهاد فيها مركب ومن أفراده في المقام مواجهة المشركين وتحديهم ونبذ الأصنام.

لقد جاءت الآية التالية في ذم الذين يخفون آيات التنزيل، وجاءت هذه الآية لتبين سلامة القرآن وأحكام الشريعة الإسلامية من التحريف بتعيين مواضع العبادة، وفي هذا التعيين بعث على تعاهدها والحفاظ عليها، إذ تدعو الآية إلى الحفاظ على الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله، وهو من أسرار ذكرهما بالإسم ونعتهما بأنهما من شعائر الله.

والآية سلاح متجدد في أيدي المسلمين يبعث على وجوب تعاهدهما والسعي بينهما ، وإذا كان الصفا والمروة من شعائر الله، والسعي بينهما جزء من الحج وركن فيه، فهل حج البيت أعظم من مرتبة شعائر الله، الجواب لا ، فالحج من شعائر الله التي تعني المتعبدات والفرائض التي يتقرب بها الناس إلى الله، وأشعرها الله أي نصبها أعلاماً، وبينها للناس لإتيانها(ويقال:شعرت به: علمته)[1].

وقال الفراء: كانت العرب عامة لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله تعالى لا تحلوا شعائر الله أي لا تستحلوا ترك ذلك وقيل شعائر الله مناسك الحج[2].

وفي الآية نكتة تتجلى بلغة التبعيض في الآية بأن الصفا والمروة من شعائر الله، لبيان حقيقة وهي تعدد الشعائر والمناسك في الحج ، قال

---

(١) تهذيب اللغة ١٢٨/١.

(٢) لسان العرب ٤١٠/٤.

تعالى﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[١]، مما يدل على قدسية الحج وأسباب بعث الشوق في النفوس لأدائه فريضة وتطوعاً.

أسباب النزول

عن الإمام الصادق عليه السلام: "أنه كان على الصفا والمروة أصنام إن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون فانزل الله هذه الآية، فكان الناس يسعون والأصنام على حالها، فلما حج النبي صلى الله عليه وآله وسلم رمى بها"[٢].

ويمكن تحرير قاعدة أصولية من السنة الفعلية التي جاء بها هذا الحديث وهي أن وجود بعض مظاهر الكفر لا يمنع من أداء المناسك بل أن الأداء سبيل إلى إنتفائها .

وقال الفراء: كانت العرب عامة لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأنزل الله تعالى﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾[٣]، في الزجر عن ترك السعي بينهما، وجاءت هذه الآية بالبيان والتصريح بلزوم السعي بينهما.

لقد سألت قريش النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل جبل الصفا ذهباً كي يؤمنوا برسالته، ولم ينتقم الله عز وجل منهم في الحال كما أمات السبعين من بني إسرائيل الذين سألوا موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل بل فتوالت معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل مكة فاتحاً ، قال تعالى﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[٤]، وليكون جبل الصفا ذهباً متجدداً في كل عام، وتزدهر معه التجارة في كل موسم، ومن الآيات عمارة أسواق مكة بالتبعية لعمارة البيت الحرام، وفيه

---

(١) سورة الحج ٣٦.

(٢) البحار ٢٣٧/٩٦.

(٣)سورة المائدة ٢.

(٤)سورة الصف ٩.

حجة على كفار مكة، وما لاقى أهل البيت والصحابة من الأذى والتعدي والظلم.

ولا يصح توجيه اللوم إلى أبنائهم الذين أسلموا كما توجهت خطابات القرآن باللوم إلى المشركين أيام نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في آيات عديدة من القرآن وكان دخول أبناء كفار قريش الإسلام حجة وبرهاناً حتى دخل رؤساء وصناديد قريش الإسلام يوم الفتح، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، وفيه شاهد على تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين.

مفهوم الآية

تؤكد الآية بأن القرآن جامع للأحكام، ومنها أحكام مناسك الحج، وتدل في مفهومها على غلق باب الإجتهاد في أركان الحج بالإجزاء والإكتفاء بالحكم القرآني الخالي من اللبس والترديد، وهي وسيلة لتثبيت وحدة المسلمين والمنع من الفرقة والفتن والضلالة، وبرزخ دون حصول المصيبة من الفرقة والخلاف، أي أن الآية نوع وقاية وإحتراز من حدوث الفتن بسبب العبادة وأداء المناسك وكأنها تخصيص للمصيبة وإخبار عن التخفيف الإلهي في حصر أسباب حدوثها ومنع تداعي الهياكل الإجتماعية والسياسية والعلمية للمسلمين.

وتدعو الآية إلى الزيادة والنفل في العبادات من غير أن تترك البشارة بعظيم النفع والثواب بهذه الزيادة، إنها فلسفة الترغيب والهداية في القرآن وتوظيفها للإقبال على الطاعات، وتعاهد المناسك وحفظها ومنع التفريط بها سواء كان على نحو القضية الشخصية أو النوعية، وفي الآية مسائل:

الأولى : إستنهاض الهمم لأداء الحج.

(١)سورة الأنبياء ١٠٧.

الثانية : التقيد بأفعال الحج وعدم إلتفريط ببعضها.

الثالثة : تبشر الآية بعظيم الأجر والثواب على أدائه تاماً.

الرابعة : تبين الآية بركة العبادات وما فيها من الخير العاجل والآجل، فالمسلمون لم يكونوا وحدهم في محافظتهم على الوحدة ودرء الخلاف بل إن العبادات واقية وسلاح دون الفتنة والفرقة والتشتت ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

ومن الجنود في المقام أداء فريضة الصلاة والحج ونحوهما، والحرص على التقيد بالمناسك والأحكام وفق ما جاء به القرآن والذي ثبت بالسنة القولية والفعلية والتقريرية.

وفي الآية مسائل:

الأولى: تقدمت الآيات بذكر البيت الحرام قبلة للمسلمين، ولزوم توجههم إليه في الصلاة، وجاءت هذه الآية بذكر ما يدل على أداء مناسك الحج وكأنه من ذكر الجزء وإرادة الكل، فصحيح أن الآية خاصة بتثبيت وجوب السعي بين الصفا والمروة إلا أنها تؤكد أداء الحج والعمرة، وتدعو إليهما لقوله تعالى﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾.

الثانية: بيان أهمية جبل الصفا والمروة في الإسلام، فصحيح أن التكليف بالسعي بينهما إلا أن الآية جاءت بذكرهما بالذات، ويحتمل وجهين:

الأول: إرادة السعي بينهما من ذكرهما في الآية، وكأنه من ذكر اللازم وإرادة الملزوم.

الثاني: المقصود ذات الصفا والمروة، وتوكيد القدسية والشأنية الخاصة لجبلي الصفا والمروة.

---

(1) سورة المدثر ٣١.

ولا تعارض بين الوجهين، وكلاهما من مصاديق الآية، وفي ذكرهما بالإِسم والذات إشارة إلى أن الحج مصاحب لوجود الإنسان في الأرض، وسابق عليه، وأن أهل السماء يعلمون بشأن بعض المواضع العبادية.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : لما أفاض آدم من منى، تلقته الملائكة، فقالت: يا آدم بُرَّ حجك ، فانا قد حججنا هذا البيت قبل ان تحجه بالفي عام[1])[2].أي قبل الله حجك ، وأن ليس من نقص أو شائبة فيه .

الثالثة: بيان علة السعي بين الصفا والمروة، لتكون الآية مناسبة لتفقه المسلمين في الدين، ومعرفة علل الأحكام.

الرابعة: قد يأتي من يقول ما هي علة السعي بين الصفا والمروة، وإذا كان البيت لله عز وجل والطواف به واجب فماذا يعني السعي بين جبلين مجاورين له، فجاءت هذه الآية للإحتجاج ودفع وهم، ورد متقدم زماناً للمغالطة والجدال في هذا الباب، وهو من الشواهد على كون القرآن﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[3].

الخامسة: دعوة المسلمين للتقيد بمناسك الحج كما جاءت في القرآن والسنة وعدم التفريط بها، ومنها السعي بين الصفا والمروة.

السادسة: توكيد أن الحج والعمرة مناسك متعددة وليس فعلاً متحداً.

السابعة: إتحاد حكم السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة.

الثامنة: مجيء الآية بصيغة الطواف بين الصفا والمروة لتوكيد لزوم الصعود عليهما في السعي، وعدم الإكتفاء بالوصول إلى أطرافهما.

---

(1) الوسائل باب ٢ من أبواب الحج / حديث ٦.

(٢)مناسك الحج٨.

(٣)سورة النحل ٨٩.

التاسعة: قد يقال المراد من الطواف بينهما هو فعل إضافي غير السعي بلحاظ قوله تعالى﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، وأن المراد الطواف على جزء من كل جبل ولا دليل عليه لأن المراد الجمع بينهما في العمل العبادي وجعل كل جبل منهما طرفاً للسعي سبع مرات.

العاشرة: الترغيب بالإكثار من الحج والعمرة، وإن كان الواجب مرة واحدة في العمر.

الحادية عشرة : بيان الثواب العظيم في أداء الحج والعمرة، وفي السعي بين الصفا والمروة، فمن أسرار هذه الآية أنها تؤكد أموراً:

الأول: خصوصية وقدسية ذات الجبلين.

الثاني: ترتب الثواب العظيم على السعي بينهما.

الثالث: الحرص على جزئيتهما من الحج والعمرة، وعدم التفريط أو التقصير في السعي بينهما.

الرابع: شرف موضع وذات الصفا والمروة والمنزلة الرفيعة لهما.

الثانية عشرة: الترغيب بالسعي بين الصفا والمروة بإختتام الآية بقوله تعالى﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

الثالثة عشرة: الثناء على المسلمين بتعاهد السعي بين الصفا والمروة، وهو من مصاديق قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

الرابعة عشرة: الوعد الكريم بحفظ مواضع الحج ومناسكه.

الخامسة عشرة: بيان عظيم قدرة الله عز وجل وعلمه بجعل الصفا والمروة من شعائر الله.

السادسة عشرة: تحتمل تسمية جبل الصفا بالصفا، والمروة بالمروة وجوهاً:

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

الأول: تسمية الجبلين من الله عز وجل.

الثاني: الصفا والمروة من الأسماء التي علمها الله عز وجل بقوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(١).

الثالث: جاءت التسمية بحسب واقعة تأريخية كما في القول بهبوط آدم صفوة الله على الصفا، وحواء على المروة، وتوكيد الصلة بين هبوطهما إلى الأرض والسعي بين الصفا والمروة وأن هذا السعي من عمومات قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

الرابع: جاءت التسمية إختياراً من سكنة الحرم قبل الإسلام .

والوجه الرابع بعيد، ولا تعارض بين الوجوه الثلاثة الأولى ويدل عليها قدسية الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله، ومجيء ذكرهما بالإسم والذات.

وإذ جاءت الآية بلزوم طواف وسعي وفد الحاج والمعتمرين بينهما، فإن وصف الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله حث لأجيال المسلمين على إكرامهما والعناية بهما، وإن مسؤولية حفظهما ليتحملها عموم المسلمين والمسلمات، وتقدير الآية : فمن لم يحج أو يعتمر فعليه أن يعلم أنهما من شعائر الله.

ولا ينحصر موضوع العناية بجبلي الصفا والمروة والإلتفات إلى قدسيتهما وأهميتهما بالمسلمين والمسلمات، بل هو عام وشامل للناس جميعاً، وهو من أسرار مجيء الآية بصيغة القانون الكلي ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي أعلموا أيها الناس أن الصفا والمروة من شعائر الله وأنهما في عنايو وحفظ من

(١)سورة البقرة ٣١.

(٢)سورة البقرة ٣٨.

الله عز وجل ، فكما يتوجه الخطاب التكليفي بالحج إلى الناس جميعاً بقوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1]، وعلى نحو متجدد في كل زمان، فكذا التفقه في مسألة الصفا والمروة، وموضوعيتهما في الحج، ولزوم تعاهد الناس لهما وهذا التعاهد من رشحات نعتهما بأنهما من شعائر الله.

الآية لطف

لقد أنزل الله عز وجل القرآن هدى ورحمة للناس جميعاً، إنتفع المسلمون على نحو الخصوص من آياته، ومن وجوه هذا الإنتفاع التقيد بأحكام العبادات التي يتضمنها القرآن والثابتة في الأرض بملازمة القرآن للحياة الدنيا مع سلامته من التحريف والتبديل والتغيير.

ويتجلى اللطف في القرآن بعدد آياته، كما أن الآية الواحدة لطف متعدد الوجوه والمضامين، وهو من أسرار اللفظ القرآني وإحاطته باللامحدود من الوقائع والأحداث، وتتجدد معاني اللطف في هذه الآية في موسم الحج وعند أداء العمرة، وفي مختلف أيام السنة وأصقاع الأرض، إذ يشتاق المسلم والمسلمة للصفا والمروة والسعي بينهما عند تلاوة هذه الآية في الصلاة وخارجها.

وعندما يصل المسلم إلى الجبلين للسعي بينهما يشعر بالغبطة والسعادة بأن مضامين هذه الآية أصبحت واقعاً بالنسبة له، وصحيح أن تحصيل مقدمة الواجب ليس بواجب إلى أن الآية تبعث على السعي وبذل الوسع من أجل الوصول إلى الصفا والمروة والطواف بهما، ومن مصاديق اللطف في الآية غبطة المسلمين بالذي يتوجه للحج، وإكرامه وسؤال الدعاء في مظان

---

(١) سورة آل عمران ٩٧.

الإستجابة ومنها ترغيب المسلمين بالحج ومناسكه ومنها السعي بين الصفا والمروة.

لقد ذكر القرآن جبل الجودي في قصة نوح ورسو سفينته، قال تعالى ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[1]، وفي إبن نوح حينما أراد النجاة من الغرق بالصعود إلى الجبل ورد في التنزيل ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ﴾[2]، كما ورد ذكر جبل الطور في مناجاة موسى عليه السلام، وفي الوعيد والتخويف لبني إسرائيل.

وورد ذكر الصفا والمروة ليكون كنزاً مدخراً للمسلمين ينهلون منه إلى يوم القيامة، وهو من مصاديق تفضيل المسلمين وأنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

لقد سألت قريش النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون جبل الصفا ذهباً، فرزق الله عز وجل المسلمين الإنتفاع منه في النشأتين، وإنتفاع قريش وأبنائهم في أجيالهم المتعاقبة من نعمة وفود الحاج وعمارة البيت الحرام، وكثرة التجارات وتبادل المعادن في عموم أيام السنة وهو لطف إضافي بأهل البلد الحرام ومن مصاديق الإستجابة لدعاء إبراهيم في قوله تعالى ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ﴾[4].

---

(١)سورة هود ٤٤.

(٢)سورة هود ٤٣.

(٣)سورة آل عمران ١١٠.

(٤)سورة البقرة ١٢٦.

إفاضات الآية

لقد جعل الله عز وجل الصفا والمروة جذبة إلى مقامات التقريب إلى رحمته وإحسانه، والطواف بينهما سياحة في عالم الملكوت سعي إلى الجنة، وأمل في الوصول إلى منازل الخلد والغبطة والسعادة، وجاءت الآية بذكر الصفا والمروة وأنهما من شعائر الله مع أنهما جبلان هامدان للدلالة على موضوعية السعي بينهما في جهاد الأنبياء والصالحين من قبل، وأنه شعار المسلمين إلى يوم القيامة، والموضع الذي يجتمعون فيه من كل أصقاع الأرض.

وتزول معه الفوارق في ذات التكليف العبادي وعدد مرات السعي، وفي نفوس المسلمين حاكماً ومحكوماً، وغنياً وفقيراً، وذكراً وأنثى، سيداً وعبداً، فكل فرد منهم تغمره السعادة لبلوغ هذا المنزل المبارك، وتمتلأ نفسه بالشكر الذاتي لله عز وجل على نعمة الهداية وتيسير الوصول إليه ومنهم من يحب إطلاع أهله وذويه ومعارفه ساعة فوزه بالسعي، وفي التنزيل ﴿يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُكْرَمِينَ﴾(١).

لقد أراد الله عز وجل للمسلمين التمسك بالقرآن والسنة وأحكام الشريعة، قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ (٢)، ويأتي الحج ومناسك العمرة والسعي بين الصفا والمروة من مصاديق الإعتصام وشاهد عليه، ومناسبة لإكتساب العلوم وآداب الخشوع والخضوع لله عز وجل، والسعي

(١)سورة يس ٢٦-٢٧.

(٢)سورة آل عمران ١٠٣.

بينهما عنوان الوحدة الإسلامية، ومصداق لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(١).

ويتجلى تقييد الأخوة بالإيمان في الآية بلحاظ إشتراك المسلمين بالأفعال العبادية، وسعيهم لأدائها بتفان وإخلاص، ومنها السعي بين الصفا والمروة الذي جاءت هذه الآية بالبعث إليه من وجوه:

الأول: ذكر الصفا والمروة بالإسم والتعيين، وفيه منع للبس والترديد ودفع للوهم.

الثاني: الوصف بأنهما من شعائر الله التي يجب العناية بها وتعاهدها، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٢)، وهل ينحصر التعظيم بالسعي أم أنه أعم ، الجواب هو الثاني بدليل مجيء الآية بذكر الصفا والمروة بالإسم وأنهما من شعائر وحرمات الله.

الثالث: الآية مناسبة لتوكيد وجوب الحج والعمرة والتذكير بهما.

الرابع: مجيء ذكر الحج والعمرة على نحو الإطلاق من غير تقييد بالوجوب، وفيه ترغيب بهما، وبعث للشوق للصفا والمروة والسعي بينهما وإستحضار معالمها في الوجود الذهني ، وفيه حرز من الفواحش والسيئات، ودعوة للهداية والصلاح.

الخامس: يحتمل السعي بين الصفا والمروة وجوهاً:

الأول: الصفا والمروة من شعائر الله.

الثاني: السعي ذاته من شعائر الله.

---

(١)سورة الحجرات ١٠.

(٢)سورة الحج ٣٢.

الثالث: العنوان الجامع للأمرين أعلاه، فكل من الصفا والمروة، والسعي بينهما من شعائر الله ، وكون السعي بينهما جزء من مناسك الحج والعمرة حكم شرعي ثابت إلى يوم القيامة.

والصحيح هو الأول ، ولا يتعارض معه الأول والثاني فهما في طوله إذ جعل الله عز وجل الصفا والمروة أعلاماً وأسباباً للتوبة والهداية ، وشاهداً على طاعة الله والإنقياد لأوامره ، ويكون السعي بينهما من تعظيم شعائر الله، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [1].

التفسير الذاتي

لم يرد إسم الصفا والمروة والطواف بهما إلا في هذه الآية الكريمة، لتكون هذه الآية معجزة قائمة بذاتها من وجوه:

الأول: إختصاص الصفا والمروة بالآية.

الثاني: بيان موضوعية الصفا والمروة.

الثالث: توكيد كونهما من شعائر الله.

الرابع: العناية الخاصة بشعائر الله، وبيانها وذكرها على نحو التبعية.

الخامس: بعث الشوق في نفوس المسلمين والمسلمات للسعي بين الصفا والمروة.

ووردت مادة (طاف) إثنتي عشرة مرة في القرآن، وتتعلق أكثرها بأداء مناسك الحج والعمرة ومن الآيات أن لفظ(الطائفين) جاء في القرآن مرتين في الطواف بالبيت الحرام[2].

(١)سورة الحج ٣٢.

(٢)أنظر سورة البقرة ١٢٥، الحج ٢٦.

ولم يرد لفظ (يطوّف) بالتشديد في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة للندب إليه وأداء مناسك الحج بإخلاص وقصد القربة.

وتكرر لفظ (يطاف) ثلاث مرات ، وكلها في الجنة وإكرام أهلها، وهل من صلة بين طواف المؤمنين بالصفا والمروة والبيت الحرام وبين طواف الولدان عليهم في الجنة، الجواب نعم، وهو من الثواب على العمل الصالح والشواهد على فضل الله في جعل الشعائر سبيلاً للهداية والصلاح ونيل الثواب .

وورد لفظ (شعائر) في القرآن أربع مرات، كلها مضافة إلى الله عز وجل (شعائر الله) وفيه مدرسة في العبادات وعمل الصالحات، وترغيب بالصلاح والتقوى، قال تعالى﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1]، والتعظيم أعم من أن ينحصر بإتيان الأفعال العبادية وهو من المندوحة والسعة في سبل الثواب .

وورد لفظ الحج في القرآن عشر مرات كلها تتعلق بحج البيت الحرام، وتلك آية في إعجاز القرآن ونظم آياته وأسرار ألفاظه، وبيانه لموضوعية العبادة والندب إليها .

ولم يرد الفعل (حجّ) في القرآن إلا في هذه الآية الكريمة، كما أنه لم يأت فيه بصيغة المضارع (يحج) للمفرد أو الجمع (يحجون) مما يدل على ما لهذه الآية من الخصوصية وما فيها من الأسرار والعلوم، لذا تراها تتعلق بأمور:

الأول: الصفا.

الثاني: المروة.

الثالث: شعائر الله.

الرابع: الحج.

(١)سورة الحج ٣٢.

الخامس: العمرة.

السادس: الطواف والسعي بين الصفا والمروة.

السابع: فعل الخير والإكثار من الحج والعمرة.

الثامن: الثناء على الله عز وجل وأنه (شاكر عليم) وفيه وعد كريم بالجزاء الحسن، ومع أن الآية جاءت لتوكيد منزلة وعظيم شأن الصفا والمروة إلا أنها ذكرت حج البيت وأداء العمرة، مما يدل على موضوعية الحج في تقديس الصفا والمروة، وأن الطواف والسعي بينهما جزء وركن من أركان الحج، وليس فصلاً عبادياً مستقلاً.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بذكر الصفا والمروة بالإسم مما يدل على معرفتهما إسماً ومسمى من قبل المخاطبين، وهم على وجوه:

الأول: إرادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو الخصوص، لأن القرآن نزل عليه، وهو الذي يقوم بالتبليغ والبيان والتفسير للأمة.

الثاني: المقصود أهل البيت والصحابة أيام نزول الآية.

الثالث: إرادة عموم المسلمين والمسلمات بأجيالهم المتعاقبة.

الرابع: شمول المسلمين والناس جميعاً بالخطاب.

والصحيح هو الرابع فالآية عامة في خطابها وبيانها وإن قيل جاءت الآية بصيغة الجملة الخبرية وليس الإنشاء، وفيه أن آيات القرآن بشارات وإنذارات، وجاءت هذه الآية بشارة للمؤمنين وإنذاراً للكافرين، وهي بلاغ للناس جميعاً وترغيب بدخول الإسلام وإتيان المناسك، قال تعالى ﴿هَـٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾[1].

---

(١)سورة إبراهيم ٥٢.

ومن الآيات أن المسلمين والمسلمات جميعاً يعرفون الصفا والمروة، وكيفية تعظيم شعائر الله بخصوصهما، وتترشح هذه المعرفة من أداء المسلمين مناسك الحج ومن هذه الآية الكريمة، فهي تعريف بهما وتوكيد على قدسيتهما، وندب للسعي بينهما، نعم من الناس من لم يعرف الصفا والمروة فجاءت هذه الآية دعوة له لمعرفتهما وإدراك حقيقة وهي أن الدين الإسلامي دين العبادة والصلاح والإنقطاع إلى الله عز وجل، وأن شعائر الله مناسبة للوحدة والألفة ونبذ الفرقة والكدورات.

وقدمت الآية إسم الصفا على المروة لوجوه محتملة:

الأول: إبتداء الطواف والسعي بينهما من الصفا.

الثاني: الصفا أقرب إلى البيت من المروة.

الثالث: جبل الصفا أعلى من المروة.

الرابع: تقدم حرف الصاد على حرف الميم في الحروف الأبجدية.

الخامس: ورد في الخبر أن آدم عليه السلام هبط على جبل الصفا وأن حواء هبطت على المروة، وتقدم في تفسير قوله تعالى﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(١).

السادس: لغة التذكير في الصفا دون إسم المروة الذي جاء بصيغة التأنيث ولعل وجوهاً أخرى أكثر أهمية جعلت إسم الصفا يتقدم على المروة، وهل يحتمل إنعدام سبب التقديم وإنما جاء بضرورة تقديم أحد الإسمين على الآخر، الجواب لا، فإن ترتيب ألفاظ القرآن إعجاز وله دلالات وأسرار عديدة.

(١) أنظر الجزء الثامن ص ٧٥ .

ومن الإعجاز في الآية تجلي معاني البيان والوضوح، وإنتفاء اللبس والترديد إذ تخبر عن ماهية الصفا والمروة وأنهما بقعة مباركة وجزء من شعائر الله، وجاء حرف الجر (من) للتبعيض للدلالة على تعدد مصاديق شعائر الله، والتي يمكن أن نقسمها تقسيماً إستقرائياً إلى:

الأول: الشعائر المكانية ومنها الصفا والمروة، والبيت الحرام من باب الأولوية.

الثاني: الشعائر الفعلية، ومنها مناسك الحج، قال تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[1].

الثالث: الشعائر الزمانية والتي يكون فيها الزمان وعاء لأدائها، مثل يوم عرفة للوقوف على عرفة، وشهر رمضان لأداء فريضة الصيام، وذكرت الآية الحج والعمرة للدلالة على موضوعية الصفا والمروة في كل واحد منهما، وتوكيد حكم شرعي وهو أن السعي بينهما من أركان الحج، لقد بينت الآية الموضوع العبادي الذي تعلق بالصفا والمروة، وتحتمل الآية وجهين:

الأول: أن السعي بين الصفا والمروة هو السبب في صيرورتهما من شعائر الله، وترشح نيلهما لهذه المرتبة العظيمة من الفعل العبادي الذي يؤدى بالسعي بينهما والصعود عليهما.

الثاني: ذات الصفا والمروة من الشعائر، وأن الطواف والسعي توكيد لهذه الحقيقة وشاهد على تعظيم المسلمين للشعائر، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2].

---

(١)سورة الحج ٣٦.

(٢)سورة الحج ٣٢.

ولا تعارض بين الوجهين، وكلاهما من شعائر الله، ويمكن أن يكون الثاني هو الأصل، والأول في طوله وإمتداداً، وتثبيتاً له، فقد أراد الله عز وجل أن يكون المسلمون حفظة لشعائره، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [1].

وفي الآية مسائل :

الأولى : نعت الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله موضوع لإرتقاء المسلمين في سلم المعارف.

الثانية : الآية مناسبة للتفقه في الدين.

الثالثة : الآية سبيل للهداية والرشاد.

الرابعة : مضامين الآية برزخ دون الفرقة والتشتت.

ومن منافع الآية الكريمة أمور:

الأول: تثبيت أحكام السعي بين الصفا والمروة إلى يوم القيامة.

الثاني: الدعوة لأداء مناسك الحج والعمرة.

الثالث: تبعث الآية على إكرام الصفا والمروة كموضع مبارك في الأرض، وتكشف عن حقيقة وهي وجود بقع مباركة في الأرض، وتحتمل البركة في المقام جهات:

الأولى: تعلق البركة بذات الصفا والمروة.

الثانية: ترشيح البركة من البيت الحرام.

الثالثة: تأتي البركة من السعي بينهما.

الرابعة: المعنى الجامع لهذه الجهات.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

ولا تعارض بين هذه الجهات، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، والشواهد على صدق نزول القرآن من عند الله، وقدسية مضامين آياته، ترى لماذا جاءت الآية بصيغة الشرط (فمن حج أو إعتمر) والجواب من وجوه:

الأول: بيان أحكام الصفا والمروة.

الثاني: الإشارة إلى كيفية إكرام الصفا والمروة.

الثالث: توكيد ركنية السعي بينهما في أفعال الحج والعمرة.

الرابع: لزوم عدم التفريط والتقصير في السعي بين الصفا والمروة.

الخامس: بيان قانون ثابت وهو أن السعي بين الصفا والمروة فرع كونهما من شعائر الله، ولزوم معرفة المسلمين بقدسيتهما سواء الذي جاء للحج والعمرة أو من تعذر عليه الوصول إليهما، خصوصاً وأن وجوب الحج مشروط بقيد الإستطاعة، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1].

والصفا جبل مرتفع على يمين الداخل إلى المسعى من البيت الحرام، والمروة جبل منخفض يكون على يسار الداخل ويبدو في هذا الزمان وكأنهما جزء من المسجد الحرام، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما يصعد الصفا للسعي يطيل الوقوف عليه بقدر ما يقرأ سورة البقرة مترتلاً لذا يستحب إطالة الوقوف عليه إلا إذا كان هذا الوقوف يتعارض مع أداء وفد الحاج والمعتمرين، وتنفي الآية الحرج من الطواف والسعي بين الصفا والمروة، ثم تبين أن الزيادة في أداء الحج والعمرة، والسعي بين الصفا خير محض وباب للثواب.

---

(١)سورة آل عمران ٩٧.

وهـذه الآيـة هـي آيـة (الصـفا والمـروة)إذ جـاءت خاصـة بهمـا ليكـون موضوعهما حياً وغضاً ومستمراً إلى يوم القيامة مما يدل على وجه من وجوه الإعجاز في آيات القرآن، وهو أن الطراوة والحياة في الآية لا تنحصر بالإعجاز الذاتي وكلمات الآية بل تشمل الإعجاز الغيري والدلالات والرشحات أيضاً إذ يبقى الصفا والمروة موضوعاً إيمانياً خالداً ومتجدداً، يتعاهده المسلمون كل يوم، ويبلغ هذا التعاهد صبغته العالمية في موسم الحج، وفيه مسائل :

الأولى : إنه رحمة بالمسلمين والناس جميعاً.

الثانية : تأكيد حقيقة أنهما من شعائر الله.

الثالثة : فيه تذكير الناس بوظائفهم العبادية.

الرابعة : فيه جذبة عامة إلى الشاخص المبارك.

الخامسة : إنه دعوة للهداية والرشاد.

السادسة : صيرورة موسم الحج مناسبة لتعاهد الصفا والمروة وبرزخا دون الضلالة والغي.

السابعة : بيان حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتجلي أحكام وسنن الأنبياء بالسعي بين الصفا والمروة .

الثامنة : بيان معالم النصر وغلبة مبادئ التوحيد بدحر مفاهيم الكفر في أشرف بقعة في الأرض.

التاسعة : جاء قبل ست آيات الأمر الإلهي للمسلمين بذكر الله وشكره وعدم الجحود بالنعم ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1]، وفي سعي المسلمين بين الصفا والمروة ذكر لله عز وجل وشكر له سبحانه، ومصداق لسلامتهم من كفران النعم .

[1] سورة البقرة ١٥٢.

وفي الآية مسائل :

في الآية ندب للحج المندوب وتكرار العمرة، لما فيه من الثواب العظيم، ولم تذكر الآية عدداً معيناً للندب ، ولكنها وصفته بأنه خير.

لقد أختتمت الآية بإسمين من أسماء الله عز وجل لترغيب المسلمين بالحج والعمرة وتعظيم شعائر الله وتوكيد ركنية السعي بين الصفا والمروة في مناسك الحج، وفيه بيان لفضل الله عز وجل ، وكون الصفا والمروة من شعائر الله نعمة على الناس، وسبيلا لنيل الثواب العظيم.

من غايات الآية

وفي الآية مسائل :

الأولى : تعيين إسم كل من جبل الصفا والمروة، ومن الآيات بقاء إسميهما إلى يوم القيامة من غير تبديل أو تحريف، ومن إعجاز القرآن الغيري ومصاديق قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١)، أمور:

الأول : عدم طرو وإختراع إسم جديد ولو بالإضافة للصفا أو المروة.

الثاني : لم يذكر الجبلان إلا ويتقدم إسم الصفا.

الثالث : يعرف كل مسلم ومسلمة إسمي الصفا والمروة وموضوعها وموضعهما.

الرابع : شوق كل مسلم ومسلمة للسعي بين الصفا والمروة، سواء الذي أدى الحج مرة أو مرات أو الذي لم يفز بأدائه.

الخامس : إطلالة الصفا والمروة على البيت الحرام وكأنهما شمس مشرقة بالنهار والليل.

---

(١) سورة آل عمران ١١٠.

الثانية : إذا أراد المسلم التشرف بوطئ ذات الموضع الذي وطأه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقون فليتوجه للسعي بين الصفا والمروة، ومن الآيات أن المسعى ليس قصيراً.

الثالثة : مع ضيق حدود المسعى فانه يسع للملايين من المسلمين في كل عام.

الرابعة : نعت ذات الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله للدلالة على وجوب تعاهدهما بالذات وأن السعي بينهما مرتبة عظيمة إضافية.

الخامسة : دعوة المسلمين لإكرام الصفا والمروة بالذات وبالسعي بينهما بسكينة ولسان المذكر، قال تعالى﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1].

السادسة : دعوة المسلمين للإبتداء بالسعي من الصفا ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إبدأ بما بدا الله به[2].

السابعة : تجلي الوجوب بصيغة نفي الإثم والحرج ، بقوله تعالى﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ والدلالة على أن السنة النبوية بيان وتفسير للقرآن.

الثامنة : بيان الفعل العبادي بخصوص الصفا والمروة وهو الطواف بهما والذي يفسر عملياً بالسعي بينهما.

التاسعة : البعث لفعل الصالحات بما هو أعم من السعي بين الصفا والمروة لأن(خيراً) في قوله تعالى﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ نكرة في سياق الشرط وتفيد

---

[1] سورة الحج ٣٢.

[2] تفسير ابن كثير ٤٧١/١.

العموم في الطاعات وفيه إشارة وترغيب بمناسك الحج، وأعمال البر والصلاح في موسم الحج.

العاشرة : شكر الله عز وجل للمسلم على حجه وأدائه العمرة وعمارته البيت الحرام.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان موضوعية الصفا والمروة في العبادات بلحاظ أنهما محل للنسك.

الثانية: لزوم تعاهد المسلمين لجبل الصفا والمروة.

الثالثة: مجيء الآية بخصوص الصفا والمروة، وتوكيد جزئية السعي بينهما من الحج، فليس للذي يحج البيت أن يعرض عنهما وعن السعي بينهما.

الرابعة: عدم إنحصار موضوعية السعي بين الصفا والمروة بالحج وحده، فيشمل العمرة أيضاً بعرض واحد من جهة الوجوب وإن كانت العمرة مفردة ومستحبة.

الخامسة: بيان الصلة العقائدية بين المسلمين والحج، وأن الحج مناسك وأفعال عبادية تعيينية وليس تخييرية.

السادسة: الإشارة إلى قرب الصفا والمروة من البيت الحرام، وعدم وجود حاجز وبرزخ بينها.

السابعة: يدل عطف المروة على الصفا على المتعدد، وأن المروة غير الصفا.

الثامنة: مجيء خاتمة الآية بالثناء على الله وأنه (شاكر عليم) وفيه مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل يعلم بأفعال العباد، وأنها حاضرة عنده، وهذا العلم سابق لها ومصاحب متأخر عنها، ليفيد إجتماع الإسمين معاً (شاكر

عليم) نماء الثواب على الفعل العبادي، وزيادته زيادة متصلة حال إتيانه وبعده وإلى يوم القيامة.

الثانية: الحث على تعاهد شعائر الله.

الثالثة: الثناء على المسلمين لأدائهم الوظائف العبادية، ومنها الحج والعمرة.

الرابعة: مدح المسلمين لعمارتهم البيت الحرام، وهذه العمارة من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [1].

التفسير

قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [2]

شعائر الله أعلام طاعته ومواطن عبادته، وكل معلم لطاعته فهو شعيرة من شعائره وباب لرحمته، والمشَعر: المعلم والمتُعبدّ، والمشاعر: معالم العبادة التي ندب اليها وجعلها الله أعلاماً للناس، وحجة عليهم، وباباً لنيل الثواب، يقال: شعرت به أي علمت.

ووردت في الآية أقوال:

الأول: إنهما من مواضع نسكه وطاعاته، عن إبن عباس[3].

الثاني: من دين الله، عن الحسن.

الثالث: فيه حذف وتقديره الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله.

والوجوه الثلاثة أعلاه كلها من تفسير الآية التي هي أعم دلالة.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢) وسيأتي بحث تفصيلي عن هذه الآية في الجزء الثاني والثلاثين بعد المائتين بعنوان (التفسير بالتقدير ان الصفا والمروة) .

(٣) مجمع البيان ٤٠٣/١.

ويمكن أن نضيف وجهاً آخر، وهو أن ذات الصفا والمروة من شعائر الله عز وجل ويأتي السعي بينهما لأنهما موضعان مباركان من الشعائر.

الأولى : يمكن إعتبار هذه الآية من مصاديق الصبر ، ولكن ليس هو صبر المصيبة بل الصبر في طاعة الله وهو وجه من وجوه الصبر يشعر معه العبد بالغبطة والسعادة لما فيه من تدارك وعوض عن المصيبة والصبر فيها وما يتعقبها ولعل فيه تخفيفاً ودفعاً للمصيبة وأسبابها.

الثانية : من فلسفة الصبر على المصيبة الصبر على الطاعة فهي مواساة وقرين للصبر عن المعصية وعلى المصيبة، وبذا يظهر التداخل الايجابي بين وجوه الصبر وحسن خاتمته الدنيوية بالحج وأداء المناسك، والأخروية بالثواب الحسن.

الثالثة : الحج تكليف ومشقة، ويستلزم الصبر والعناء.

الرابعة : في الآية إخبار عن موضوعية السعي بين الصفا والمروة في الحج وأنهما من أفضل وجوه العبادة والنسك والقربة إلى الله.

الخامسة : تؤكد الآية لزوم إجلال هذين المقامين المباركين لأنهما موضع أداء النسك وتحث على تعاهدهما.

السادسة : قال الرازي في الآية: وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى"[1].

ولكن ظاهر الأخبار يفيد أن تشريعهما متقدم زماناً على زمان إسماعيل ﷺ وأمه، وحكم الطواف بينهما ملازم لوجود الإنسان على الأرض، والمتبادر من جعلهما من شعائر الله أعم من الحصر بهذا السبب، نعم ورد عن إبن عباس أنه قال : أول من سعى بين الصفا والمروة أم إسماعيل[2].

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٥٥/٢.

(٢) أخبار مكة للفاكهي ١/٤.

والآثار كثيرة ومنها ما قيل باستحباب الفعل التعبدي فيها ، وليس على نحو الوجوب ، وفي باب المواضع التي يستحب فيها الصلاة بمكة ، وما فيها من آثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، (وما صح من ذلك قال أبو الوليد : مولد النبي أي البيت الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو في دار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف ، كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه وفي غيره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، حين قيل له : أين ننزل يا رسول الله، وهل ترك لنا عقيل من ظل ،فلم يزل بيده وبيد ولده حتى باعه ولده من محمد بن يوسف ، فأدخله في داره التي يقال لها البيضاء ، وتعرف اليوم بابن يوسف ، فلم يزل ذلك البيت في الدار حتى حجت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون ، فجعلته مسجدا يصلى فيه ، وأخرجته من الدار ، وأشرعته في الزقاق الذي في أصل تلك الدار ، يقال له زقاق المولد حدثنا أبو الوليد ، قال : سمعت جدي ويوسف بن محمد ، يثبتان أمر المولد ، وأنه ذلك البيت ، لا اختلاف فيه عند أهل مكة [1].

السابعة : في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سمي الصفا صفا لأن المصطفى آدم عليه السلام هبط عليه فقطع للجبل إسماً من إسم آدم عليه السلام يقول الله عز وجل إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين وهبطت حواء على المروة، وإنما سميت المروة لأن المرأة هبطت عليها فقطع للجبل إسم من إسم المرأة.

---

(1) أخبار مكة للأزرقي ٣/١٨٤.

الثامنة: قال إبن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاة، وإذا ثني قيل صَفَوان، والمروة واحدة المرو وهو حجارة بيضاء براقة تقدح منها النار، قال إبن منظور: (وبها سُميت المروة بمكة) [١].

التاسعة : ما دام تشريع الحج ملازماً لوجود الإنسان على الأرض، وأن من فلسفته دوام الحياة عليها بتعاهده لأنه الميراث العملي للنبوة، فمسؤولية الناس جميعاً المحافظة على فريضة الحج بأداء المسلمين لها، وبضميمة منطوق ومفهوم قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [٢].

ومفهوم الآية مع عدم العبادة منهم تنتفي علة إستمرار وإستدامة وجودهم لأن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية.

العاشرة : بعد أن جاءت الآيات بتشريع فريضة الحج جاءت هذه الآية لبيان أحكام بعض مناسكه لتساهم في تثبيتها وإلى يوم القيامة.

الحادية عشرة : يعرف المسلمون من خلالها الأهمية العبادية لهذين الموضعين وكيف أن الإسلام يقدس مواطن العبادة ويكرم المؤمنين الذين يتعاهدونها بالأداء والإكرام والإجلال.

الثانية عشرة : أكدت الآية أن الصفا والمروة من شعائر الله مما يعني وجوب السعي والطواف بينهما فان إسميهما رسخا في قلب كل مسلم ومسلمة، لذا ترى الأمة وعبر أجيالها المتعاقبة تنظر لهما بعناوين الإكرام والحب والإجلال لأنهما من معالم الإسلام الثابتة.

---

(١) لسان العرب ٢٧٥/١٥.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

الثالثة عشرة : النص بأنهما من شعائر الله دعوة لإكرامهما الذي يعتبر من مسالك التقوى ، قال تعالى ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾[1]، خصوصاً وان الآية أعلاه جاءت في سورة الحج.

الرابعة عشرة : قد ذكرت كلمة شعائر في القرآن أربع مرات كلها في الحج وأفعاله، لأن معاني العبودية تتجلى فيه بوفود جماعي.

الخامسة عشرة : الحج ملاذ وطريق إرتقاء روحي وسلاح في وجه أعداء الدين وإظهار للإيمان الراسخ والمستقر.

السادسة عشرة : في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[2] روي أنها تخرج من بين الصفا والمروة مما يعني الموضوعية والخصوصية للصفا والمروة وما بينهما من المسعى.

والصفا حجر أزرق عظيم من أصل جبل أبي قبيس، والمروة حجر عظيم من أصل جبل متصل بجبل قيقعان ، وطول المسعى بين بداية الصفا إلى إبتداء المروة ٣٧٤ متراً، ومن صدر وعلو الصفا إلى صدر وعلو المروة هو ٣٩٥ متراً تقريباً، وكانت أرض المسعى من تراب لم ترصف، وليس له سقف إلى القرن الثالث عشر الهجري.

والسعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج، وبه قال الشافعي وأحمد وفي رواية عن مالك، وقال أبو حنيفة : أنه واجب ، روي عن حبيبة بنت أبي تجرأة أحدى نساء بني عبد الدار قالت: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به أزاره وهو يقول: إسعوا فإن

(١) سورة الحج ٣٢.

(٢) سورة النمل ٨٢.

الله كتب عليكم السعي) [١]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في رجل نسي السعي بين الصفا والمروة قال : يعيد السعي قلت فإنه خرج قال: يرجع فيعيد السعي إن هذا ليس كرمي الجمار إن الرمي سنة ، والسعي بين الصفا والمروة فريضة) [٢].

وصار السعي بين الصفا والمروة ركناً من أركان الحج، ومن أدلته قوله صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه (كتب عليكم السعي)وتأتي الكتابة بمعنى الوجوب والإلزام، قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [٣]، والمراد من الكتابة الفرض واللزوم .

وفي أيام أبي جعفر المنصور بنى عامله على مكة درجاً على الصفا إثنتي عشرة درجة، وعلى المروة خمس عشرة درجة ، كحلت بالنورة أيام المأمون.

وفي الآية رد على قريش وزجر لهم، فكونهما من شعائر الله يدل على تعذر صيرورتهما ذهباً، لأن الله عز وجل شرفهما بما هو أسمى وأعظم وجعلهما حرزاً للأجيال المتعاقبة من الناس، ووسيلة لإكتساب الحسنات، وتدين لحفظ الأرض من أن تميد بأهلها.

وفي قصص الأمم السابقة سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام مما تنبت الأرض مع أنه ينزل عليهم المن والسلوى من السماء، فورد في التنزيل حكاية عن موسى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ، أما قريش فإنهم سألوا أمراً ممتنعاً، فبينت هذه الآية أن الحال التي عليها الصفا والمروة هي أشرف وأفضل من الذهب وتأتي بمكاسب ومنافع دنيوية وأخروية أعظم من الذهب ، وتحتمل صفة الشعيرة في تعلقها أموراً:

---

(١) مسند أحمد ٣٧٦/٥٥.

(٢)مهذب الأحكام ١٢٧/١٤.

(٣)سورة البقرة ١٨٣.

الأول: ذات الجبلين.

الثاني: الجبلان وحجارتهما وإرتفاعهما.

الثالث: المعنى الأعم الشامل للموضع والحجارة والجبلين.

والصحيح هو الثالث لأصالة الإطلاق ولتعلق وظيفة السعي بهما معاً، ولأن معالمهما مترشحة من ذات الموضع والحجارة وعلى فرض ثبوت هذا المعنى فلا يجوز القطع منهما، ورفع بعض حجارتهما، والتعدي عليهما في العمارة والسكن وشق الطرف، ولا البناء عليها إلا البناء الخاص بالسعي مع الضرورة إليه وعدم معارضته مع كونهما من شعائر الله.

وأستدل على عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة بأمرين:

الأول: دلالة قوله تعالى﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ بأن عدم الجناح والإثم أمارة على الإباحة دون الواجب.

الثاني: قراءة إبن عباس وإبن مسعود (فلا جناح عليه أن لا يطوف بها).

وقال مالك، وفقهاء الحرمين بوجوب السعي وإعتمده الحنابلة، ووجوب السعي متقدم زماناً عن أيام الفقهاء وهو قول عائشة وعروة، وورود النصوص التي تبين أسباب نزول الآية وأنه كان في الجاهلية جبل على الصفا إسمه إساف وعلى المروة صنم إسمه نائلة، وأزيحت وكسرت الأصنام بالإسلام وكره المسلمون موافقة المشركين في الطواف بين الصفا والمروة، فبين الله عز وجل لهم حقيقة وهي أن ذات الصفا والمروة من شعائر الله، وأختلف في السعي بين الصفا والمروة في مناسك الحج على وجوه:

الأول: السعي ركن من أركان الحج والعمرة لا يصح أي منهما إلا بالسعي، ولا يصح جبره بدم وكفارة.

الثاني: السعي واجب ليس ركنياً، ويجبر بدم عند التخلف عن الإتيان به، لأن قوله تعالى﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ يحمل على الإباحة، ولكن ترك ظاهر الإباحة لدليل الإجماع، وان حديث حبيبة بنت أبي تجرأة خبر آحاد لا

يفيد الركنية.

الثالث: إنه سنة ومستحب، ومن تركه لا تلزمه كفارة ودم ونسب إلى إبن عباس وأنس وإبن الزبير، وروي عن أحمد بن حنبل .

وبخصوص العمرة ، قال مالك: الْعُمْرَةُ سُنَّةٌ، وَلاَ نَعْلَمُ أَحَداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَرْخَصَ فِي تَرْكِهَا [1]. ومنهم من استدل على استحبابها بقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم: الحج جهاد ، والعمرة تطوّع [2].

وعن عطاء: العمرة واجبة على الناس إلا على أهل مكة لأنهم يطوفون بالبيت، أي أن طوافهم المتكرر بالبيت كالعمرة، ولا خلاف بوجوبها العرضي بالنذر .

والمشهور شهرة عظيمة بين علماء الإسلام الأول وهو المختار، بأن السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة.

وقال بالوجه الثاني أعلاه وأنه واجب يجبر بدم أبو حنيفة وأصحابه، والحسن وقتادة والثوري، والقاضي من الحنابلة، وقال إبن قدامة في المغني إنه أولى، لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسعى بين الصفا والمروة، وفي علم الأصول مجيء فعل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأمر ظاهر أو مجمل في كتاب الله يدل على كونه سنة واجبة، وأنه تفسير وبيان للآية، قال تعالى﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[3].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لتأخذوا عني مناسككم) [4]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: نبدأ بما بدأ الله به) وفي رواية النسائي: أبدؤوا بما بدأ الله به) بصيغة الأمر الذي يحمل على الوجوب.

إن نعت الصفا والمروة من شعائر الله حجة على لزوم التقيد بالسعي

---

(١) الموطأ ١/١٩٧.

(٢) الدر المنثور ١/٤٢٠.

(٣)سورة الحشر ٧.

(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٥٢.

بينهما، وروي عن إبن مسعود وأبي بن كعب وإبن عباس وأنس أن السعي بـين الصـفا والمـروة سـنة لا يلـزم بتركـه دم، وهـذه الروايـة المتعـددة تسـتلزم التحقيق لورود بعض الأخبار بخلافه وأخرج ابن جرير عن عمرو بن حبيش قال: سألت ابن عمر عن قوله { إن الصفا والمروة . . . } الآية، فقال: انطلـق إلى ابن عباس فاسأله، فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمـد، فأتيتـه فسـألته فقال: إنه كان عندهما أصنام، فلما أسلموا امسكوا عن الطواف بينهما حتى أنزلت{إن الصفا والمروة . . . })[1].

عن عروة أنه تلا آية الصفا والمروة على عائشة وقال فو الله ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة(قَالَتْ بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنَّ هَـذِه لَـوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْه كَانَتْ لاَ جُنَاحَ عَلَيْه أَنْ لاَ يَتطَوَّفَ بهمَا ، وَلَكنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلمُوا يُهلُّونَ لمَنَاةَ الطَّاغيَةِ الَّتي كَانُوا يَعْبـدُونَهَا عنْدَ الْمُشَلَّلِ ، فَكَانَ مَنْ أَهلَّ يَتحَرَّجُ أَنْ يطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَة ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم عَنْ ذَلكَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه ، إنَّا كُنَّـا نَتحَـرَّجُ أَنْ نَطُـوفَ بَـينَ الصَّفَا وَالْمـرْوَة ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعَـالَى (إِنَّ الصَّـفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّه) الآيَةَ . قَالَتْ عَائشَةُ: وَقَدْ سَنّ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا ، فَلَيْس لأَحَد أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا)[2].

وفي تأريخ السعي بين الصفا والمروة ذكر أن هاجر أم إسماعيل عليه السلام حين ضاق بها الأمر وأصابها وإبنها العطش الشديد جاءها فضل من الله سبحانه باعانتها بماء زمزم نابعاً مباركاً لتكون فيه نجاة لهما وشهادة خالدة على تعاهده سبحانه لأهل طاعته وعباده الذين نذروا أنفسهم لتعظيم شعائره وليبقى وثيقة تأريخية.

وهذه الحادثة ليست السبب في تشريع السعي بين الصفا والمروة بل جاءت

---

(١)الدر المنثور ٣١٩/١.

(٢)صحيح البخاري ٢٥٦/٦.

لتبين المنافع العاجلة للسعي بين الصفا والمروة ولمن ضرب في الأرض طلباً لرضاه تعالى وإحياءً للسنة بدليل ما ورد عن إبراهيم عليه السلام في التنزيل ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[1]، وهناك نصوص وشواهد تدل على وجود هذه الشعائر منذ أيام آدم عليه السلام.

لقد أكرم الله عز وجل الناس بأن جعل الكعبة أول بيت في الأرض ونسبه إلى نفسه قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[2]، وتفيد الألف واللام في الناس العموم الإستغراقي فتشمل آدم وحواء، ويحتمل وضع البيت بالنسبة لآدم وحواء وجوهاً:

الأول : وضع البيت للناس قبل أن يهبط آدم وحواء إلى الأرض.

الثاني : وضع البيت بعد أن هبط آدم وحواء إلى الأرض، وهما في طريقهما إلى البيت.

الثالث : لم يوضع البيت إلا بعد أن وصل آدم وحواء إلى موضعه، وإن آدم قام ببنائه بارشاد وتعضيد من جبرئيل.

والصحيح هو الأول ، وقد أخرج عن إبن عباس قال: لما أهبط الله آدم إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام وهو مثل الفلك من رعدته ، ثم أنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألأ من شدة بياضه ، فأخذه آدم فضمه إليه آنساً به ، ثم نزل عليه القضاء ، فقيل له : تخط يا آدم ، فتخطى فإذا هو بأرض الهند أو السند فمكث بذلك ما شاء الله ، ثم استوحش إلى الركن فقيل له : احجج . فحج فلقيته الملائكة فقالوا : برّ حجك يا آدم ، ولقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام[3].

وقد قام الأنبياء بحج البيت وتعاقبت السنون والأحقاب وحصلت فترة في

---

(1) سورة البقرة ١٢٨.

(2) سورة آل عمران ٩٦.

(3) الدر المنثور ١/٢٥٠.

النبوة بعد بعثة عيسى عليه السلام فتمادى بعض الجاحدين في غيهم، وزنى رجل من جرهم بامرأة في الكعبة، وقيل قبلّها فيها ولم يطأها إلا خارج الكعبة وإسم الرجل إساف بن بغه، وإسم المرأة ناسكة بنت ذئب وقيل:بنت سهيل، فمسخهما الله حجرين وعليهما ثيابهما، ونصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة.

ولما تقادم الزمان صارا يعبدان، وقيل أمر عمرو بن لحي الناس بعبادتهما والتمسح بهما، وقيل خو لا فجعل أحدهما ملتصقاً بالكعبة، والآخر عند بئر زمزم، وكان الناس ينحرون عندهما، ولا تدنو الحائض منهما، وكان الطائف يبدأ باساف فيستلمه، وعند الفراغ من الطواف يختم بنائلة ويستلمها، إلى أن كسرهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الفتح.

وهذا النقل والتحويل لهما من الصفا والمروة لا يتعارض مع ما ورد من أسباب النزول بخصوصهما باعتبار أن المشركين يجعلون موضوعية للصنمين في سعيهم أو لوجود أصنام غيرهما على الصفا والمروة .

قال إبن إسحق: نصب عمرو بن لحي الخلصة بأسفل مكة، وكانوا يلبسونها القلائد ويهدون لها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ويذبحون لها ويعلقون عليها بيض النعام، ونصب على الصفا صنماً يقال له: نهيك مجاود الريح، ونصب على المروة صنماً يقال له: مطعم الطير. وأما مناة وكانت صخرة لهذيل وخزاعة فأول من نصبها عمرو بن لحي على ساحل البحر مما يلي قديد، وكانت الأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان دينها من أهل يثرب وأهل الشام كانوا يحجونها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا رؤوسهم إلا عند مناة، وكان يهلون لها ومن أهلّ لها لم يطف بين الصفا والمروة مكان الصنمين اللذين عليهما، وهما نهيك مجاود الريح ومطعم الطير، وكان هذا الحي من الأنصار يهلون بمناة، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحد منهم سقف بيته حتى يفرغ من حجه أو عمرته، فكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته، وإن كانت له فيه

حاجة تسور من ظهر بيته ، لئلا يحف رتاج الباب رأسه، فلما جاء الله بالإسلام وهدم أمر الجاهلية أنزل في ذلك: " وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها "[١].

وعن إبن عباس قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وإن بها ثلاثمائة وستين صنماً قد سدها لهم إبليس بالطعام وفي رواية: حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، وكان بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قضيب فطاف على راحلته وجعل يطعنها ويقول: " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً " فما منها صنم أشار إلى وجهه إلا وقع على دبره، ولا أشار إلى دبره إلا وقع على وجهه حتى وقعت كلها وأمر بهبل فكسر وهو واقف عليه.

فقال الزبير بن العوام لأبي سفيان: يا أبا سفيان بن حرب قد كسر هبل أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك، فقال أبو سفيان: دع هذا عنك يا ابن العوام فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان.

وقال ابن إسحاق: لما صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الظهر يوم الفتح أمر بالأصنام التي حول الكعبة فجمعت ثم حرقت بالنار وكسرت، ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم. ويقال: إن إبليس رن ثلاث رنات: رنة حين لعن فتغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنة حين رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائماً بمكة، ورنة حين افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

---

(١) تأريخ مكة ٣١/١.

(٢) تأريخ مكة المشرفة ٣١/١ .

وقد ورد ذكر بعض الأصنام في القرآن قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[1]، وكانت العزى لقريش، ومناة للأوس والخزرج.

ولما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينذر قريش بعذاب يوم القيامة يجادلون بأن آلهتهم تشفع لهم، وقال النضر بين الحارث: اذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى .

وكان أول أمر اللات والعزى على ما روي عن إبن عباس: أن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا، فيلت[2] سويقهم، وكان ذا غنم فسميت الصخرة اللات فمات، فلما فقده الناس ، قال لهم عمرو: إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة، وكانت العزى ثلاث شجرات سمرات بنخلة، وكان أول من دعى إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب، وقال لهم عمرو: إن ربكم يصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة، وكان في كل واحدة شيطان يعبد ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح خالد بن الوليد إلى العزى يقطعها فقطعها ثم جاء .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: " ما رأيت فيهن؟ " فقال: لا شيء قال: " ما قطعتهن فارجع فاقطع " فرجع فقطع فوجد تحت أصلها امرأة ناشرة شعرها قائمة عليهم كأنها تنوح عليهن فرجع فقال: إني رأيت كذا وكذا قال: " صدقت " .

---

(١) سورة النجم ١٩-٢٠.

(٢) سمي الصنم اللات أن رجلاً كان يلت السويق عنده للحاج إسمه اللات، وقيل الصخرة التي يلت عليها السويق إسمها اللات،ولت السويق والأقط أي بسّه بالماء/لسان العرب٢/٨٢، والسويق هو دقيق الحنطة أو الشعير يُبل بالسمن أو بالماء أو باللبن أو بالعسل، وهناك كتيبة تسمى كتيبة السويق وقعت في آخر السنة الثانية للهجرة بعد كتيبة بدر بنحو شهرين.

ويروى أن خالد بن الوليد خرج إلى العزى يهدمها في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: " أهدمت؟ " قال: نعم يا رسول الله.

قال: " هل رأيت شيئاً؟ " قال: لا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: " فإنك لم تهدمها فارجع فاهدمها " فخرج خالد وهو متغيظ فلما انتهى إليها جرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة ناشرة شعرها فجعل السادن يصيح بها فأقبل خالد بالسيف إليها فضربها فجزلها باثنتين ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره، قال: " تلك العزى قد أيست أن تعبد ببلادكم " . فقال خالد: يا رسول الله، الحمد لله الذي أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة، لقد كنت أرى أبي يأتي إلى العزى بخير ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً، ونظرت إلى ما مات أبي وإلى ذلك الرأي الذي يعاش في فضله، وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن هذا الأمر إلى الله فمن يسره للهدى تيسر له ومن يسره للضلالة كان فيها " . وكان هدمها لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان، وكان سادنها أفلح بن النضر السلمي من بني سليم، فلما حضرته الوفاة دخل عليه أبو لهب يعوده وهو حزين، فقال: ما لي أراك حزيناً " قال: أخاف أن تضيع العزى من بعدي. فقال له أبو لهب: لا تحزن فأنا أقوم عليها بعدك. فجعل أبو لهب يقول لكل من لقيه: إن تظهر العزى كنت قد اتخذت عندها يداً، وإن يظهر محمد صلى الله عليه وآله وسلم على العزى وما أراه يظهر فابن أخي. فأنزل الله عز وجل " تبت يدا أبي لهب وتب " .

وأما ذات أنواط: فكانت شجرة عظيمة خضراء بحنين، يقال لها: " ذات أنواط " لكفار قريش ومن سواهم من العرب، كانوا يعظمونها ويذبحون بها ويعكفون عندها يوماً، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ويدخل بغير زاد تعظيماً للحرم، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حنين قال له رهط من أصحابه فيهم الحارث بن مالك: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: "هكذا قال قوم موسى :اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون [1].

وقال الأزرقي : حدثني جدي ، قال : حدثنا سعيد بن سالم ، عن عثمان بن ساج ، قال : أخبرني محمد بن إسحاق : أن عمرو بن لحي ، نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديدا ، وهي التي كانت للأزد وغسان ، يحجونها ويعظمونها ، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى ، لم يحلقوا إلا عند مناة ، وكانوا يهلون لها ، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة ؛ لمكان الصنمين اللذين عليهما : نهيك مجاود الريح ، ومطعم الطير ، فكان هذا الحي من الأنصار يهلون بمناة ، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحدا منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته ، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته ، وإن كانت له فيه حاجة تسور من ظهر بيته ؛ لأن لا يجن رتاج الباب رأسه ، فلما جاء الله بالإسلام ، وهدم أمر الجاهلية ، أنزل الله تعالى في ذلك ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾[2] .

(١) تأريخ مكة المشرفة ٢١/١.

(٢) سورة البقرة ١٨٩ .

قال : وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام ، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[١].

ومن الآيات أن العيون التي في قعر زمزم ثلاث، عين حذاء الصفا وأبي قبيس، وعين حذاء المروة، وعين حذاء الركن الأسود.

وهل الصفا والمروة من مصاديق قوله تعالى ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾[٢]، أم أن القدر المتيقن من الآية هو ما ورد فيها بقوله تعالى ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[٣]، الجواب هو الأول من وجوه :

الأول : الإخبار بـ(أن الصفا والمروة من شعائر الله).

الثاني : ذكر المقام ودخول البيت بأمن فردان مباركان بينما ذكرت الآية البينات بصيغة الجمع.

الثالث : من آيات البيت البركة والهدى العام للناس، قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[٤].

آدم والحج

والحج لغة هو القصد والسعي إلى الشيء، وفي الإصطلاح هو القصد إلى بيت الله الحرام في زمان مخصوص من كل سنة وفق الحساب القمري مع إتيان أعمال مخصوصة ومسنونة.

(١) الأزرقي/أخبار مكة ١٦٩/١ .
(٢) سورة آل عمران ٩٧.
(٣) سورة آل عمران ٩٧.
(٤) سورة آل عمران ٩٧.

إنه عشق يجسد مضامين العبودية، وشوق فطري إلى الشاخص الذي جعله الخالق الكريم باباً للتوبة وسبيلاً إلى مرضاته تعالى.

ولقد كان تشريع الحج ملازماً لوجود الإنسان على الأرض، أرشد له آدم طريقاً للمغفرة، وليكون سنة ثابتة في ذريته ففي الخبر عن الأمام جعفر الصادق عليه السلام قال: لما بلغ الوقت الذي يريد الله عز وجل أرسل إليه جبرئيل، فقال: السلام عليك يا آدم الصابر ليلته، التائب عن خطيئته، إن الله عز وجل بعثني إليك لأعلمك المناسك التي يريد الله أن يتوب بها عليك، فأخذ جبرئيل عليه السلام بيد آدم عليه السلام حتى أتى به مكان البيت[1].

إن آدم عليه السلام ولمقام النبوة أخبر بعظيم منزلة البيت الحرام وأن الله عز وجل إستعبد به خلقه وجعله مباركاً وأن الطواف حوله منهج الملائكة قبل أن يخلق آدم.

وهبوط آدم عليه السلام إلى الأرض يحكي بداية عمارة البيت الحرام، وأول مراحل بنائه، عن الإمام محمد الباقر عن آبائه عليهم السلام قال: إن الله عز وجل أوحى إلى جبرئيل عليه السلام إني قد رحمت آدم وحواء فاهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة، فاضرب الخيمة مكان البيت وقواعدها التي رفعها الملائكة قبل آدم، فهبط بالخيمة على مقدار أركان البيت فنصبها، وأنزل آدم من الصفا وحواء من المروة وجمع بينهما في الخيمة وكان عمود الخيمة قضيباً من ياقوت أحمر، فاضاء نوره جبال مكة فامتد ضوء العمود وهو موضع الحرم اليوم فجعله الله حرماً لحرمة الخيمة والعمود لأنهما من الجنة، ومدت أطناب الخيمة حولها، فمنتهى أوتادها ما حول المسجد الحرام.

وأوحى الله عز وجل إلى جبرئيل أن أهبط على الخيمة بسبعين ألف ملك يحرسونها من مردة الشياطين ويؤنسون آدم ويطوفون حول الخيمة فكانوا

---

(١) الوسائل باب ٢ من أبواب الحج / حديث ٢٠.

يطوفون حولها ويحرسونها، ثم أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى جبرئيل عليه السلام بعد ذلك أن أهبط إلى آدم وحواء فنحهما عن موضع القواعد وأرفع قواعد بيتي لملائكتي وخلقي من ولد آدم فهبط عليهما وأخرجهما من الخيمة ونحاهما عن البيت ونحى الخيمة عن موضع البيت وقال: يا آدم إن السبعين ألف ملك الذين أنزلهم الله إلى الأرض سألوا الله عز وجل أن يبني لهم مكان الخيمة بيتاً على موضع الترعة المباركة حيال البيت المعمور فيطوفون حوله كما كانوا يطوفون في السماء حول البيت المعمور، فأوحى الله تبارك وتعالى إليّ أن أنحيك وأرفع الخيمة، فرفع قواعد البيت بحجر من الصفا وحجر من المروة وحجر من طور سيناء وحجر من جبل السلام وهو ظهر الكوفة فاوحى الله عز وجل الى جبرئيل عليه السلام ان ابنه واتمه فاقتلع جبرئيل عليه السلام الاحجار الاربعة من مواضعها بجناحه فوضعها حيث امره الله تعالى في اركان البيت على قواعده ونصب اعلامها.

ثم أوحى إلى جبرئيل أن إبنه وأتمه من حجارة أبي قبيس واجعل له بابين، باباً شرقاً، وباباً غرباً، فاتمه جبرئيل عليه السلام فلما فرغ طافت الملائكة حوله فلما نظر آدم وحواء إلى الملائكة يطوفون حول البيت إنطلقا فطافا سبعة أشواط ثم خرجا يطلبان ما يأكلان.

وفي خطبة للإمام علي عليه السلام قال: إن الله سبحانه إختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً.

وفي الحديث تفكيك بين موضوع العبادة، والمقصود منها، فالبيت الحرام طريق وسبب للتقرب إلى المعبود، ولم يقصد بذاته، لذا جاء التقييد ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ لمنع الغلو في هذه الأحجار المباركة.

وقد روي بالإسناد عن إبن عباس أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أهبطه إلى الأرض أن لي حرماً حيال عرشي، فانطلق فأبن لي بيتاً فيه ثم طف به كما رأيت ملائكتي تحف بعرشي فهنالك أستجيب دعاءك ودعاء من يحف به من ذريتك. فقال آدم إني لست أقوى على بنائه ولا أهتدي إليه، فقيّض الله تعالى له ملكاً فإنطلق به نحو مكة وكان آدم في طريقه كلما رأى روضة أو مكاناً يعجبه سأل الملك أن ينزل به هناك ليبني فيه، فيقول الملك إنه ليس ها هنا حتى أقدمه مكة فبنى البيت من خمسة جبال طور سيناء وطور زيتون ولبنان والجود وبنى قواعده من حراء، فلما فرغ خرج به الملك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس اليوم ثم قدم به مكة وطاف بالبيت اسبوعاً ثم رجع إلى أرض الهند فمات[1].

ومن أركان الحج التي يبطل بتركها عمداً السعي بين الصفا والمروة.

وتتضمن الآية تشريفاً للمسلمين لتعاهدهم شعائر الله وما فرض على العباد منذ أن خلق الله عز وجل آدم وأسكنه الأرض وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[2] مصداق وتوكيد لأحاديث المقام ، ودليل واقعي متصل وظاهر على أهلية المسلمين للمحافظة على معالم الدين والأحكام الثابتة في الشرائع السماوية.

وروي أيضاً أن آدم حج من أرض الهند إلى الكعبة أربعين حجة على رجليه، كما ورد أن الكعبة أنزلت من السماء وهي ياقوتة أو لؤلؤة.

لقد إجتهد آدم عليه السلام في تعظيم شعائر الله وجعل البيت الحرام ملجأ وملاذاً وواظب على هذا السفر الروحاني الذي يرتقي فيه المؤمن إلى عالم الملكوت

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٣٧.

(١) سورة آل عمران ٩٦.

وإستثمر ما فيه من الإفاضات المعنوية وأبواب الدعاء لسؤال التوبة ورجاء القرب من رحمة الله تعالى، وأعطى للأجيال من ذريته دروساً فى العبودية للرحمن فاز المسلمون بشرف أدائها والإلتزام بأحكامها.

وروى أبو جعفر عن وهب بن منبه(١) ان آدم دعا ربه فقال يارب أما لأرضك هذه عامر يسبحك ويقدسك فيها غيري، فقال الله إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدسني، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع لذكري يسبحني فيها خلقي ويذكر فيها إسمي، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أختصه بكرامتي وأوثره باسمي فأسميه بيتي وعليه وضعت جلالتي وخصصته لعظمتي وأنا مع ذلك في كل شيء أجعل ذلك البيت حرماً آمناً، يحرم بحرمته ومن حوله ومن تحته ومن فوقه، فمن حرمه بحرمتي إستوجب كرامتي، ومن أخاف أهله فقد أباح حرمتي، وإستحق سخطي، وأجعله بيتاً مباركاً يأتيه بنوك شعثاً غبراً على كل ضامر، من كل فج عميق، يرجون بالتلبية رجيجاً، ويعجون بالتكبير عجيجاً، من إعتمده لا يريد غيره، ووفد إلي وزارني وإستضاف بي أسعفته لحاجته وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، تعمره يا آدم ما دمت حياً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك، أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، قال ثم أمر آدم ان يأتي إلى البيت الحرام الذي أهبط له إلى الأرض فيطوف به.

(١) وهب بن منبه الصنعاني (٢٠ –١١٠) هجرية وقيل توفى سنة ١١٤ وهو من التابعين، روى اخباراً كثيرة عن الكتب القديمة ومن الاسرائيليات، اصله من ابناء فارس الذين بعث بهم كسرى الى اليمن. مولده ووفاته بصنعاء. روى عن ابن عباس وابن عمر .

كما كان يرى الملائكة تطوف حول العرش وكان البيت حينئذ من درة أو ياقوتة فلما أغرق الله تعالى قوم نوح رفعه فبقي أساسه فبوأه الله لإبراهيم فبناه[1].

إن قيام آدم عليه السلام ببناء البيت الحرام وأداءه الحج لسنوات عديدة باب فخر للمسلمين في محافظتهم وتعاهدهم لفريضة الحج التي هي وبإجماع المسلمين من أركان الدين.

ومن مناسك الحج الأساسية الطواف بالبيت الحرام وهو أحد الأركان الستة للحج الذي يبطل بتركه عمداً، والإجماع على أن الطواف سبعة أشواط فلو نقص شوطاً او شطراً منه بل ولو خطوة لم يصح الطواف، للاصل ولقاعدة انتفاء المركب بإنتفاء بعض أجزائه، وقد ورد في خبر ابي حمزة الثمالي عن الامام السجاد عليه السلام: لأي علة صار الطواف سبعة أشواط؟ فقال عليه السلام: إن الله قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] فردوا عليه وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[3] فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4]، وكان لا يحجبهم عن نوره، فحجبهم عن نوره سبعة آلاف عام، فلاذوا بالعرش سبعة آلاف عام فرحمهم وتاب عليهم، وجعل لهم البيت المعمور في السماء الرابعة، وجعله مثابة.

وجعل البيت الحرام تحت البيت المعمور، وجعله مثابة للناس وأمناً، فصار الطواف سبعة أشواط واجباً على العباد لكل ألف سنة شوط واحد)[5]، أي

---

(١) نهج البلاغة ٢٣٨/٣.
(٢) سورة البقرة ٣٠.
(٣) سورة البقرة ٣٠.
(٤) سورة البقرة ٣٠.
(٥) الوسائل ١٦/١٣ .

أن تحديد عدد أشواط الطواف يتعلق في تشريعه بموضوع خلق آدم عليه السلام وصيرورته خليفة في الأرض ، ولعل في كل طواف ثواب ألف طواف والله واسع كريم.

إن موضوع البيت الحرام وفريضة الحج لا ينحصر في الجانب العبادي فقط بل هو أعم من ذلك ويمكن تلمس الدروس الأخلاقية والإجتماعية والنفسية والسياسية فيه، فهو مناسبة لإجتماع المسلمين وتجديد أحياء معالم الدين وتعظيم شعائر الله بروح الألفة والمحبة والتقوى، وكان لآدم عليه السلام مأنساً.

وفي تسمية مِنى، ورد عن إبن عباس أن جبرئيل لما أراد أن يفارق آدم عليه السلام قال له: تمَّنَ، قال: أتمنى الجنة فسُميت بذلك لأمنية آدم[١].

ولقد أعطى آدم عليه السلام درساً للاجيال بما كان يفعله من اجلال وتقديس والتفات الى اهمية تعظيم البيت الحرام في الواقع اليومي.

عن الثمالي قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يحدث رجلاً من قريش قال: لما تاب الله على آدم واقع حواء، ولم يكن غشيها منذ خلقت إلا في الأرض وذلك بعدما تاب الله عليه، وكان آدم يعظم الحرم وإذا أراد أن يغشى حواء خرج من الحرم وأخرجها معه، وغشيها في الحل ثم يغتسلان، ثم يرجع الى فناء البيت.. ... الحديث[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: لِمَ سُمي الأبطح أبطحاً؟ قال: لأن آدم عليه السلام أُمر ان ينبطح في بطحاء جمع، فانبطح حتى إنفجر الصبح، ثم أُمر أن يصعد جبل جمع، وأمره اذا طلعت الشمس أن يعترف بذنبه، ففعل ذلك، فأرسل الله ناراً من السماء فقبضت قربان آدم[٣].

---

(١) البحار ١٠٨/١٢ .

(٢) قصص الانبياء ٦٤ عن كتاب الخرايج.

(١) جواهر الكلام ٧٣/٩١.

قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾

أي قصد زيارة بيت الله في وقت مخصوص لأداء فريضة الحج، والآية وإن وردت بصيغة الخبر فإنها تفيد الأمر والإنشاء ، والأمر إنحلالي ينحل بعدد الحجاج، ولا ينحصر بالموجود بل يشمل المعدوم من المسلمين وبلحاظ دلالة إسم الشرط (من) على الجمع وقرينة وجوب الحج على كل مسلم ومسلمة بقيد الإستطاعة بالإضافة إلى النصوص التي تدل على إستحباب أدائه بعد أداء الحج الواجب، ومن مفاهيم هذه الآية أنها ترغيب بالحج واجباً أو مندوباً.

وجاءت الآية في نظم آيات تخاطب المسلمين كما تقدم قبل خمس آيات﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ...﴾(١)، ولكن هذه الآية جاءت بصيغة الشرط والعموم ، ولم تكن الآية التي بعدها بذات النظم ليكون الحج جامعاً للصبر والصلاة لأنه عبادة بدنية مالية تستلزم الصبر وتحمل مشاق الطريق وعناء فراق الأهل وتعطيل المكاسب .

ومن أسرار لغة العموم في الآية تعلقها بالإطلاق في التكليف بالحج بقوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(٢)، وفيه نكتة وهي أن السعي بين الصفا والمروة واجب مصاحب لحج البيت من أيام أبينا آدم عليه السلام، إذ ورد الخطاب التكليفي للناس جميعاً وإن صار التقييد بقوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾(٣).

وجاءت الآية بصيغة المفرد لتأكيد وجوب السعي بين الصفا والمروة ، وأن على كل مكلف تعاهد هذا المنسك والمحافظة عليه، فاذا أساء وفرط المشركون

(١) سورة البقرة ١٥٣.
(٢) سورة آل عمران ٩٧.
(٣) سورة التوبة ٢٨.

بهذا النسك فعلى المؤمنين تعاهده وحفظه، ومن أسرار لغة المفرد في المقام هو عجز أي جهة أو سلطان منع المسلمين عن السعي بين الصفا والمروة ، ولزوم السعي حتى مع العذر محمولا.

وتقدير الآية على وجوه :

الأول : فمن كان مستطيعاً وحج البيت.

الثاني : فمن إمتثل لأمر الله بأداء فريضة الحج.

الثالث : فمن رزقه الله الحج وكان في ضيافة الرحمن أي بما هو أعم من الإستطاعة.

وقيل بأنه لو إقترض وحج البيت فان هذا الحج لايجزي عن حجة الإسلام، ولا دليل عليه، فالآية أعلاه جاءت مطلقة، ووردت النصوص به، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحج عرفة[1].

ويستحب في هذا الزمان الإقتراض للحج مع الظن بالقدرة على الإيفاء، لوجود قيود وضوابط إضافية مثل القرعة وجواز السفر وغيره، فاذا تهيئ الحج في سنة مخصوصة قد لايتهيء في سنة أخرى طول العمر، ويكون الحج مع الإقتراض مبرء للذمة عن حجة الإسلام .

ومع أن الآية جاءت بخصوص الصفا والمروة فانها ذكرت الحج وموضوعيته مما يدل على أن السعي فرع الحج وأحد مناسكه، وفيه تأديب للمسلمين في تثبيت أعمال الحج وعدم تغييرها أو تبديلها، وهو دليل على أن بيان المناسك لم ينحصر بالسنة النبوية بل جاء التفصيل بالقرآن الكتاب الخالد السلام من النقص أو الزيادة إلى يوم القيامة.

وذكرت الآية البيت الحرام بلفظ (البيت) في دلالة على أن الناس لايحجون في يوم ما الى بيت في الأرض غير بيت الله، فالتعريف بالألف

---

(1) الكشف والبيان ١/٣٨٢.

واللام العهدية كاف للبيان، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1]. وأنه سبحانه له ملك السموات والأرض ، وحديث إبرهة موثق في القرآن إذ أراد أن يحج العرب إلى كنيسة عظيمة بناها في اليمن ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾[2].

قوله تعالى ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾

أي جاء المسلم البيت الحرام ليؤدي مناسك العمرة، وما يجب عليه من أجزاء وشروط وأفعال العمرة، ولا خلاف بأن الحج أهم من العمرة ولكنها جاءت في الآية بعرض واحد مع الحج لوجوه الإلتقاء بينهما في وجوب عمرة التمتع مع الحج على المسلم المستطيع ووجوب السعي بين الصفا والمروة قال تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ﴾[3]، ولبيان حقيقة وهي أن السعي بين الصفا جزء واجب من كل من الحج والعمرة.

ويحتمل قوله تعالى (أو إعتمر) وجوهاً:

الأول: إرادة العمرة المفردة.

الثاني: شمول عمرة التمتع.

الثالث: إرادة المعنى الأعم للوجهين أعلاه .

والصحيح هو الثالث لإتحاد السنخية والحكم وأصالة الإطلاق.

قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

أي ليس من حرج عليه إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة، وهل يحمل

---

(١) سورة البقرة ١٦٥.

(٢) سورة الفيل١-٥.

(٣) سورة البقرة ١٩٦.

الطواف على معناه اللغوي وهو الطواف والدوران حولهما، الجواب: إنه خلاف النصوص وتفاصيل الأحكام فالمراد منه السعي بينهما وجاء ذكر الطواف لوجوه:

الأول: للمقاربة بين الطواف والسعي.

الثاني: غلبت طواف البيت.

الثالث: نعت السعي بالطواف مجازاً وصدق مسمى الطواف بالسعي.

الرابع: السعي يشبه الطواف.

الخامس: بيان لزوم الإتيان بالسعي والطواف معاً.

السادس: يقال طاف بالشيء: دار حوله،(وقيل: طاف به حام حوله، وأطاف: إستدار وجاء من نواحيه)[1]، ليتضمن معنى الطواف في المقام، الإشارة بان موضوعهما واحد وأن التعدد في الإسم والموضع لا يمنع من النظر لهما عبادياً على نحو متحد ، والإشارة والدلالة إلى التعدد في الذهاب والإياب بين الصفا والمروة، ليكون من الإعجاز ذكر لفظ (يطوّف) في الآية لتوكيد أحكام السعي بينهما سبع مرات، وتكون هذه السعة نوع طواف.

السابع: إلحاق السعي بالطواف في الشأنية والفعل العبادي، ولما وصفت الآية الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله، جاء هذا الشطر ببيان الفعل العبادي في المقام وأنه طواف بين شعيرتين من شعائر الله.

الثامن: توكيد حكم شرعي وهو لزوم الصعود على كل من الصفا والمروة في السعي بينهما، وعدم الإكتفاء بالسعي في المسافة بينهما، ويكون تقدير الآية لا جناح عليه أن يطوّف بالصفا، ويطوّف بالمروة.

التاسع : بيان أحكام السعي وأنه ملحق بالطواف.

وظاهر الآية أن المراد من نفي الجناح والحرج والميل عن الحق الإستحباب في السعي، ولكن القرائن والنصوص المتواترة تدل على وجوب السعي بينهما

---

(١)لسان العرب٩/٢٢٥.

فيكون حمل الآية الكريمة على نفي أمر عرضي آخر ملازم للوجوب وهو حالة من الشعور تعتري المسلمين أو بعضهم أثناء السعي بظهور الحرج والضيق عند أداء الواجب من وجود الأصنام حينئذ، أو لأن أهل الجاهلية كانوا يسعون بينهما، وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة فريضة ام سنة، فقال: فريضة، قلت: او ليس قد قال الله عز وجل، ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، قال: كان ذلك في عمرة القضاء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة، فتشاغل رجل ترك السعي حتى إنقضت الأيام وأعيدت الأصنام، فجاؤوا إليه فقالوا: يا رسول الله ان فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة وقد أعيدت الأصنام فأنزل الله عز وجل ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ أي وعليهما الأصنام .

وجاءت الآية لدفع وهم، ولكن الوهم منحصر إجمالاً بالأيام الأولى للإسلام فقد رفعت بعدئذ الأصنام فهل الآية تتعلق بتلك الأيام خاصة مع إستبعاد حصول ذلك في قادم الأيام، الجواب: لا، وموضوعها أعم من مسألة رفع الأصنام وطواف الكفار ، والقرآن حي باق إلى يوم القيامة بذاته ، وأحكامه وأوامره ونواهيه تنحل بعدد الوقائع والأشخاص، لذا جاءت الآية للإخبار بانهما من شعائر الله على نحو الإطلاق، وفي الآية مسائل:

الأولى : إرادة تثبيت هذا الركن من الحج ومن العمرة.

الثانية : بشارة السكينة والأمن ودوام السعي بينهما.

الثالثة : التوكيد بأن مناسك الحج والعمرة لا تنحصر بالطواف بالبيت الحرام خصوصاً بالنسبة للعمرة إذ ليس فيها وقوف على عرفة أو مبيت في منى.

الرابعة : بشارة رفع الأصنام بالنسبة لأيام النزول.

الخامسة : توثيق حقيقة تأريخية وجهادية لأجيال المسلمين، وهي ما كان

يعانيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة من المشركين وما يلقونه من صنوف الأذى وما بذلوه من الجهد والسعي الحثيث لتثبيت أحكام الشريعة .

السادسة : بعث المسلمين على تعاهد شعائر الله والعناية التامة بمواطن عبادته تعالى وعدم التفريط بالشعائر خصوصاً وان الآية وردت بالتبعيض بحرف الجر (من) بقوله تعالى ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

السابعة : عدم الخشية في السعي بينهما ، لذا ترى المسلمين لا يحتاجون الى السلاح أثناء السعي بينهما.

الثامنة : لو حصل تزاحم او تعارض بين أداء الفرائض والخشية من الكفار يقدم الأول اذا لم تبلغ التقية من الأعداء الدماء، والآية إخبار بعدم وصول التقية إلى هذه المرتبة.

التاسعة : ما داما من شعائر الله عز وجل فلا تترددوا في السعي بينهما ولا تخشوا أحداً أو حدوث أمر بسبب السعي أي أن الفاء على هذا التفسير تكون للسببية.

العاشرة : الآية حجة بان تشريع الحج منذ ايام ابينا آدم، وان السعي بين الصفا والمروة ليس مستحدثاً في الإسلام.

الحادية عشرة : فيها وقاية وحرز من إفتراءات أهل الكتاب وتشكيكهم فكما عيّروا المسلمين باتحاد قبلتهم مع قبلة اليهود فلا مانع من تكرار التعيير باتحاد مناسكهم مع مناسك المشركين.

الثانية عشرة : السعي بين الصفا والمروة موعظة وعبرة للمسلمين في الإمتثال مع وجود معوق ظاهر أو مانع عرضي لأن الله عز وجل يتعاهد الإسلام وأحكامه.

الثالثة عشرة : الأمر الإلهي بالسعي بينهما في كل الأحوال وإن إستحدث أمر يتنافى مع الشعائر فبعد نزول الآية لا يمكن لفقيه أو حاكم أن يقول بتعطيل السعي بين الصفا والمروة بدعوى أسباب قاهرة أو لأغراض الصيانة والإعمار

أو لفتنة حلت ونحوه، فعلى الحجاج والمعتمرين أن يؤدوا مناسكهم وعلى الجميع التخلية بينهم وبين أداء المناسك.

الرابعة عشرة : بيان لحقيقة شرعية وهي مجيء القرآن بتفاصيل الأحكام الشرعية رحمة وتيسيراً وتخفيفاً وحجة ومنعاً للفرقة.

الخامسة عشرة : الآية من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

ومن إعجاز القرآن أن ذات الآية القرآنية تتصف بأمور :

الأول : البيان الذاتي لمضامينها القدسية.

الثاني : دفع الوهم والإجمال في معانيها ، ودلالة ألفاظها .

الثالث : منع الخلاف والشقاق في تفسيرها وتأويلها.

الرابع : الحث على العمل بما فيها من الأوامر وإجتناب ما فيها من النواهي.

وإذ نفت آية البحث الجناح والإثم عن الذي يسعى بين الصفا والمروة فانها أشارت إلى وجوب السعي من جهات:

الأولى : قوله تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ مما يدل على أن التطوع أدنى رتبة من الوجوب، وأنه يأتي بتكرار الطواف.

الثانية : إن الله عز وجل شاكر لمن يطوّف بالصفا والمروة.

الثالثة : إنه سبحانه يعلم بمن يسعى بينهما ويجازيه عليه خيراً.

ومن مصاديق نفي الجناح والميل عن الحق في المقام وجوه:

الأول : كراهية المسلمين بمحاكاة أهل الجاهلية في السعي بين الصفا والمروة.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

الثاني : كان أهل الجاهلية يكرهون السعي بين الصفا والمروة، فجاءت الآية لنفي هذه الكراهية وأنه لا أصل لها.

الثالث : موضوع الآية ما قبل فتح مكة عندما كان الصنم إساف على الصفا، والصنم نائلة على المروة، وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام:كان ذلك في عمرة القضاء، وقد شرط عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة.

(وروي أن المسعى كان أوسع مما هو اليوم ولكن الناس ضيقّوه[1].

وذكر أن قريشاً رفعت الأصنام فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بين الصفا والمروة، وردت قريش الأصنام بين الصفا والمروة، فجاء رجل وقال للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه لم يسع، فنزلت آية البحث، وتقدير الآية حينئذ ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وإن كانت الأصنام فيهما)، فحتى على القول بأن سبب النزول خاص فَان المدار على عموم المعنى وإرادة مختلف الأزمنة وتقلبات الأيام، وهو من أسرار بقاء أحكام القرآن إلى يوم القيامة.

بحث قرآني

ذكر أن عروة بن الزبير فهم من قوله تعالى ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أن السعي ليس بركن، فردت عليه عائشة ذلك وقالت: لو كان كما قلت، لقال (ان لا يطوف بهما).

وروي عن إبن مسعود أنه قرأ (فلا جناح عليه ان لا يطوف بهما) [2]، ولكنها قراءة شاذة وخلاف المرسوم في المصاحف.

أن عدم الوجوب أمر واسع وفيه مندوحة ويشمل وجوه الجواز مطلقاً

---

(١) سورة .

(٢) الكشاف ١٤٧/١.

من الإستحباب والإباحة والكراهة، إنما يستفاد الوجوب من السنة القولية والفعلية والتقريرية وهو المشهور شهرة عظيمة بين علماء المسلمين وهذا من إعجاز القرآن وسلامة الشريعة من التحريف والتغيير، فنزلت الآية بنفي الإثم والجناح مطلقاً، ولكن السنة تثبت الحكم الشرعي المستقرأ من الآية وتفسيرها، بالإضافة إلى علم أسباب النزول وما فيها من الدلالة والبيان والبرهان وكأنها معضدة للسنة ومنع من التفسير بالرأي وما فيه من التعدي الموضوعي، إن هذه الآية شهادة قرآنية على:

الأولى : إعتبار السنة النبوية الشريفة في تفسير القرآن، ولزوم عدم الإعراض عنها.

الثانية : التحذير من أخذ آيات القرآن بلحاظ المعنى اللغوي وحده، إذ أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع.

الثالثة : موضوعية أسباب النزول في بيان المراد من الآية القرآنية.

الرابعة : أهلية المسلمين لمعرفة وتعاهد الحكم الشرعي الوارد في الآية القرآنية وإن كان ظاهرها يحتمل وجوهاً اخرى.

الخامسة : عدم وجود أقوال معتبرة في تفسير الآية وفق الظاهر مع أن المشهور والغالب يقول بحجية الظواهر، إذ أن ظاهر الآية لا يدل على وجوب السعي بين الصفا والمروة فجاءت السنة لتثبت الوجوب ويلتزم به المسلمون جميعاً.

السادسة : السنة وحدها تصلح أن تكون مصدراً لتشريع الوجوب كما في الختان في وجوبه من السنة النبوية الشريفة أما السعي فان وجوبه بالقرآن المبين بالسنة النبوية الشريفة.

السابعة : يمكن أن يستقرأ الوجوب من باب تفسير القرآن بالقرآن أيضاً فقوله تعالى ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ دليل على نهي الآية عن ترك الواجب، وأن النافلة والزيادة مستحبة ومندوبة.

بحث أصولي

من أفراد الحكم التكليفي الإباحة وهو تخيير الشارع المكلف بين الفعل والترك من غير تقديم وترجيح لأحدهما.

تستفاد الإباحة من الإذن والترخيص والحلية والجواز والتخيير كما في قول القائل إن شئت فافعل وإن شئت فلا تفعل، ومن الندب إلى المنافع او الأفعال والإنتفاع منها، ومن عدم ورود تحريم في الأمر، ومن الإقرار ومنه السنة التقريرية بل ان بعض الصحابة ذهب إلى إستنباط الحكم من تقرير القرآن، كما في (قول جابر بن عبد الله: كنا نعزل والقرآن ينزل[1].

ومن وجوه الإباحة رفع الجناح، ومنع الحرج كما في قوله تعالى ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾[2] ومن إعجاز القرآن أنك ترى ﴿لَا جُنَاحَ﴾ تأتي لتدل على الوجوب كما في هذه الآية مما يعني أن الأحكام الشرعية أعم من أن تنحصر بقوانين اللغة، فان السنة الشريفة تقدم ولها التوسعة والتضييق مما يدل بالدلالة الإلتزامية على بقاء بحوث وعلوم القرآن متجددة ومستمرة، مع صبغة الثبات للأحكام.

ومع أن المشهور والمختار أن صيغة (إفعل) حقيقة في الوجوب وهو الظاهر لغة وبإرادة الطلب اللازم وعدم الترك فقد جعلها بعض الأعلام مشتركة بين الوجوب والمندب، ومنهم من جعلها مشتركة بين ثلاثة وجوه:

الأول : الوجوب.

الثاني : الندب.

الثالث : الإباحة.

ومنهم من أضاف لهذه الوجوه وجوهاً أخرى كالتهديد.

---

(1) الدر المنثور ٣٧/٢.

(2) سورة البقرة ٢٣٠.

وليس من صيغة محدودة لإرادة الإباحة ، وخالف الكعبي من المعتزلة ومن اتبعه وقال بنفي المباح بلحاظ أن فعل المباح يفيد ترك حرام ما.

ولكن الوصف والتعريف للفعل يترشح عن ذاته وليس عن فعل شيء غيره، ومتعلق الأمر به لمصلحة أو دفع مفسدة فيه بالذات، ولا ملازمة بين فعل المباح وترك الحرام، فقد يكون في فعل المباح ترك مستحب أو إرجاء واجب أو ترك مباح آخر.

قوله تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾

الأولى : الخير هنا بمعنى العمل الصالح، وما فيه من الإحسان على النفس وعلى الغير كأسوة حسنة.

الثانية : الآية دعوة لإتيان ذات الفعل العبادي المندوب والمستحب والتبرع به نافلة.

الثالثة : ورود الآية على التنكير يدل على سعة فضل الله تعالى، وفيه دعوة للإكثار من النافلة ومنها العمرة المندوبة.

الرابعة : الآية قاعدة كلية في فعل الخيرات وإتيان الصالحات.

الخامسة : يبقى باب العمل فيها مفتوحاً ما دامت الحياة الدنيا ، قال تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1] .

السادسة : إطلاق الآية يستوعب عمل الصالحات، أما معناها الخاص فيتعلق بالطواف وتكرار الحج والعمرة.

السابعة : صحيح أن الحج والعمرة الواجبتين يؤديان مرة في العمر فان المستحب من الحج يصح في كل سنة، وبالنسبة للعمرة فيستحب لكل شهر عمرة، والمختار يجوز الاتيان بالعمرة كل إسبوع أو كل يوم خصوصاً مع

(١)سورة التوبة ١٠٥.

سرعة وسائط النقل، وتقارب البلدان.

وقيل بكراهة تكرارها في العام الواحد ، وقاله مالك في المدونة، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكررها في عام واحد مع قدرته عليه، وعن علي عليه السلام: في كل شهر عمرة، ولعل المراد منه الترغيب فيها وليس التقييد ،وكرهت عائشة عمرتين في شهر، وروي عن إبن عمر أنه إعتمر ألف عمرة وحج ستين حجة.

الثامنة : الآية تشريف وإكرام للمسلمين بتحمل مسؤولية تعظيم شعائر الله في الأرض وهو من عمومات قوله تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

ومن الإعجاز في الآية مجيؤها بصيغة الإطلاق من وجوه:

الأول: ذكر التطوع وهو أمر واسع وفيه مندوحة وسعة بلحاظ قلة الوقت الذي تؤدى فيه المناسك بلحاظ الأيام التي يقضيها الحاج والمعتمر في الديار المقدسة موسم الحج وعند العمرة ويدل ذكر لفظ التطوع في مفهومه على وجوب السعي بيني الصفا والمروة، لأن التطوع نافلة وأمراً إضافياً، ومن الإعجاز في القرآن والدلالة على توكيد وجوب السعي بين الصفا والمروة والشواهد أن فيه﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، ومصاديق قانون التفسير الذاتي.

إن مادة (تطوع) لم ترد في القرآن إلا مرتين، قال تعالى﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾[3]، وفيه مسائل:

الأولى: جاءت كلا الآيتين في الواجبات.

الثانية: الإجماع على إرادة الزيادة والنافلة في الآية أعلاه وموضوع كفارة

(١) سورة آل عمران ١١٠.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة البقرة ١٨٤.

الإفطار(وعن إبن عباس: من تطوع بزيادة الإطعام) [١]، مما يدل بالدلالة الإلتزامية على أن المراد من التطوع في الآية محل البحث النافلة والزيادة في السعي بين الصفا والمروة.

الثالثة: توكيد هذه الآية بأن الصفا والمروة من شعائر الله وأن التطوع في السعي باب للثواب.

الثاني: ورود لفظ (الخير) في الآية وهو سور الموجبة الكلية، من جهات:

الأولى: كثرة وتعدد السعي بين الصفا والمروة.

الثانية: الإكثار من العمرة المفردة وأداء مناسكها، ومشهور الفقهاء لكل شهر عمرة، وقد ذكرت في رسالتي الموسومة (مناسك الحج) وفي المسألة(١٨٦)يجوز الإتيان باكثر من عمرة في يوم واحد عن نفسه او عن غيره، وسواء كانت واجبة او مندوبة، وما ورد من النصوص في عمرة لكل شهر من باب البيان وتعدد المطلوب ولحاظ المشقة في تلك الأزمنة وقطع المسافة، كما وردت بعض النصوص باستحباب العمرة في كل اسبوع) [٢].

ولم تقيد الآية أفراد الخير وموضوعه، وإن كان الموضوع يستقرأ من مضامين الآية الكريمة.

الثالث: في الآية تنمية لملكة التطوع في الخيرات، والمبادرة إلى النافلة رجاء الثواب ونيل مرتبة تلقي الشكر من الله عز وجل.

ويحتمل موضوع التطوع وجوهاً:

الأول : إرادة التطوع بخصوص السعي بين الصفا والمروة، فيصح الإتيان بالسعي منفرداً بقصد أنه طواف بين شعائر الله.

الثاني : المراد التطوع في الحج بلحاظ أن السعي بين الصفا والمروة من

---

(١) مجمع البيان ١٨٥/١.

(٢)مناسك الحج ٥٨.

مناسكه، وعن علي عليه السلام : لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[١] قالوا : يا رسول الله في كل عام ؟ فسكت . . قالوا : يا رسول الله في كل عام؟ قال : لا . ولو قلت نعم لوجبت . فأنزل الله { لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم }[٢]، وعن إبن عباس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يا رسول الله؟ قال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها . الحج مرة فمن زاد فتطوّع[٣].

الثالث : إرادة النافلة في الصلاة والصيام.

الرابع : المقصود فعل الخيرات والنافلة مطلقاً.

ولا تعارض بين هذه الوجوه، وكلها من مصاديق الآية الكريمة، لأن (خيراً) جاء نكرة في سياق الشرط فتفيد الإطلاق أي كل تطوع في الخير فان الله عز وجل يشكر العبد عليه وهو سبحانه عالم به.

قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

الأولى : خاتمة مباركة للآية وقاعدة كلية تنبسط على الدنيا والآخرة.

الثانية : الدور الذي يعني وجود شيئين، كل منهما يتتنى في وجوده على الآخر والذي لا يتم ولا يصح في الفلسفة تراه جزء من المعرفة الإلهية كباب للأجر والثواب لأن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء ومصاديقها مناسبة للثواب.

الثالثة : إن الله سبحانه يهدي ويوفق لأداء المناسك، ومع هذا فانه يشكر

---

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) الدر المنثور ٣٩٠/٢.

(٣) الدر المنثور ٣٩٠/٢.

المؤدين لها والمحافظين على شرائطها وبقائها بالفضل الجزيل لطفاً منه وإحساناً.

الرابعة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على أن السعي بين الصفا والمروة عبادة وعمل صالح وأنه مناسبة لإكتناز الصالحات والثواب العظيم.

الخامسة : إنه حث مبارك على المواظبة على أداء مناسك الحج والعمرة.

السادسة : إن الدعوة إلى أداء أجزاء العبادة يعني الحث على إتيانها باجزائها وشروطها الأخرى.

من إسماء الله تعالى الشاكر والشكور، وهو سبحانه الذي يهدي عباده إلى فعل الصالحات ومن مصاديق شكر الله للعباد أمور:

الأول : يقبل اليسير من العمل.

الثاني : يقربهم من منازل الطاعة ويهيئ لهم مقدمات الإمتثال.

الثالث : يدفع الله عن الناس الموانع التي تحول دون العبادة، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[1].

الرابع : يزيد الله على المؤمنين من أسباب الرزق الكريم، قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

الخامس : الجزاء العظيم في الآخرة على الإيمان وفعل الصالحات بالخلود في النعيم.

السادس : الثناء على العابدين المطيعين ، ومنه قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3].

والله سبحانه وهو العليم بمن يطيعه ومن يعصيه من قبل أن يخلق الناس،

---

(1) سورة الشورى ١٩.

(2) سورة ابراهيم ٧.

(3) سورة آل عمران ١١٠.

وأعمالهم حاضرة عنده لا تغيب عنه أبداً.

ومن مصاديق إعجاز القرآن تجلي مصاديق شكره تعالى بآياته بما يبعث الشوق في النفوس إلى الطاعة ، ويسبب النفرة من المعصية ففي خاتمة آية البحث ترغيب بأداء مناسك الحج وحرص على إتيانها كاملة كما أداها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: خذوا عني مناسككم[1]، وبلحاظ آية البحث فان شكر الله عز وجل من وجوه:

الأول : الحج الواجب.

الثاني : الحج المندوب.

الثالث : السعي بين الصفا والمروة.

الرابع : التسليم بأن الصفا والمروة من شعائر الله.

الخامس : تعاهد مناسك الحج.

السادس : إعانة الحجاج وتهيئة مقدمات حجهم، وبذل نفقات الحج لمن يرغب فيه ويعجز عن الزاد والراحلة.

أفعال الحج

افعال الحج ثلاثة عشر:

الأولى : الإحرام.

الثانية : الوقوف بعرفات.

الثالثة : الوقوف بالمشعر الحرام.

الرابعة : رمي الجمرة العقبة في منى.

الخامسة : الهدي.

السادسة : التقصير.

السابعة : رمي باقي الجمرات.

---

(١) مفاتيح الغيب ٣٥٣/٢.

الثامنة : طواف الحج.

التاسعة : صلاة الطواف.

العاشرة : السعي بين الصفا والمروة.

الحادية عشرة : طواف الوداع او النساء.

الثانية عشرة : صلاة طواف الوداع النساء.

الثالثة عشرة : المبيت في منى.

واعمال العمرة المفردة سبعة وهي:

الأول : الإحرام.

الثاني : الطواف.

الثالث : صلاة الطواف عند مقام ابراهيم.

الرابع : السعي بين الصفا والمروة سبعة اشواط.

الخامس : التقصير او الحلق.

السادس : طواف الوداع أو النساء.

السابع : صلاة طواف الوداع أو النساء.

وتجزي العمرة المتمتع بها اي التي يتصل بها حج التمتع، كما لو سافر الى الحج من يكون بلده بعيداً عن مكة واعتمر قبل أوان الحج وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وهو المتعارف والشائع فهذه العمرة تجزي عن العمرة المفردة .

وتجب العمرة على الكافر أيضاً إذا كان مستطيعاً لأنه مكلف بالفروع كتكليفه بالأصول وعموم الخطاب يشمله، ولكنها لا تصح منه ولا يؤذن له ما دام كافراً كسائر العبادات، فالإسلام شرط في الصحة، ولو مات الكافر لا تقضى عنه، لأن القضاء نوع إكرام وطريق محتمل للإبراء، ويقضى عن المسلم وعليه النص والإجماع وإذا إختلف علماء الإسلام في

قضـاء الصـلاة والصـوم علـى مـن فاتـاه فـأنهم أجمعـوا علـى قضـاء الحــج، وتلــك آيــة في موضــوعية الحــج ونفعــه للحــي والميــت، ولزوم عدم التفريط به كفريضة وفعل عبادي .

وعـن سـودة بنـت زمعـة قالـت: جَـاءَ رَجُـلٌ إِلَـى رَسُـولِ اللَّـه صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـه وآلـه وَسَـلَّمَ فَقَـالَ إِنَّ أَبِـي شَـيْخٌ كَـبِيرٌ لَـا يَسْـتَطِيعُ أَنْ يَحُـجَّ قَـالَ أَرَأَيْتَـكَ لَـوْ كَـانَ عَلَـى أَبِيـكَ دَيْـنٌ فَقَضَـيْتَهُ عَنْـهُ قُبِـلَ مِنْـكَ قَـالَ نَعَـمْ قَـالَ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وآلـه وَسَـلَّمَ فَاللَّـهُ أَرْحَـمُ حُـجَّ عَنْ أَبِيكَ[1].

ومن مستحبات السعي

الأول: الإستسـقاء مـن زمـزم مـع مباشـرة ذلـك بنفسـه والإرتـواء، والأولى أن يكـون قبـل الـذهاب إلى الصـفا، والشـرب منـه ويسـتحب حملـه وإهـداؤه وإسـتهداؤه، وأن يـدعو عنـد الشـرب وهـو مسـتقبل القبلـة بالمـأثور، وفي صـحيحة معاويـة بـن عمـار عـن الصـادق عليـه السـلام: "وتقـول حـين تشـرب: اللـهم إجعلـه علمـاً نافعـاً ورزقـاً واسـعاً وشـفاء مـن كـل داء وسقم".

الثـاني: أن يتجـه إلى الصـفا مـن البـاب المحـاذي للحجـر الاسـود وهـو البـاب الـذي خـرج منـه رسـول الله صـلى الله عليـه وآله وسلم.

الثالث: أن يكون على طهارة وأن يمشي بسكينة ووقار.

الرابـع: الصـعود إلى الصـفا بحيـث ينظـر إلى البيـت مـع عـدم وجود حاجب ويتأكد ذلك بالنسبة للرجل.

الخـامس: إسـتقبال الـركن الـذي فيـه الحجـر، ويكـبر الله تعـالى

---

(١) مسند أحمد ٤٣١/٥٥.

ويحمده ويذكر من آلائه وبلائه - وحسن ما صنع الله - ما يقدر ذكره خصوصاً الدعوات والأذكار المخصوصة، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله.

ومن واجبات السعي

الأول: النية، ويكفي فيها الداعي إبتداءً وإستدامة مدة السعي إلى تمامه وأنه سعي العمرة المفردة أو عمرة التمتع، فهناك سعي لعمرة التمتع او لحجة الإسلام او الحج المندوب وغيره.

الثاني: البدأ بالصفا والختم بالمروة في آخر شوط، اي ان الأشواط السبعة عبارة عن أربعة أشواط من الصفا إلى المروة ذهاباً وثلاثة من المروة إلى الصفا أياباً، فالطواف السابع يبدأ من الصفا وينتهي عند المروة وبه يتم السعي.

والصفا جبل مرتفع من يدخل المسعى من البيت الحرام، يكون على يمينه، والمروة جبل منخفض يكون على يساره، وفي هذا الزمان يبدوان وكأنهما جزء من المسجد الحرام.

ولو أتى بالسعي بالعكس أي بدأ شوطه الأول بالمروة بطل سعيه سواء كان عن عمد او نسيان او جهل إلا أن يترك الشرط الأول، ولا يجب معرفة التفصيل فلو ادى السعي وفق الشرائط صح.

يجوز السعي في الطابق الأعلى الموجود في هذا الزمان مع الإزدحام والأولى السعي في الأرضي المتعارف والذي سعى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والأئمة عليهم السلام.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ الآية ١٥٩.

الإعراب واللغة

إن الذين: إن وإسمها، يكتمون: فعل مضارع مرفوع، الواو: فاعل، والجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الموصول.

ما: إسم موصول مفعول به.

أنزلنا: فعل وفاعل، والعائد محذوف والتقدير: أنزلناه، والجملة لا محل لها لأنها صلة الموصول.

من البينات: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف حال، الهدى: عطف على البينات.

من بعد: جار ومجرور متعلقان بيكتمون.

ما بيناه: ما مصدرية وهي مع ما في خبرها في تأويل مصدر في محل مضاف إليه وتقديره من بعد تبيانه.

للناس: جار ومجرور متعلقان ببيناه.

في الكتاب: جار ومجرور، متعلقان ببيناه.

أولئك: إسم إشارة مبتدأ، يلعنهم: فعل مضارع مع مفعول به.

الله: فاعل مرفوع، والجملة الفعلية خبر للمبتدأ.

وجملة الإشارة الإسمية (اولئك يلعنهم) في محل رفع خبر (إن) الحرف الذي إبتدأت به الآية الكريمة.

ويلعنهم: الواو: حرف عطف، ويلعنهم: فعل مضارع، والهاء: مفعول به، اللاعنون: فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.

وكتم الأمر: ستره واخفاؤه، والبيان: الوضوح والظهور، وبينات- بكسر الياء- أي يمتلكن الأهلية للظهور ذاتاً بترشح الحجة عنهن كما في الآية التي تخبر عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذكر في الفرق بين البيان والتبيان ان البيان جعل الشيء ظاهراً وواضحاً من غير حجة، والتبيان جعله ظاهراً وواضحاً مع الحجة أي ان بينهما عموماً وخصوصاً مطلقاً، والتفصيل ومادة الإفتراق هذه بينهما تحتاج إلى دليل أو قرينة معتبرة.

واللعن: الطرد من الرحمة والخير، واللعن من العباد يعني السب والذم، والدعاء بالانتقام يقال رجل لعين وملعون والجمع ملاعين.

وعن إبن عباس اللاعنون كل شيء في الأرض إلا الثقلين، ونسب ابن منظور إلى القيل: اللاعنون كل من آمن بالله من الإنس والجن والملائكة[1].

في سياق الآيات

بعد ان تفضل الله سبحانه ببيان الأحكام الشرعية في بعض مواطن العبادة جاءت هذه الآية لذم الذين يخفون أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكتمون البشارات والبراهين الدالة على نبوته ولعل في نظم الآيات إشارة إلى وجوب فريضة حج بيت الله الحرام في الكتب السماوية السابقة، وهناك نصوص تبين حج الأنبياء السابقين إبتداءً من آدم عليه السلام الذي علمه جبرئيل المناسك وهو آخذ بيده، وعن الباقر عليه السلام: حج موسى بن عمران ومعه سبعون نبياً من بني إسرائيل خطم إبلهم من ليف، يلبون وتجيبهم الجبال وعلى موسى عباءتان قطوانيان يقول: لبيك عبدك وابن عبدك، ومرّ يونس بن متى بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك كشاف الكرب العظام لبيك، ومرّ عيسى بن مريم بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك وإبن أمتك لبيك...".

---

(1) لسان العرب ١٣/ مادة لعن.

والروحاء كحمراء بلد على نحو أربعين ميلاً عن المدينة المنورة، وصفائح الروحاء جوانبها وهي ممر الأنبياء حين يقصدون البيت للحج.

وفي الحديث نكتة عقائدية وهي ان موسى عليه السلام عاصره العشرات من الأنبياء وقد ورد في القرآن ذكر هارون، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين وكانت فترة بينه وبين عيسى عليه السلام ومع هذا آمن به العرب والمسلمون.

الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (كما أرسلنا) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنعدم كتمان الآيات، إذ أن رسالته صلى الله عليه وآله وسلم بيان للآيات والأحكام، وهو من أسرار تفضيله على الأنبياء السابقين.

الثانية: آيات القرآن من البينات التي أنزلها الله، ولم يكتمها المسلمون بل يقومون بتلاوتها جهراً وإخفاتاً في الصلاة وغيرها، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [2].

الثالثة: تلاوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للآيات حرب على كتمانها وفضح للذين يخفونها ويقومون بتحريفها.

الرابعة: دعوة المسلمين للإعراض عن الذين يخفون ويكتمون الآيات لأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليهم آيات الله.

الخامسة: حث المسلمين على الشكر لله لتفضله بالآية العظمى في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتلاوة آيات القرآن على المسلمين.

السادسة: أخبرت الآية أعلاه عن تزكية النبي محمد صلى الله عليه وآله

(١)الآية ١٥١.

(٢)سورة آل عمران ١١٠.

وسلم للمسلمين، وهي واقية من أمور:
الأول: إخفاء الآيات.
الثاني: الإنصات للذين يكتمون الآيات.
الثالث: الإنفعال بالتحريف ومضامينه.
وهذا التوقي شاهد على إرتقاء المسلمين في المعارف.
السابعة: بعد بيان الآيات والهدى للناس في الكتاب قام فريق منهم بتحريف الكتاب وإخفاء الآيات، لتأتي رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واقية وسلاحاً لطرد آثار هذا الكتمان، وبرزخاً دون إفتتان الناس به.
الثامنة: جاءت الآية أعلاه بالإخبار عن تعليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الكتاب والحكمة، ويفيد الجمع بين الآيتين أن هذا التعليم له منافع عديدة منها:
الأول: الإحتراز من التحريف.
الثاني: إظهار الآيات والبينات.
الثالث: إستغناء المسلمين عما في أيدي الناس.
الرابع: ترغيب الناس جميعاً بالنهل مما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
الخامس: دعوة الناس للإعراض عن الذين يخفون الآيات ويكتمون التنزيل.
التاسعة: يدل الجمع بين الآيتين على حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفضل الله عز وجل في تهيئة الأسباب السماوية التي تجذب الناس للإيمان.
العاشرة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (ويعلمكم ما لاتعلمون)ومن مصاديق هذا العلم إخبار الآية محل البحث عن كتمان فريق من الناس للآيات والبينات، فقد تظن طائفة من المسلمين تنزه الناس وعدم تجرأهم على إخفاء

الآيات، فجاءت هذه الآية لتوكيد هذا الكتمان وأن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيان الآيات، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [1].

الحادي عشرة: لقد كتموا البينات وأسباب الهدى، فجاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالكتاب الجامع للأحكام والمبادئ، ليكون في بعثته إنقضاء الأيام الكتمان والإخفاء.

الثانية عشرة: يفيد الجمع بين الآيتين العصمة من تحريف القرآن وآياته، وأن الذين يهمون بالتحريف ويخفون الآيات مطرودون من رحمة الله، وتنفر منهم النفوس.

الثالثة عشرة: لقد أراد الله عز وجل للناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الإعراض عن أهل التحريف والضلالة، وجاءت آية (كما أرسلنا) جاءت خطاباً للمسلمين إلا أنها تبين أنهم أئمة الناس في الهداية والرشاد، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والظهور بأبهى معاني العبودية والطاعة لله عز وجل.

الثاني: الصلة بين آية (فاذكروني) [2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ذكر الله عز وجل برزخ دون الإنصات للتحريف والشك والريب.

الثانية: ذكر المسلمين لله واقية لهم من كتمان وإخفاء الآيات.

الثالثة: ذكر الله عز وجل إظهار للآيات.

الرابعة: إن مضامين الآية أعلاه من البينات والهدى التي أنزلها الله عز وجل للناس.

---

(١)سورة النحل ٨٩.

(٢)الآية ١٥٢.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه بالوعد الكريم للمسلمين بذكرهم لقوله تعالى(اذكروني أذكركم) وجاءت الآية محل البحث من مصاديق ذكر الله عز وجل للمسلمين وتحذيرهم من الذين يخفون الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة: جاءت الآية أعلاه بالبشارة بذكر الله للمسلمين، وبيان اللطف الإلهي بهم، وجاءت الآية محل البحث بذم الذين يخفون الآيات وطردهم من رحمة الله، ونفرة الناس منهم .

ويفيد الجمع بين الآيتين التخفيف عن المسلمين، وبشارة ميل الناس لهم، لتجلي آيات الصدق والحق في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة: جاءت الآية محل البحث فضحاً للذين يخفون الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولتكون من الموارد التي تستلزم الشكر لله عز وجل، ويكون من مصاديق قوله تعالى(وأشكروا لي) شكره على فضح الذين يخفون الآيات والأخبار بأن لعنة وغضب الله والناس عليهم.

الثامنة: يتوجه المسلمون بالشكر لله عز وجل على بيان الآيات في القرآن، وعدم ترتب الأثر على إخفاء فريق من الناس للآيات والبينات ، قال تعالى﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

التاسعة: تتضمن خاتمة الآية وما فيها من الزجر عن الكفر دعوة المسلمين إلى إظهار الآيات والمعجزات وعدم إخفائها.

الثالث: الصلة بين آية (إستعينوا بالصبر)[2]، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: جاء الخطاب في الآية بلفظ(يا أيها الذين آمنوا) وفيه ثناء على المسلمين، وشاهد بأنهم منزهون عن كتمان وإخفاء الآيات.

الثانية: دعوة المسلمين للصبر وتحمل الأذى الذي يأتي من إخفاء فريق من

---

(١)سورة النحل ٨٩.

(٢)الآية ١٥٣.

الناس البينات والبشارات التي تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: تحلي المسلمين بالصبر في مواجهة التحريف والكتمان لن يضر المسلمين في دينهم ودنياهم.

الرابعة: أداء الصلاة حرب على إخفاء الآيات.

الخامسة: أراد الذين أخفوا البشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تعطيل الصلاة فجاء أداء المسلمين لها وإستعانتهم بها فضحاً لهؤلاء ولعنة عليهم.

السادسة : أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى(إن الله مع الصابرين) وفيه ثناء على المسلمين لصبرهم وتفقههم في الدين، وإحترازهم من الذين يخفون الآيات.

السابعة: يستلزم بيان وإظهار الآيات والمعجزات الصبر ذاتاً وعرضاً، أي أن إظهار الآيات يحتاج إلى درجة من الصبر، وكذا الأثر الذي يترتب عليه.

الثامنة: دعوة المسلمين للصبر في تلقي العلوم والمعارف التي جاءت في القرآن والسنة، وهو من مصاديق قوله تعالى (إن الله مع الصابرين) وهذا الصبر واقية من التحريف وأهله، وسلامة من أسباب الشك والريب التي تتفرع عن كتمان وإخفاء البينات.

الرابع: الصلة بين آية (بل أحياء) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه خطاباً للمسلمين، وجاءت الآية محل البحث بصيغة الجملة الخبرية.

الثانية: تتعلق الآية أعلاه في مدح الشهداء والقتلى في سوح المعارك من المؤمنين، وجاءت هذه الآية في ذم الذين يخفون البينات والدلالات الواضحات التي تؤكد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١)الآية ١٥٤.

الثالثة : لم يستطع الذين يكتمون الآيات والمعجزات إخفاء حقيقة من عالم البرزخ يتجلى فيها إكرام الله عز وجل للمسلمين عامة، وللشهداء خاصة.

الرابعة: كما أخبر الله عز وجل عن حياة الذين يقتلون في سبيله فإنه سبحانه يظهر الآيات التي يخفيها الكفار، وإن كانت تتعلق بعالم الآخرة.

الخامسة: وعلى فرض أن حياة الشهداء في الآخرة والبينات التي يخفيها فريق من الناس، فإن الآية أعلاه جاءت رحمة بالمسلمين، ووسيلة سماوية لصلاحهم وسلامتهم من أدران الجزع واليأس وأسباب القنوط، وواقية من كتمان الآيات، والذين يخفونها عن عمد وإصرار.

الخامس: الصلة بين آية (ولنبلونكم) [(١)]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: من الآيات البينات الإخبار عن إبتلاء المسلمين بأسباب الأذى في جنب الله.

الثانية: الإخبار عن إبتلاء المسلمين بالخوف والجوع ونقص الأموال من البينات التي أنزلها الله، ولا تستطيع فرقة أو طائفة إخفاءها عنهم.

الثالثة: من البينات والهدى الذي أنزله الله البشرى للصابرين بالثواب العظيم في الآخرة، وجاءت الآية أعلاه لتوكيده وبيانه، وجعله أمراً ظاهراً ومعلوماً عند المسلمين جميعاً.

الرابعة: ما يصيب المسلمين من الإبتلاء ليس غضباً من الله، بل هو سبب للفوز برحمة الله.

الخامسة: يستطيع المسلمون بالصبر معرفة الآيات والمعجزات التي يكتمها ويخفيها الكفار، وأهل الضلالة والحسد.

السادسة: يفيد الجمع بين خاتمة الآية أعلاه والآية محل البحث وجوهاً:

الأولى: بشارة المسلمين على صبرهم على كتمان وإخفاء فريق من أهل

(١)الآية ١٥٥.

الكتاب الآيات والبشارات التي جاءت ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الآيات أن هذا الصبر واقية من إخفاء الحقائق وفضح له.

الثانية: دعوة المسلمين لعدم القتال بسبب كتمان حقائق التنزيل والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: إن الله عز وجل يبين الآيات والبينات بتفضله بنزولها نجوماً على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لينعدم أثر هذا الكتمان.

الرابعة: التخفيف عن المسلمين بنزول اللعنة بالذين يخفون الآيات ويحاولون صد الناس عن دخول الإسلام.

السادس: بين آية (المصيبة) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إن كتمان الآيات مصيبة عامة وإن صدرت من فرقة وطائفة خاصة.

الثانية: إخفاء البشارات الواردة بخصوص بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السماوية السابقة.

الثالثة: مواجهة إخفاء البينات بالصبر والإسترجاع، فإن قلت إنه خلاف عمومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فالجواب من وجوه:

الأول: هذه الآية الكريمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: تتضمن هذه الآية حث أهل الكتاب على إظهار البينات والبشارات التي تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: في الإسترجاع حث للناس على ذم الذين يخفون البينات.

الرابعة: إظهار المسلمين الصبر وإجهارهم بالإسترجاع يدل على حسن سمتهم، وثبات الإيمان في نفوسهم، وتقيدهم بأحكام الشريعة.

الخامسة: في الإسترجاع عند مصيبة كتمان البينات والبشارات تخويف

---

(١)الآية ١٥٦.

بأهوال اليوم الآخر وتذكير بالحساب.

السابع: الصلة بين آية (أولئك عليهم صلوات من ربهم) [١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: تجلي التباين والتضاد بين المسلمين والذين يخفون الآيات، إذ تنزل الصلوات والرحمة من الله عز وجل على المسلمين لصبرهم وإسترجاعهم وتفويضهم الأمور إلى الله، وتنزل اللعنة على الذين يخفون البينات، ويلحقهم الذل والخزي بطردهم من رحمة الله.

الثانية: ترغيب أهل الكتاب بإظهار البينات والإخبار عن البشارات التي ورثوها من الأنبياء وجاءت في الكتب السماوية السابقة لوصف المسلمين بالمهتدين، وإظهار البينات من مصاديق الهداية.

الثالثة: تدل مضامين الآية أعلاه على أن إخفاء البينات لن يضر المسلمين.

الرابعة: بقاء باب الهداية مفتوحاً للناس مما يدل على خيبة وخزي الذين يكتمون الآيات والبشارات، وهو من مصاديق لعنة الله والناس عليهم.

الخامسة: الترغيب بدخول الإسلام، وجعل النفوس تنفر من الذين يخفون البينات.

السادسة: أخبرت الآية محل البحث بأن الله أنزل الهدى وبينه للناس مما يدل على أن كتمان فريق من الناس لن يحجبه بدليل وجود أمة مهتدية وهم المسلمون.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية (إلا الذين تابوا) [٢]، وفيها مسائل:

الأولى: إن كتمان البينات وإخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه

---

(١)الآية ١٥٧.

(٢)الآية ١٦٠.

وآله وسلم ليس أمراً دائماً وملكة ثابتة، بل هو أمر متزلزل يمكن التوبة منه.

الثانية: ترغيب الناس بالتوبة وإظهار البينات والتصديق بالمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة: الذين تابوا حجة على الذين أصروا على إخفاء البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: جاءت هذه الآية بالإخبار عن بيان الآيات والهدى من عند الله في الكتاب، وجاءت الآية أعلاه بالإخبار عن بيان الذين تابوا للآيات، وفيه دعوة للناس للإصغاء للذين تابوا وإخبارهم عن البشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: يأتي صلاح الذين تابوا على كتمان الآيات والبينات.

السادسة: دعوة الناس إلى إجتناب اللعنة التي تأتي بسبب كتمان البينات، وحثهم على نيل رحمة الله عز وجل التي تنزل بالتوبة والإنابة وكشف الحقائق والإخبار عن المعجزات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (إن الذين كفروا) [1]، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآيتان في ذم الذين كفروا وإنذارهم وتحذيرهم.

الثانية: تكررت في الآية لعنة الله على الكفار.

الثالثة: موضوع هذه الآية أعلاه كتمان الآيات، وموضوع الآية محل البحث الكفر والموت عليه وعدم التوبة.

الرابعة: من إعجاز نظم الآيات مجيء آية التوبة السابقة بين آيتين يتضمنان ذم الذين كفروا ونزول اللعنة عليهم، وفيه حث على التوبة وترغيب بالإنابة، ومناسبة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة للناس للتوبة عن أبي موسى قال: سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا

---

(١)الآية ١٦١.

مَا حَفِظْنَا قَالَ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ والْمُقَفِّي وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ والْمَلْحَمَةِ[1].

الخامسة: جاءت هذه الآية بذكر لعنة اللاعنين للكفار، وجاءت الآية أعلاه بالتفضيل وأن المراد من اللاعنين هم الملائكة والناس أجمعين.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام.

السابعة: كما ينزل الملائكة بالوحي على الأنبياء، فأنهم يقومون بلعنة الكفار والدعاء عليهم.

الثامنة: لقد نزل الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، وجاءت الآية أعلاه لتخبر عن وظيفة أخرى للملائكة وهي لعن الذين كفروا.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (وخالدين فيها)[2]، وفيها مسائل:

الأولى: بيان سوء عاقبة الذين يخفون البينات ويكتمون البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: جاءت هذه الآية بالإخبار عن لعنة الله والناس للذين يخفون البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدلالات الواضحات على صدق نبوته، وجاءت الآية أعلاه بتفسير اللعنة والطرد من رحمة الله، وخلود الكفار بالنار.

الثالثة: التصديق بالبينات التي أخفتها طائفة من الناس.

الرابعة: الإجهار بالبينات، وتلاوة الآيات السماوية.

الخامسة: دعوة الناس للإعراض عن أهل الجدال والشك.

السادسة: حث الذين يخفون الآيات على التوبة والإنابة.

السابعة: التصديق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه جاء

---

(1) مسند أحمد ١٣٨/٤٠.

(2) الآية ١٦٢.

بالمعجزات العقلية والحسية التي تدل على صدق نبوته.

الثامنة: لعنة الذين يخفون الآيات،وعن قتادة في قوله تعالى(ويلعنهم اللاعنون) قال الملائكة والمؤمنون).

لقد أرادوا من إخفاء صفات خاتم النبيين صرف الناس عن التصديق بنبوته، وعزوفهم عن المعجزات التي جاء بها، ولكن اللعنة من الله والخلائق نزلت بهم فمن مصاديقها طردهم من رحمة الله، وفضحهم بين الناس، وصيرورة معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حديث المنتديات والبيوت والأسواق، إذ تحتمل اللعنة في الظرف الزماني لأثرها وجوهاً:

الأول: نزول اللعنة بالذين يخفون الآيات في الحياة الدنيا.

الثاني: المقصود طردهم من رحمة الله في الآخرة.

الثالث: تكون لعنة الله في الآخرة، أما لعنة الخلائق فهي في الدنيا.

الرابع: نزول اللعنة بالذين يخفون الآيات البينات في الدنيا والآخرة والصحيح هو الأخير وهو دليل على قبح فعلهم، وزيادة في عقوبتهم.

إعجاز الآية

في الآية إخبار عن وجود آيات وحجج في الكتب السماوية المنزلة وفضح الذين يكتمونها وذمهم والإخبار عن طردهم من أسباب الرحمة، ومنعهم من الإقتراب من أبوابها.

تتضمن الآية التحدي من وجوه:

الأول: الإخبار عن نزول البينات.

الثاني: إن الله عز وجل هو الذي أنزل البينات والمعجزات.

الثالث: إن أحكام الشرائع التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء السابقين من عند الله عز وجل.

الرابع: القرآن والكتب السماوية السابقة حجة على الناس جميعاً.

الخامس: الوعيد والتخويف للذين يخفون الآيات.

السادس: عدم ترتب الأثر على إخفاء فريق من الناس للبراهين والمعجزات.

السابع: نفرة الناس من الذين يخفون الآيات لإختتام الآية بقوله تعالى(ويلعنهم اللاعنون)وفيه بيان لسخط الناس على أولئك الذين يصرون على الجحود ويتعمدون إنكار ما ورد في التوراة والإنجيل من صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (الذين يكتمون) وقد ورد هذا اللفظ مرتين في القرآن وكلاهما في سورة البقرة[1].

الآية سلاح

تتضمن الآية الكريمة مواضيع إحتجاج على أهل الكتاب وفيها حث لهم على إظهار تلك البينات مع المدد والأمل المنقدح في نفوس المسلمين بلغة التخويف والوعيد للذين يخفون الآيات، وتخبر ضمناً عن عدم ترتب الاثر على هذا الكتمان بسبب ظهور الدين وعز المؤمنين ، قال تعالى﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2].

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء، ومن وجوه هذا الإبتلاء إخفاء فريق من الناس للآيات والبراهين ليمنعوا الناس عن دخول الإسلام، ويصدوهم عن وظائفهم الجهادية، فجاءت هذه الآية سلاحاً للمسلمين والناس جميعاً، أما المسلمون فالآية سلاح لهم من وجوه:

الأول: في الآية تنمية لملكة الوقاية والإعراض عن الذين كفروا، فصحيح

(١)أنظر الآية ١٧٤ سورة البقرة.

(٢)سورة التوبة٣٣.

أن الآية جاءت بخصوص الذين يخفون الآيات إلا أن منافعها أعم، وتشمل الإحتراز من الكفار.

الثاني: عدم الإفتتان بأسباب الشك والريب.

الثالث: الآية مادة وسلاح في الأمر بالمعروف، وهو في المقام متعدد من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[1]، من جهات:

الأولى: حث الناس على عدم الإصغاء إلى رؤساء الكفر والضلالة.

الثانية: فضح الذين يخفون الآيات.

الثالثة: دعوة الذين يصدون على بشارات الكتب السماوية السابقة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على إظهارها وكشفها.

الرابعة: بيان الآيات والبينات والبشارات، فمن اللطف الإلهي بالناس أن وجودها ومضامينها لم ينحصر بالكفار فقد جاء القرآن بها وبما يزيد على ما عند أهل الكتاب موضوعاً وحكماً.

الرابع: دعوة المسلمين للتدبر في الآيات والبينات، والتفقه في الدين.

الخامس: إستنباط مسألة فقهية وهي جواز لعن الذين يخفون الآيات والبينات التي تدل على وجوب عبادة الصانع وإتباع الأنبياء وإتيان الفرائض والعبادات.

وأما إتخاذ الناس هذه الآية سلاحاً فمن وجوه:

الأول: الإنصات إلى آيات القرآن وما فيها من الأخبار عن أحوال الأمم الأخرى.

الثاني: الإحتراز من الذين يخفون البينات.

الثالث: ذم الذين ينكرون النبوة والمعجزات.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

الرابع: معرفة حقيقة وهي غضب الله عز وجل على الذين كفروا والذين يخفون المعجزات والبشارات، ومن الفطرة النفرة من الذين تنزل عليهم اللعنة والمطرودين من رحمة الله.

الخامس: إزاحة الغشاوة التي يجعلها أهل الضلالة والكتمان لمنع الناس من التدبر في الآيات.

السادس: ميل الناس للإسلام، والتدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبغض أعدائه والظالمين الذين يخفون البينات.

لقد أنزل الله عز وجل الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين في معركة بدر وأحد وغيرها، قال تعالى﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (١)، وجاءت الآية محل البحث مدداً وعوناً للمسلمين في حال الحرب والسلم، والشدة والرخاء، فمن وجوه تفضيل المسلمين وأنهم﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢)، أن السلاح العقائدي مصاحب لهم، وهذا السلاح متعدد وتوليدي، فكل آية من القرآن سلاح وعون ومدد لهم.

أسباب النزول

فيها أقوال:

الأول: تتعلق الآية من أهل الكتاب كتموا الأخبار الواردة في التوراة والإنجيل عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل كعب بن الأشرف وكعب بن أسد وإبن صوريا، نسب هذا القول إلى إبن عباس وتبعه عدد من أهل العلم.

الثاني: نزلت في أهل الكتاب، عن إبن عباس ومجاهد والحسن وقتادة

---

(١)سورة الأنفال ٩.

(٢)سورة آل عمران ١١٠.

وغيرهم، وبين هذا القول والقول الأول عموم وخصوص مطلق، فالأول يتعلق بالعلماء منهم فقط، وهذا القول يشمل عامتهم ايضاً.

الثالث: إن جماعة من الأنصار سألوا نفراً من اليهود عما في التوراة من صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأحكام فكتموا، فنزلت الآية، والمعنى متقارب بين هذه الأقوال.

مفهوم الآية

تحث الآية في مفهومها على الإجهار بالحق وذكر الأخبار التي تتضمن علامات نبي آخر الزمان وإنطباقها على الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وما فيها من الوعيد موعظة وعبرة وتحذير من كتمان الآيات، وبذا تتجلى لنا منافع (مدرسة التوبيخ) في القرآن وما فيها من الغايات الحميدة وإصلاح النفوس ومنع الحسد والكيد وطغيان النفس الغضبية والشهوية خصوصاً مع وجود الحجة والبينة في ذات الآية بذكر البينات والآيات الباهرات في القرآن والكتب السماوية الأخرى.

والآية وان وردت بصيغة الجملة الخبرية إلا أنها تتضمن الإنشاء والدعوة إلى رؤية الآيات لذا تراها تأتي بلفظ الناس "بيناه للناس" أي على الناس أن يطلّعوا على الكتب السماوية بمعنى أنه ليس للإنسان أن يكتفي بقول أهل الجحود والخلاف والشقاق بل لابد له أن يقوم بنفسه بمعرفة الآيات ومدى صدقها ودلالتها على نزولها من عند الله عز وجل وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى في الثناء على نفسه في خلق الإنسان وما رزقه من نعمة العقل والعلم﴿خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1].

---

(1) سورة الرحمن ٣-٤.

وقوله تعالى ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ﴾ ولفظ (الناس) يدلان على أن كل إنسان بامكانه معرفة الآيات وفهمها وإدراك صدق نزولها من عند الله إلا أن الكتمان والتحريف يحولان دون ذلك بمعنى أنهما لا يحولان دون كشف الخصائص إذا ما قام الإنسان بنفسه بإستقصاء الحق والنظر في إعجاز القرآن والآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

لذا فمفهوم الآية يدل على أن كل إنسان يتحمل المسؤولية إذا كان مقصراً وقام بتصديق أهل التحريف أو إكتفى بقول الذين يقومون بكتمان الآيات كما سيأتي بيانه في الآية الواحدة والستين بعد المائة، نعم اللعنة الواردة في الآية تنحصر بالمحرفين للكتاب والكاتمين لآياته عن عمد.

والآية دعوة للتخلي عن أقطاب الكفر ورؤساء الضلالة من قريش وإسقاط لمنزلتهم عند أتباعهم، وتحث على الإبتعاد عنهم أي أنها من مصاديق اللعنة والخزي في الدنيا.

وقد ذكرنا في تفسير الآيات السابقة بأن الكتمان لن يضر إلا أصحابه وأن معجزات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة وبينة وأن الإسلام باق ويزداد قوة يوماً بعد يوم، قال تعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ولا يؤدي تكذيب بعضهم إلا إلى وحدة المسلمين وتعاهدهم للفرائض والواجبات، الأمر الذي يقود إلى إنحسار الكفر قهراً وانطباقاً ومن وجوهه وعلاماته اللعنة الواردة في الآية وأنها تنزل من السماء وتلتقي مع لعنة الملائكة وأهل الأرض لتكون سيوفاً تستأصل العناد والشرك والجحود، وصيغة المضارع (يلعنهم) تفيد الإستمرار والتجدد.

---

(١) سورة البقرة ١٤٦.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بيان وجه من وجوه العداء الذي يضمره الكفار للإسلام.

الثانية: التحذير من الذين كفروا وإخفائهم للآيات والبشارات.

الثالثة: قبح إخفاء وكتمان الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: توكيد وجود بشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند أهل الكتاب.

الخامسة: الآية دعوة للتدبر في آيات القرآن وما فيها من الأسرار والعلوم قال تعالى﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(1).

السادسة: وجود جماعة أو أمة تخفي حقائق التنزيل ومضامين الكتاب، ويدل عليه موضوع الآية ومجيؤها بصيغة الفعل المضارع والإستدامة (يكتمون).

السابعة: توكيد حاجة الناس جميعاً للقرآن لأن فريقاً منهم حجبوا آيات الكتب السابقة عنهم.

الثامنة: في الآية بشارة بقاء آيات القرآن ظاهرة جلية وقريبة من الناس، قال تعالى﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(2).

التاسعة: ترغيب الناس بالإنصات لآيات القرآن.

العاشرة: ذم الفاسقين الذين يخفون الآيات والبراهين الدالة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(1)سورة النحل ٨٩.

(2)سورة الحجر ٩.

الحادية عشرة: شمول الخطابات التكليفية للناس جميعاً ببيان الآيات والهدى.

الثانية عشرة: عموم الآية وإرادة الذين يخفون الآيات والبينات التي جاءت في الكتب السابقة وفي القرآن مع التباين في معاني الإخفاء فهي وإن جاءت بخصوص الذين يخفون البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في الكتب السابقة، إلا أنها تشمل محاولاتهم إنكار البينات والمعجزات التي جاء بها ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (١)، وتشمل الآية كفار قريش الذين يتلقون آيات القرآن ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالصدود والإعراض والتكذيب.

الثالثة عشرة: الإتحاد في الجهة التي يتوجه إليها اللعن مع تعدد جهة الصدور ونزولها من عند الله، ومن الخلائق، ويدل الإتحاد في المقام على عصمة المسلمين من اللعن والطرد من رحمة الله لأن اللعنة تأتي للكفار الذين يخفون الآيات والبراهين.

الآية لطف

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رأفة ورحمة للناس جميعاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢)، ومن مصاديق الرحمة في نبوته أمور:

الأول: تقدم البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل زمانه.

الثاني: مجيء البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهتين مباركتين:

---

(١)سورة التوبة ٣٢.

(٢)سورة الأنبياء ١٠٧.

الأولى: على لسان الأنبياء السابقين.

الثانية: آيات ومضامين الكتب السماوية السابقة وما فيها من البينات والدلالات الواضحات، قال تعالى في خطاب لبني إسرائيل وحجة عليهم ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾[1]، وطرق البشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إعجاز ومن مصاديق الرحمة لعدم دخول الظن والشك إليها، لأنها وحي وتنزيل من السماء، فليس للمنجمين وأرباك الفلك والعّرافين موضوعية فيها.

الثالث: إنتظار وتطلع المسلمين من الأمم السابقة لبعثته والصبر على الأذى من الكفار رجاء إشراقة نبوته ومحو أسباب الظلم والجور عنهم.

ومع تعدد صيغ البشارة وصبغتها السماوية فليس للذين يتصدون لمسؤوليات الرياسة بين الناس أن يقوموا بإخفاء هذه الحقائق التي هي رحمة لهم وللناس جميعاً وهم بإخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام شريعة الإسلام يجلبون الضرر لأنفسهم ولأتباعهم وحتى للمؤمنين لما يلقونه منهم من الأذى والكيد ولكن النصر وعاقبة الأمور تكون للمؤمنين، لأن البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا بد وأن تبلغ غاياتها التي أرادها الله عز وجل، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

لقد أختتمت الآية باللعنة والوعيد بالطرد من رحمة الله للذين يخفون الحق وبشارات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهل هو من اللطف أم ضده، الجواب هو الأول من وجوه:

---

(١)سورة البقرة ٤١.

(٢)سورة الصف ٨.

الأول: الآية إنذار ووعيد وتخويف.

الثاني: فيها دعوة للناس لإجتناب تحريف الحقائق وإخفاء البشارات.

الثالث: بيان حقيقة وهي أن إخفاء آيات الله، والبشارات بالنبي محمد محمد صلى الله عليه وآله وسلم معصية وسبب لنزول العقاب.

الرابع: شفاء صدور المسلمين لما يلقاه الكفار الذين يسعون في إضلال الناس من العذاب.

الخامس: إزدياد المسلمين إيماناً لما يحل في ساحة الذين يكتمون الآيات من البلاء.

السادس: جاءت الآية بصيغة المضارع (يكتمون) (يلعنهم) وفيه دعوة للذين يخفون الآيات للتوبة والإنابة والإنتفاع الأمثل من بركات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما فيها من أسباب النجاة والسلامة للناس في النشأتين، قال تعالى﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1].

إفاضات الآية

لقد تفضل الله عز وجل وأنزل آيات ودلالات معجزات لتكون رحمة وسبيل هداية للناس جميعاً، ولا تقدر الخلائق على رد رحمة الله، ولا تستطيع حجبها ومنع وصولها إلى الناس ، قال تعالى﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[2]، فاخبرت الآية الكريمة عن كتم وإخفاء الآيات من فريق من الناس، ولا ينحصر تنزيل الآيات والبشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وطرق وصولها إلى الناس بهؤلاء القوم بدليل نزول هذه الآية وتبليغها

(١)سورة طه ٨٢.

(٢)سورة يونس١٠٧.

للمسلمين وبواسطتهم للناس من غير أن يستطيع هؤلاء كتمانها وإخفائها، لبيان حقيقة وهي أن إخفاء الحقائق لا يضر إلا أهل الإخفاء ، قال تعالى﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾(١).

وتتضمن الآية بيان الخزي الذي يلحق الذي يخفون الآيات، وتأكيد إنحصار ظلمهم بأنفسهم بأن كتمانهم للآيات لم يأت إلا بعد أن بينّها الله عز وجل للناس، لتكون الآية توثيقاً لمسائل:

الأولى:قبح فعل الذين يخفون الآيات.

الثانية:بيان عدم ترتب الأثر العام على سوء فعلهم بالإخفاء.

الثالثة:تأكيد حقيقة وهي أن الآيات والبينات لم تنزل إلا على الأنبياء وهم يتصفون بأمور:

الأول: القيام بتبليغ الآيات والتنزيل من غير زيادة أو نقيصة أو تحريف.

الثاني:السعي الدؤوب لوصول الآيات لأكثر عدد من الناس.

الثالث: الجهاد لمنع إخفاء الآيات.

الرابع: صيرورة أنصار وأتباع يحفظون ميراث النبوة.

الخامس: لقد قام الأنبياء السابقون بالبشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة: بيان حاجة الناس لأسباب حفظ البينات والهدى، فتفضل الله عز وجل وأنزل القرآن وجعل المسلمين يتعاهدونه ويبقى قريباً من الإنسان بآياته وإعجازه، قال تعالى﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢)، لتبقى آية حجة للمسلمين، وشاهداً على فضل الله عز وجل على الناس بنزول القرآن ودعوة للناس للإعراض عن الذين يخفون المعجزات ليبقوا في منازل الرياسة

(١)سورة هود ١٠١.

(٢)سورة الحجر٩.

وما فيها من الشأن والجاه والنفع الشخصي العام، وعن سعيد بن المسيب عن الإمام علي عليه السلام في حديث عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم(قال: جميع سور القرآن مائة و أربع عشرة سورة و جميع آيات القرآن ستة آلاف آية و مائتا آية و ست و ثلاثون آية و جميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف واحد و عشرون ألف حرف و مائتان و خمسون حرفا لا يرغب في تعلم القرآن إلا السعداء و لا يتعهد قراءته إلا أولياء الرحمن[1].

والبينات: يعني الرجم والحدود والأحكام والحلال والحرام. وَالْهُدَى يعني وأمر محمّد صلى الله عليه وسلم ونعته[2].

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالحرف المشبه بالفعل(إن) الذي يستلزم إسماً وخبراً، ولكن خبره لم يأت بعد أسمها مباشرة بل تأخر بعد تقديم بيان ووصف متعدد الوجوه للذين جاءت الآية بذمهم، وفيه إشارة إلى قبح فعلهم وسوء عاقبتهم وما ينتظرهم من العذاب الأليم، من وجوه:

الأول: قيامهم باخفاء المعجزات والآيات.

الثاني: تحريف البشارات التي جاءت بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: ستر العلوم والآيات التي تضمنتها الكتب السماوية السابقة ومنها صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمر القبلة وتحويلها إلى البيت الحرام، وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار[3].

---

(١)مجمع البيان١٠/٤٠٦.

(٢)الكشف والبيان للثعلبي١/٢٨٥.

(٣)سنن إبن ماجه١/٩٧.

الرابع: إخفاء التنزيل والآيات التي تهدي الناس إلى سبل النجاة في النشأتين.

وجاء الهدى معطوفاً في الآية على(البينات) (وقيل البينات و الهدى هي الأدلة و هما بمعنى واحد و إنما كرر لاختلاف لفظيهما)[1]. ويرد عليه بوجوه من منطوق الآية:

الأول:يدل العطف على المغايرة وتعدد المعنى.

الثاني:هناك تباين بين المعطوف والمعطوف عليه، إذ عطف المفرد المذكر على جمع المؤنث السالم.

الثالث: مجئ ضمير المفرد في قوله تعالى﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ وان كان يحتمل وجوهاً إلا أنه لايدل على إتحاد البينات والهدى.

الرابع: التعدد والمغايرة سبب في زيادة إثم الذين يخفون الآيات وتوبيخ لهم، وتحذير للناس منهم.

فلم يكتفوا باخفاء البينات، بل سعوا في منع الناس من الهداية إلى سبل المعرفة، والتدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد كانت قريش تسأل بعض رجالات اليهود عن صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم باعتبارهم أهل كتاب، وعندهم أخبار النبوة، ، وحاربت قريش النبي وجهزت عليه الجيوش عصبية وجحوداً فكانت الهزيمة مصاحبة لهم قال تعالى بخصوص معركة أحد ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾[2] .

ولم تمر الأيام حتى تم فتح مكة ودخلت قريش في الإسلام، وإنقادوا لأحكام القرآن وآمن الناس بالبينات ولم يحصد الذين يخفونها إلا الخزي

(١)مجمع البيان١/٢٤١.

(٢)سورة آل عمران١٢٧.

وإستدامة نزول اللعنة، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[1]، فليس من لعنة بعده ولكنه الإنقطاع إلى الله بالتسبيح والتهليل وإقام الصلاة واتيان الزكاة والفرائض الأخرى.

الخامس: البينات صفة الآيات التي تكون بينة وظاهرة، أما الهدى فانه إسم فاعل للهداية إلى سبل الرشاد، نعم تكون البينات هدى للناس وعلى نحو المتعدد بالأفراد والمصاديق وفيه أمور:

الأول: إقامة الحجة على الذين يخفون البينات.

الثاني: حاجة الناس لنزول القرآن وسلامته من التحريف .

الثالث: بيان إستحقاق المسلمين لمنزلة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]، لعدم إخفائهم البينات.

ومن مصاديق خروج المسلمين للناس بلحاظ آية البحث أمور:

الأول: فضح المسلمين للذين يخفون المعجزات والبينات.

الثاني: بيان قبح إخفاء حقائق التنزيل.

الثالث : تأكيد نزول البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السماوية السابقة.

الرابع : إظهار البينات والآيات التي يخفيها بعضهم، وصيرورة هذا الإخفاء عديم الضرر إلا على اصحابه، قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

الخامس : توثيق اللف والطر من رحمة الله للذين يخفون الآيات.

---

(١)سورة النصر١-٣.

(٢)سورة آل عمران١١٠.

(٣) سورة النحل١١٨.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: الآية من الدلائل على صدق نزول القرآن من عند الله، لما فيها من التحدي والبيان والتحذير للذين يخفون صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي ذكرتها السابقة.

الثانية: مجيء الآية بصيغة الجمع في الذين يخفون الآيات في دلالة على تعددهم وكثرتهم، وتحتمل هذه الكثرة وجوهاً:

الأول: إرادة التعدد في أفراد الزمان الطولية.

الثاني: كثرتهم في أيام النبوة، وأوان بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: الكثرة والتعدد في كل زمان.

والصحيح هو الثالث، فصحيح أن الآية جاءت بخصوص بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنكار فريق من أهل الكتاب لصفاته ولكن المدار على عموم اللفظ وليس سبب النزول، بالإضافة إلى الشواهد الواقعية في كل زمان، ومقابلة بعضهم نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإنكار والتكذيب، فلذا جاء الوعيد لهم بصيغة الفعل المضارع لإستدامة لعنتهم، وإذ يموت بعضهم فهل تنقطع عنه اللعنة .

الجواب لا، لأنها طرد من رحمة الله، ويكون الإنسان محتاجاً إلى رحمته تعالى بعد الموت أكثر ما هو قبل الموت، لأن الآخرة دار حساب بلا عمل فليس من فرصة للتوبة، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[1] .

---

(١)سورة النساء ٤٢.

الثالثة: تفقه المسلمين في الدين، ومعرفة أحوال الأمم.

الرابعة: زيادة إيمان المسلمين، وطرد أسباب الشك والريب التي يأتي بها أهل الخصومة والجدال.

الخامسة: التخلية بين الناس والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لذا كان من دلائل نبوته مجيء القبائل إلى المدينة المنورة وإرسالها الوفود من أهل الفراسة لمعرفة حقيقة التنزيل فلا يرجعون إلا وقد دخلوا الإسلام، وتعلموا الصلاة وآدابها، إذ كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يؤخرهم للإقامة في المدينة عدة أيام حتى يتعلموا أحكام الصلاة ويؤموا قومهم إذا رجعوا إليهم.

وهو من الشواهد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا يخاف من طيلة إقامتهم رؤيتهم لما يبعث الشك في نفوسهم، بل تراهم مع طول الإقامة يزدادون إيماناً وتصديقاً.

التفسير

قوله تعالى [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ]

الحمد لله الذي جعل الشريعة السماوية متحدة السنخية والموضوع لا تقبل التجزئة منذ نزول أبينا آدم عليه السلام إلى الأرض، وإلى بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويقع الإختلاف في تفاصيل وكيفية الحكم من غير تغيير في الأصل والمفهوم فالصيام مثلاً واحد في الشرائع كما يدل عليه قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾[1] وكمال الشرائع وتمامها بالإسلام ونزول القرآن، فلابد ان تأتي البشارة في الكتب السابقة داعية الى القرآن وموطئة له ولنبوة صاحب الكمالات الإنسانية الرسول

---

(1) سورة البقرة ١٨٣.

الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكأنها امانة يتعاهدها الإنبياء وهي جزء من وظائف نبوتهم والتي ملاكها الإصلاح والرشاد لأهل الأرض جميعاً الموجود منهم والمعدوم، ثم ورث كتبهم من بعدهم علماؤهم ولكنهم في الجملة أبوا الا اخفاء تلك البشارات تقصيراً وظلماً وليس قصوراً فالجاهل في الإصطلاح على قسمين:

الأول: جاهل قاصر وهو المعذور في عدم العلم بالحكم وفي ارتكاب المخالفة.

الثاني: الجاهل المقصر وهو الذي بامكانه العلم ولكنه لم يسأل ولم يتفحص لرفع الجهل وهو ايضاً ينقسم الى قسمين:

الأول : ملتفت بان يحتمل انه يفعل ما يخالف الحكم.

الثاني : غير ملتفت وهو الذي لا يظن انه يخالف الحكم الشرعي وانه مقصر في عدم الفحص والسؤال بسبب غفلة او سهو او خلل في المقدمات وهو اقرب الى مراتب الجاهل المقصر الى القاصر، ويختلف عنه بتقصيره في السؤال مع امكانه.

واخفاء البشارات والآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ليس من القصور او التقصير بل هو من التفريط والظلم للنفس وللغير فان الكشف والإقرار بتلك الآيات لو تم لوفر الكثير من الأموال ومنع من لحوق حصول عدد غير قليل من المعارك وزهوق الارواح، ولحال دون دخول الكثيرين من اتباعهم البلاء اولئك الذين صدقوا باقوالهم، وفاتهم دخول الإسلام وامتنعوا عن التدبر في اعجاز القرآن وآياته، نعم قد يكون اخفاء بعضهم لتلك الحقائق والبشارات عن جهل او قصور وكل له حكمه فلله الحجة البالغة، وظاهر الآية يتعلق بمن يعرفها ويتعمد اخفاءها وكتمانها كتباً كانت او اخباراً او آية او بشارة او دعوة للإسلام واتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبيان صفاته.

ومن إعجاز الآية ان الله عز وجل تفضل على الناس جميعاً ببقاء الآيات والبشارات الى حين البعثة النبوية لتكون حجة للمؤمنين وحجة على الكافرين ففيها نوع تخفيف وان لم تكن على نحو الموجبة الكلية والصلة التامة لنشر الرسالة وسيادة الإسلام، وتدل الآية بالدلالة التضمنية على وجود آيات باهرات وحقائق بيد اهل الكتاب تثبت نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتخبر عن صدقه، مما يعني في مفهومه حتمية انتصار الاسلام.

ويحتمل الموضوع الذين يكتمه هؤلاء وجوهاً:

الأول: البينات التي جاء بها الأنبياء السابقون.

الثاني: البشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم التي وردت في الكتب السماوية السابقة.

الثالث: دعوة الأنبياء للتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونصرته.

الرابع: المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتي تدل على صدق نبوته.

الخامس: كتمان الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن، وإثارة أسباب الشك والريب في آيات ومعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتؤكد الآية حصول الكتمان بعد أمور:

الأول: نزول البينات والبراهين.

الثاني: نزول الكتاب والهداية ومجيء القرآن بأحكام الحلال والحرام.

الثالث: بيان صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة والإنجيل، وبلوغ الناس هذا البيان وتوارثهم لأخبار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والبشارة بها.

قوله تعالى ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾

الأولى : أي من الحجج والبراهين.

الثانية : ظاهر الآية الإطلاق أي الآيات التي تتعلق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات احكام الحلال والحرام وأصول الشرائع.

الثالثة : لو لم يخفوا آيات الأحكام لكان العمل والإلتزام بها طريقاً لدخول الإسلام وواقعاً مناسباً للإنصات والإصغاء لآيات القرآن والحجج والبراهين التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : لم ينحصر موضوع الآية والذم باخفاء الحجج بل يشمل اخفاءهم لأسباب الهداية واحكام النبوة ونواميسها وما في الشرائع من النسخ.

الخامسة : تأكيد وقوع النسخ في الشرائع.

السادسة : مجيء الهدى معطوفاً بحرف العطف (الواو) يفيد المغايرة والتعدد، والظاهر انه معطوف على البينات في التنزيل وليس موضوعاً مستقلاً بذاته يتعلق بالكتمان معطوفاً على (ما) بدليل قوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾، والهاء ضمير يعود للعنوان الجامع بينهما، والهدى يترشح من البينات والكتب المنزلة والفرائض كما في قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾[1]، ولفظ (الهدى) في هذه الآية والآية محل البحث توكيد يشمل نبوته صلى الله عليه وآله وسلم لأنها هدى للناس جميعاً.

السابعة : ان وظيفة الآيات المنزلة هداية الناس الى الإسلام وارشادهم الى دروب الرشاد والإيمان والإخلاص في التوحيد.

---

(1) سورة الأنعام ٩١.

الثامنة : يصدق وصف الكتب السماوية بالهدى بالإتيان بالصفة وارادة الموصوف وبلحاظ الوظيفة وترتب الأثر على نزول الكتب بهداية الناس.

بحث بلاغي في الوجوه والنظائر

يراد من الوجوه في الإصطلاح اللفظ المتحد الذي يستعمل لمعان عديدة على نحو يفيد اشتراكه فيه سواء بالوضع او بالحقيقة والمجاز، اما النظائر فتتعلق بالألفاظ المتواطئة التي تفيد معنى واحداً، وفي علم البلاغة ادخلت الأمثال بالنظائر.

واعتبر هذا العلم من اعجاز القرآن اذ ان الكلمة الواحدة قد تنصرف الى عشرين وجهاً او اكثر، وهو امر ممتنع في كلام غير الخالق تعالى، مع الإقرار بالمقصود والعجز عن بلوغ المنتهى في معرفة وجوه اللفظ القرآني لأن هذا اللفظ خزينة لا تنفد.

ونضيف الى ابواب هذا العلم حصر اللفظ في معنى واحد بحسب موضعه بل ان المعنى متعدد في كل موضع كما يتضح في مقامات كثيرة من هذا التفسير، وتعدد المعنى يكون تارة بحسب اللغة او بحسب تفسير القرآن بالقرآن او بحسب ظاهر القرآن، وجلاء معنى الآية او بحسب النصوص ومما يؤكد هذا التعدد انك لا تجد تعارضاً بينها، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة.

أي ان اللفظ القرآني يحمل على عدة معان مناسبة له ولا يقف العالم عند معنى واحد لأن هذا الوقوف تعطيل لكثير من علوم القرآن وغشاوة وتغطية لشطر من اسراره وعظيم منافعه.

ولكن بعض علماء البلاغة اسسوا قاعدة وهي اختصاص اللفظ بمعنى واحد في كل موضع مغاير لذات اللفظ في مواضع اخرى.

ففي (الهدى) في هذه الآية قالوا انه بمعنى محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وكذا في قوله تعالى ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ﴾[١] وان الهدى بمعنى الدين في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾[٢] وبمعنى الإيمان في ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾[٣]، وبمعنى الرشاد في قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[٤] وهكذا عدوا للهدى سبعة عشر وجهاً، وعندي ان هذه الوجوه كلها او شطر منها قد تجتمع في فرد واحد من لفظ الهدى أي في موضع واحد، وهذا التقييد والتفصيل لم يثبت والقاعدة التي وضعوها قاصرة عن ارادة المعنى، نعم بالإمكان ذكر الوجوه المتعددة للفظ كما في الهدى ثم دراسة امكان تطبيقها واحداً واحداً على اللفظ كلما ورد في موضع من مواضع القرآن بحسب الدليل خصوصاً وان قرينة الإنزال وعطف الهدى على ما انزل من البينات يفيد تعلق الهدى بالآيات المنزلة ومنها التي نزلت على موسى عليه السلام والأنبياء مبشرة بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم ومنها الآيات القرآنية التي تثبت صدق الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في نبوته وتبليغه عن الله عز وجل.

قوله تعالى ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ فيه مسائل:

الأولى : من إعجاز الآية ان الكتمان جاء بعد البيان للناس مما يعني في مفهومه عدم الضرر والأذى بهذا الكتمان.

الثانية : لفظ الناس يفيد الإطلاق الشمولي وعدم الإنحصار بملة دون اخرى.

الثالثة : التحريف والكتمان خطأ وزلل وفعل يدرك الناس قبحه وبذا

---

(١) سورة محمد ٢٥.

(٢) سورة آل عمران ٧٣.

(٣) سورة مريم ٧٦.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

يفقد أثره ولا يضر الا اهله.

الرابعة : الناس جميعاً اصبحوا شهوداً على التنزيل وصدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، فالذي يجحد لمؤونة زائدة واصرار يكون فعله هذا مخالفاً للأصل.

الخامسة : تبين الآية التوطئة السماوية لنبوة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم والتصدي المتقدم لكتمان الآيات باظهارها في الكتاب وللناس مطلقاً من غير حصر.

السادسة : لابد ان يتم البيان بالوحي للأنبياء وتبليغهم للناس.

السابعة : البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبزوغ فجر الإسلام لا تنحصر باهل الكتاب لأن لفظ الناس اعم منهم.

الثامنة : ان الاتباع من اهل الكتاب يعلمون هذه البشارات فاذا ما اصروا او استكبروا فانهم يؤاخذون بذنوبهم ايضاً لأن جحودهم بالأصالة وليس بالتبعية.

التاسعة : ان فضحهم وقيام الحجة عليهم يأتي من غير المسلمين ايضاً في عون إلهي للمسلمين وتخفيف عنهم.

العاشرة : تفضل الله تعالى بجعل حجة عند المسلمين وتزويدهم بالسلاح في مواجهة تكذيب اهل الكتاب وجحودهم بالآيات.

الحادية عشرة : اقامة الحجة للتدارك والإقرار بالإخفاء والكتمان وفعلاً حصلت بعض الشواهد واعلن بعض علمائهم اسلامه واقام الحجة على قومه في كتمان الآيات.

الثانية عشرة : في الآية واقية وموعظة ودعوة للناس جميعاً بعدم الالتفات الى الافتراء، وتدل الآية بالدلالة التضمنية على التدبر في الآيات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة عشرة : ترى ما المراد من الكتاب هل هو القرآن ام الأعم، الأقوى

هو الأعم وهو يشمل التوراة والإنجيل وفيه نكتة أي انهم لا يستطيعون كتمان الآيات على نحو السالبة الكلية.

الرابعة عشرة : الملازمة وروح التشابه والمماثلة بين التنزيل وبين ما عندهم من الحجج والآيات والبراهين تلك التي اصروا على كتمانها جحوداً، نعم بيان الآيات في القرآن ظاهر وحاضر والتحريف عنه منتف.

قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : اولئك ضمير للبعيد دلالة على بعدهم عن رحمة الله عز وجل وهو الذي تؤكده الآية صراحة لقبيح فعلهم وسوء ما اقترفوه.

الثانية : صيغة الجمع والشمول في اللعن تدل على عظيم الجرم الذي ارتكبوه فيلعنهم كل احد بدليل قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] فالملائكة والناس كلاعنين يدخلون في منطوق الآية الذي يعتبر في ظاهره اعم من الملائكة والناس.

الثالثة : الآية دعوة لتوجيه اللعنة الى الكفار الذين يعرفون الآيات ويكتمونها.

الرابعة : كل من يحسن اللعن لأعداء الدين فانه يقدم على لعن هؤلاء.

الخامسة : موضوع اللعن يدل على غضب الباري عليهم وان العذاب الأليم ينتظرهم.

السادسة : ان كتمان الآيات من اشد وجوه الظلم لما فيه من الأضرار بالناس والخلائق عامة.

السابعة : هوام الأرض تتعرض للإبتلاء بسبب جحود الإنسان والسعي الخبيث في كتمان الآيات وإرتكاب الفواحش، لذا ورد عن مجاهد وعكرمة:

---

(١) سورة البقرة ١٦١.

ان اللاعنين هم دواب الارض وهوامها، وانها تقول: "منعنا القَطْر بمعاصي بني آدم"، والقَطْر: المَطَر وجمعه قِطار، وواحدة القَطْر: قَطرة، ومع هذا فمضمون الآية اكثر شمولاً، وافراد اللاعنين الاكثر اهمية ذوو العقول وارباب المعرفة.

الثامنة : القول بان اللعنة من كل شيء سوى الثقلين الجن والإنس والمنسوب الى ابن عباس، بعيد نسبة ودلالة، فلا مانع من اعتبار الإنس والجن من اهم افراد اللاعنين.

التاسعة : واللعنة في الآية تتوجه عن قصد الى الذين يكتمون آيات الله بسبب كفرهم وجحودهم، وقد تأتيهم عرضاً او تصل اليهم مع وجود المستحق لها وهذه المسألة اضافية زائدة بلحاظ حمل الآية على اللعن مطلقاً، فكما ان على قابيل وزراً في باب سفك الدماء لأنه هو الذي سنّ القتل وأول من قام بالقتل، فهل اللعنة مطلقاً تشمل الذين يكتمون الآيات وان لم يكونوا مقصودين باللعن، فبسبب الكتمان يشيع او يظهر اللعن بين الناس الجواب لا دليل عليه، قال تعالى﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

العاشرة : ان الذين يكتمون الحق وصفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم اهل للعنة او انهم سبب في وجود وجوه الخصومة والنزاع والتلاعن بين الناس لأنهم حالوا دون التربية الأخلاقية السليمة لعموم الناس.

الحادية عشرة : روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجم يوم القيامة بلجام من نار"[2]، وبغض النظر عن الإرسال وما فيه سنداً، فانه صحيح دلالة ومشهور لأن العلم امانة ويحتاج اليه الناس وقد ورد الحديث بطرق صحيح ومن غير ضعف أو إرسال[3]،

---

(١) سورة فاطر ١٨.

(٢) مجمع البيان ١/ ٤٠٦.

(٣) أنظر الأمالي للطوسي ٤٢٨/١/المستدرك للحاكم ٣٢٨/١.

وهذا الحديث لابد ان يكون مقيداً بالإمكان واحكام التقية واجتناب الضرر الذي لا يحتمل.

الثانية عشرة : الآية اخص من موضوع الحديث اعلاه وتتعلق بمصاديق ما يخفيه بعضهم عن الناس وهو الآيات والحجج المتعلقة بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة عشرة :اللعنة في الآية اعم من العقوبة والعذاب لأن اللعنة لا تتعلق بالآخرة وحدها بل تشمل الدنيا.

الرابعة عشرة : الظاهر ان الآية لا تنحصر بموضوع اخفاء صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة في الكتب السابقة فهي اعم فتشمل كل اخفاء لحقيقة عقائدية واحكام شرعية لأن مؤداها التسليم بالنبوة.

الخامسة عشرة : الآية توبيخ وانذار وذم، ومن أهم وجوه الاخفاء والكتمان المذموم محاولات اخفاء اعجاز القرآن والآيات التي جرت على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السادسة عشرة : قد يرى احدهم كيف تتكلم الحصى بيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم او يرى آية انشقاق القمر فيكتمه، او يرى المنافع التي رافقت الإسلام وتولدت عن نفاذ احكامه وسننه ولكنه يخفي هذه النعم ولا يقر بها، خصوصاً وان لفظ الهدى الوارد في الآية اعم من التنزيل وينطبق ايضاً على ما يتفرع عنه.

وعن الإمام الباقر عليه السلام ان رجلاً اتى سلمان الفارسي فقال: حدثني فسكت عنه، ثم عاد فسكت، فادبر الرجل وهو يقول ويتلو هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ فقال له اقبل، انا لو وجدنا اميناً لحدثناه، ولكن اعد لمنكر ونكير اذا اتياك في القبر فسألاك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان شككت او التويت ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منها رماداً، فقال

له: ثم مه، قال: تعود ثم تعذب، قلت: وما منكر ونكير؟ قال: هما قعيدا القبر قلت: ملكان يعذبان الناس في قبورهم؟ قال: نعم.

فتقديم سلمان (رضي الله عنه) للعذر في عدم الإجابة يدل بالدلالة التضمنية على حمله للآية على المعنى الأعم، وانها جارية الى يوم القيامة ولا تنحصر باهل الكتاب الذين يخفون صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، اما المسلم الذي لا تتهيأ له العلة التامة واسباب الموعظة والإخبار وكشف الحقائق فانه معذور اذا تلبس بتلك الحال ما دام غير مقصر، ومجرد الإنتماء للإسلام عقيدة وديانة اعلان وقرار ودعوة صامتة للآخرين فيخرج المؤمنون منها بالتخصيص لإختيارهم الإسلام وانتمائهم اليه وبذلك يثبتون الآيات ويتصدون لمن يكتمها.

وجاءت هذه الآية بلزوم بيان علوم التنزيل ودلائل التوحيد ووجوب عبادة الله وذم المشركين ، وفيها وجوه:

الأول: إرادة يخفون البينات ولا يبدونها إبتداء.

الثاني: الذين يُسئلون عن المعجزات والبشارات فيخفونها.

الثالث: الذين يحرفون البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وصفاته الواردة في الكتب السابقة، قال تعالى﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١)، وجاءت الآية بذكر نزول لعنة الله على الذين يخفون البينات مع عطف لعنة اللاعنين عليها، وتلك آية في بديع القرآن وبيان الغضب الإلهي والحجة التي تقام عليهم، فمع أن لعنة العذاب تأتي بالعذاب في الدنيا والآخرة فإن لعنة اللاعنين متعددة وتوليدية ومتجددة مع الأجيال، وتحتمل لعنة اللاعنين في متعلقها وجوهاً:

---

(١)سورة البقرة ٨٩.

الأول: تتوجه لعنة كل جيل إلى أهل زمانهم من الذين يخفون الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: تصيب لعنة اللاعنين الذين أخفوا البينات أيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدوا الناس عن الإسلام، وقريشا الذين زحفوا على المدينة المنورة بجيوش عظيمة لا قبل لأهل يثرب بها.

الثالث: إرادة التفصيل فلعنة الملائكة تتغشى الذين يخفون البينات في كل زمان، أما الإنس والجن فتخص لعنة كل جيل منهم الطبقات التي تصاحبهم من الذين يخفون البينات المراد هو المعنى الأعم فتتغشى لعنة الملائكة والإنس والجن الذين يخفي البينات من الأجيال المتعاقبة بعرض واحد، فلعنة المتأخر من الناس تشمل الذين يخفي البينات من الأجيال السابقة، ولعنة المتقدم تشمل المتأخر من الذين يخفونها ويكتمونها.

والصحيح هو الثالث وهو من أسرار العطف بالواو في الآية، إلى جانب ما يتضمنه من التخويف والإنذار والوعيد كوسيلة وسبب للكشف عن البينات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن الأسرار وصيغة الإطلاق في قوله تعالى﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)، وقدرته على كل شيء أنه سبحانه يبين البينات والبشارات ذاتها التي كتمها وأخفاها الذين صارت إليهم أمانة ووديعة من الأنبياء السابقين وأصحابهم وأتباعهم.

فجاءت هذه الآية فضحاً لخيانة هذه الأمانة، وإظهاراً لها، ودعوة للناس لتلقي مضامينها من القرآن والسنة النبوية، وهذا التلقي من أسباب ومصاديق لعنة الناس على الذين يكتمون الآيات، فهذه اللعنة ليست أمراً بسيطاً جامداً، بل هي متعددة المصاديق والمقاصد، فإعراض الناس عن الذين يخفون البينات والبشارات النبوية لعنة على الذين خفون البينات، ودخول الناس الإسلام

(١)سورة آل عمران ١٨٩.

أفواجاً لعنة عليهم.

وهل في الآية وعيد للمسلم الذي يخفي البينات وتخويف من نزول اللعنة عليهم، الجواب لا، من وجوه:

الأول: التباين الموضوعي إذ أن الآية جاءت إنذاراً لأولئك الذين يخفون أدلة النبوة والمعجزات والبشارات الواردة في الكتب السماوية السابقة بخصوص نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: المسلمون لا يكتمون ما أنزل الله، بل يقومون بإظهاره وإعلانه، ومن مصاديق هذا الإظهار تلاوة آيات القرآن، وأداء الفرائض.

الثالث: لقد جعل الله عز وجل المسلمين واسطة لنقل وتبليغ هذه اللعنة، وفيه شاهد على عدم إصغائهم للذين يكتمون الآيات ونفرتهم منهم.

وتبين الآية حقيقة لا يستطيع الكفار سترها وإخفاءها وهي أن الضرر الذي يأتيهم من كتمان البينات أكثر كثيراً من النفع الذي ينالون من إخفائها، ومن أسرار نزول القرآن والحاجة إليه إنعدام ومحو النفع الذي يأتي للكفار من إخفاء البينات البشارات، كما أن أفراد اللعنة التي تتضمنها هذه الآية سبب لنزول الأذى والعذاب بالكفار في الدنيا والآخرة.

وهو من عمومات ومصاديق عداوة الله للكفار، قال تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[1]، فمن عداوته لهم حجب النفع والفائدة من كتمان البينات، وقد يظنون أنهم بكتمانهم البينات يصدون الناس عن الإسلام والتصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءت هذه الآية وخاتمتها ببطلان هذا الظن، وإنتفاء الأثر لسعيهم وإمساكهم عن إظهار الآيات والبشارات.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

(١)سورة البقرة ٩٨.

قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ الآية ١٦٠

الإعراب واللغة

إلا: أداة أستثناء، الذين: مستثنى من المفعول به الضمير (هم) في يلعنهم، تابوا: فعل ماض، والواو فاعل.

وأصلحوا: الواو: حرف عطف، وأصلحوا وبينوا: عطف على تابوا.

فأولئك: الفاء رابطة لأنها واقعة في شبه شرط وهي هنا حرف لا عمل له، أولئك: إسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ.

أتوب: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا وجملة أتوب خبر إسم الإشارة.

عليهم: جار ومجرور متعلقان بأتوب.

وانا التواب: الواو حرف عطف، أنا التواب: مبتدأ وخبر.

الرحيم: خبر ثان.

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآية السابقة علامات من يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله عز وجل جاءت هذه الآية لتستثني الذي ندم وتاب وأظهر تلك البينات والدلالات الباهرات الدالة على صدق الدعوة الإسلامية ونزول القرآن.

الأول: الصلة بين آية (أستعينوا بالصبر) [1]، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

---

(١)الآية ١٥٣.

الأولى: من إستعانة المسلمين بالصبر دعوتهم الناس للإسلام، والجدال بالحكمة والموعظة الحسنة.

الثانية: الصبر والصلاة واقية من الإنصات لأهل الشك والريب.

الثالثة: أداء الصلاة والإستعانة بها إظهار للآيات والبينات.

الرابعة: في الإستعانة بالصبر والصلاة توبيخ وفضح للذين يخفون البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشاهد على دخول الناس أفواجاً في الإسلام وتوجه الخطاب التكليفي لهم بالصبر والصلاة وبصيغة العموم الإستغراقي، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

الخامسة: إختتام الآية أعلاه بقوله تعالى (أن الله مع الصابرين) شاهد على ظهور الإسلام، وعدم ترتب الأثر على كتمان الكفار للبينات.

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين لزوم تحلي التائبين بالصبر وأدائهم الصلاة.

السابعة: التوبة من مصاديق الصبر، وكذا الصبر فإنه من صفات التائبين.

الثامنة: يستلزم الإصلاح الصبر وتحمل الأذى في مرضاة الله.

التاسعة: من يقوم بالبيان يلاقي العناء والأذى وعليه الصبر.

العاشرة: أداء الصيام والصلاة من عمومات قوله تعالى(وبينوا).

الحادية عشرة: التائبون من إخفاء الآيات، والذين يقومون بإظهارها، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من الصابرين الذين يمدهم الله بأسباب التوفيق، ويقربهم إلى منازل التقوى.

الثانية عشرة: قد يستوحش الذين يتوبون بسبب إنقطاع صلتهم مع إخوانهم الذين كانوا على ملتهم، فجاءت الآية أعلاه لهدايتهم للصبر والصيام والصلاة لطرد الوحشة، والوقاية من أسباب النفرة التي يظهرها

هؤلاء أزاءهم.

الثالثة عشرة: الآية أعلاه ترغيب بالتوبة والإنابة.

الثاني: الصلة بين آية (بل أحياء) [١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الذين يقتلون في سبيل الله ممن يتوب الله عز وجل عليهم.

الثانية: دعوة الذين يتوبون من إخفاء الآيات إلى الجهاد في سبيل الله.

الثالثة: من الآيات التي بينها الذين تابوا الحياة الأبدية والسعادة الدائمة للذين يقتلون في سبيل الله.

الرابعة: من البينات التي أظهرها القرآن الإخبار عن حياة الشهداء الذين يقاتلون تحت لواء الإسلام.

الثالث: الصلة بين آية (ولنبلونكم) [٢]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: توبة الذين يكتمون الآيات تخفيف للبلاء الذين يتعرض له المسلمون.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة التوابين للإستعداد للبلاء والصبر رجاء مرضاة الله.

الثالثة: إبتلاء المسلمين بالخوف والجوع وغيرهما مناسبة للفوز بالتوبة والرحمة من عند الله عز وجل.

الرابعة: جاءت الآية أعلاه بلغة التبعيض (من الخوف والجوع) وهذا التبعيض من الكلي المشكك في عدد أفراده وزمانه ومواضيعه سواء في مقدار الخوف أو حالة الجوع، وفي بتوبة والإصلاح والبيان تقليل لعددها، وآثارها، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [٣].

---

(١)الآية ١٥٤.

(٢)الآية ١٥٥.

(٣)سورة المائدة ٢.

الخامسة: أختتمت الآية أعلاه بقوله تعالى (وبشر الصابرين) والتوبة والإصلاح من مصاديق الصبر، ومن الإعجاز في الآية أنها أختتمت بمضامين البشارة لأن التوبة والعفو من الله مرتبة عظيمة ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [1].

السادسة: جاءت خاتمة آية (ولنبلونكم) بالبشارة للصابرين، ومن مصاديق البشارة التوبة والفوز برحمة الله عز وجل والتي تدل عليها خاتمة الآية محل البحث.

الرابع: الصلة بين آية (المصيبة) [2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: التوبة سلامة ونجاة من المصيبة.

الثانية: الصلاح وبيان البينات واقية من المصيبة الشخصية والنوعية، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [3].

الثالثة: كتمان البينات، وإخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مصيبة، وجاءت هذه الآية لمنع إستمرارها، فصحيح أن آية الإسترجاع تذكر المصيبة على نحو الحلول الطارئ على المسلمين بقوله تعالى(إذا أصابتهم مصيبة) إلا أن هذا لا يمنع من وجود مصيبة مستمرة ومستديمة عند بعض الطوائف مثل كتمان البينات، وما يترشح عنه من ضيق الصدور والكآبة وأنواع البلاء، وفي التوبة منه سلامة وخلاص من حال المصيبة، ومقدمة لتوظيف سلاح الإسترجاع عند حلول المصيبة.

الرابعة: التوبة واقية من المصيبة المستديمة.

الخامسة: من رحمة الله بالتائبين هدايتهم إلى الإسترجاع عند المصيبة.

السادسة: الإقرار بالمعاد والرجوع إلى الله عز وجل علة تامة للتوبة

---

(١)سورة فصلت ٣٥.

(٢)الآية ١٥٦.

(٣)سورة النساء ٦٢.

والإنابة.

السابعة: البشارة بالفوز بالتوبة والعفو من الله والذي جاءت به هذه الآية تبعث السكينة في نفوس التائبين، والإجتهاد في الإصلاح والبيان والإخبار عن البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتي ذكرتها الكتب السماوية السابقة.

الخامس: الصلة بين آية (صلوات من ربهم) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: مجيء كل من الآيتين بمصاديق من الفضل الإلهي وما يدل على عظيم قدرة الله وأن مقاليد الأمور بيده سبحانه، وأنه الرؤوف الرحيم.

الثانية: ذكر الآيتين لرحمة الله عز وجل، وفيه ترغيب بالتوبة وإتيان الفرائض.

الثالثة: تشمل مضامين الآية أعلاه الذين تابوا وأصلحوا لصيرورتهم من المسلمين الذين يستحضرون الإسترجاع عند المصيبة.

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين تفقه التوابين في أحكام الشريعة، ومعرفة منافع الهدى والإيمان.

الخامسة: كل من التوبة والصلاح والبيان رحمة من عند الله، وهداية إلى سبل الرشاد والعمل الصالح، والفوز بالثواب العظيم في الآخرة.

السادسة: بين خاتمة الآية أعلاه ومضامين هذه الآية عموم وخصوص مطلق، فالذين تابوا وأصلحوا وبينوا من المهتدين وعموم المسلمين الصابرين.

السابعة: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة الذين يخفون البينات إلى إظهارها.

السادس: الصلة بين آية (الصفا والمروة) [2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

---

(١)الآية ١٥٧.

(٢)الآية ١٥٨.

الأولى: الآية أعلاه خطاب تكليفي للذين تابوا، وبعث لهم لأداء المناسك وتعظيم شعائر الله.

الثانية: ترغيب التوابين لحج البيت الحرام.

الثالثة: دعوة الذين يخفون البينات إلى إظهار الآيات والأخبار التي تدل على وجوب حج بيت الله الحرام، ومن الإعجاز في فريضة الحج مجيؤها بصيغة العموم الإستغراقي الشامل للناس جميعاً، قال تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1]، وتؤكد الآيات أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بنيا البيت ونادى إبراهيم بالحج ودعا الناس للطواف بالبيت وليس من نبي إلا وحج البيت فمن البينات التي يجب الإخبار عنها أخبار الأنبياء في حج بيت الله الحرام، ولا يتقوم الحج إلا بدخول الإسلام ويدل عليه الجمع بين الآية أعلاه وقوله تعالى﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[2]،بالإضافة إلى النصوص والإجماع.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى (وأنا التواب الرحيم)وجاءت الآية أعلاه بمصاديق متجددة ومتحدة الموضوع الرحمة الله وتوبته على العباد بأن جعل فريضة الحج مناسبة لغفران الذنوب ونزول الفضل الإلهي، ولما كان الحج في زمان مخصوص من السنة تفضل الله عز وجل بالعمرة وزيارة البيت في سنة ومناسبة للعفو والصلاح تستوعب أيام السنة كلها، وفيه حجة على الناس، ودعوة لهم للتوبة والإنابة.

الخامسة: أختتمت كل من الآيتين بإسمين من أسماء الله عز وجل فجاءت الآية أعلاه بقوله تعالى(فإن الله شاكر عليم) وهذه الآية بقوله تعالى(وأنا التواب الرحيم) وتعدد أسماء الله في المقام بشارة توالي الفضل

---

(١)سورة آل عمران ٩٧.

(٢)سورة التوبة ٢٨.

الإلهي على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويظهرون الآيات.

السادسة: ويحتمل السعي بين الصفا والمروة بلحاظ أفراد هذه الآية وجوهاً:

الأول: إنه من التوبة.

الثاني: السعي بين الصفا والمروة من الصلاح ونشر معاني الإيمان.

الثالث: إنه من البيان لما فيه من تعظيم شعائر الله.

الرابع: ليس من صلة بين الآية محل البحث وآية (الصفا والمروة) وبإستثناء الوجه الرابع فإن الوجوه الثلاثة الأولى كلها صحيحة، ومن الشواهد على الإعجاز في نظم آيات القرآن، الثواب للتائبين وشموله المؤمنين عامة.

السابع: الصلة بين آية (أن الذين يكتمون)[1]، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إبتدأت هذه الآية بحرف الإستثناء (إلا) لبيان حصول التوبة والندم من إخفاء البينات.

الثانية: بعث الأمل في نفوس المسلمين بتعدد أفراد التائبين من إخفاء البينات.

الثالثة: كل فرد يتوب ويظهر الحقائق النبوية ويصلح أموره المتعلقة بالدين والدنيا دعوة لأهل الكتاب وغيرهم لدخول الإسلام وبيان الآيات والبينات، قال تعالى﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[2].

الرابعة: هذه الآية ترغيب بالتوبة والإنابة والصلاح، وبعث للنفرة في النفوس من إخفاء البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: تجلي التباين والتضاد في الجزاء الذي تتضمنه خاتمتا الآيتين، إذ جاءت الآية السابقة باللعنة المطلقة للذين يخفون البينات، وجاءت خاتمة هذه

(١)الآية ١٥٩.

(٢) سورة طه ٨٢.

الآية بالتوبة والرحمة للتوابين الذين يظهرون البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويقومون بإتباعه ونصرته، وفيه دعوة للتوبة.

السادسة: بيان قانون ثابت في الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل يظهر البينات التي أنزلها، وأن الناس عاجزين عن إخفائها وسترها، ولكن الدنيا دار إمتحان وبلاء والذي يكتمها يظلم نفسه والذي يتوب إلى الله يفوز بعفو ورحمة الله.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية (أن الذين كفروا وماتوا)[1]، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التباين والتضاد بين أهل هذه الآية والآية التالية، وعاقبة كل منهما.

الثانية: دعوة الناس للتوبة، وتحذيرهم من الموت على الكفر والضلالة.

الثالثة: توكيد ما ينتظر الكفار من العذاب الأليم، والإشارة إلى إستمرار اللعنة والأذى على الكافر في الآخرة.

الرابعة: الإخبار عن حجب رحمة الله في الآخرة عن الذين يموتون على الكفر.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين الترغيب بالتوبة والإصلاح، والنفرة من الكفر والكافرين.

السادسة: لما كان الإنسان عرضة للموت في أي لحظة، فإن الآية تدعو الكفار للتوبة والإنابة واللحوق بالذين يظهرون البينات.

السابعة: ذكرت هذه الآية توبة وعفو الله عز وجل على التائبين، ونزول رحمته عليهم، وجاءت الآية أعلاه بما يدل على غلق باب العفو عن الكفار.

الثامنة: يفيد الجمع بين الآيتين الحث على أداء الوظائف الشرعية،

---

(١)الآية ١٦١.

والتخويف من الكفر والجحود، لما في الإصلاح من الحسن الذاتي، وما في الكفر من القبح وأسباب الذم.

التاسعة: يجعل الله عز وجل وداً للتوابين، أما الكفار فأن النفوس تنفر منهم، وهذه النفرة من مصاديق اللعنة التي ذكرتها الآية أعلاه.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (خالدين فيها) [١]، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين جذب الناس للإيمان وإظهار الحقائق والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإصغاء إليها وتناقلها فمن الناس من لم يكتم البينات ولكنه عندما ينصت إلى هذه الآيات يتعظ ويعتبر ويحرص على إظهارها عند سماعها والإطلاع عليها، وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [٢].

الثانية: الحث على التوبة والإنابة والشوق إليها وما يترتب عليها من المنافع في النشأتين، وما فيها من الإبتعاد والتنزه عن الكفر والجحود.

الثالثة: بيان التباين والتناقض بين عاقبة التوبة والصلاح وبين الإصرار على الكفر.

الرابعة: إلتفات المكلفين إلى لزوم الإستعداد للموت، ومغادرة الدنيا بالتوبة والإنابة والصلاح، فمتى ما أدرك الإنسان أن الموت قريب منه وأن مغادرة الدنيا على الكفر تؤدي إلى الخلود في النار فإنه ينفر من الكفر والجحود ويبحث عن أسباب النجاة من حرها ولهيبها والذي ينحصر بالتوبة وإتيان الصالحات.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (وإلهكم إله واحد) [٣]، وفيها مسائل:

الأولى: التوبة لجوء إلى الله عز وجل، ورجاء للفوز برحمته.

---

(١)الآية ١٦٢.

(٢)سورة المدثر ٣١.

(٣)الآية ١٦٣.

الثانية: توكيد كل من الآيتين لرحمة الله، وحث الناس على الفوز بها بالتوبة والعمل الصالح وبيان الحقائق والبشارات السماوية.

الثالثة: إختتام كل من الآيتين بإسمين من أسماء الله، يتضمنان معاني الرحمة والتوبة، فأختتمت هذه الآية بقوله تعالى(وأنا التواب الرحيم) والآية أعلاه بقوله تعالى(الرحمن الرحيم).

الرابعة: في الآية أعلاه توكيد لمضامين الآية محل البحث، ودليل على أن مقاليد الأمور كلها بيد الله عز وجل.

إعجاز الآية

تركت الآية باب التوبة مفتوحاً ورّغبت بالإستدراك وبيان صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيها إخبار عن سعة رحمة الله تعالى كما تدل في مفهومها على توبة بعضهم وإظهار ما جاء في كتبهم من البشارات، وفيها دلالات وأمارات الكشف عن بعض الآيات المخفية.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإختبار، ويتغشى اللطف الإلهي مصاديق الإبتلاء فيها، فمن الآيات في الإرادة التكوينية أن اللطف الإلهي يصاحب مصاديق الإبتلاء ويتقدم عليها ويتأخر عنها وجاءت هذه الآيات لطفاً من عند الله لنبذ كتمان الآيات، ودعوة الناس للإعراض الذين يخفون تلك الآيات، والسعي لمعرفة البينات، والتدبر في الآيات، ومن اللطف الإلهي نزول آيات القرآن متتابعة متتالية ومنها ما يتعلق بالحوادث والوقائع والتي تسمى(أسباب النزول).

وجاءت هذه الآية لطفاً وخيراً محضاً ودعوة للذين يخفون المعجزات بالتوبة والإنابة، ومن إعجاز الآية إستقراء مسأله كلامية منها وهي أن التوبة متعددة الصيغ والمواضيع، وأنها لا تنحصر بالإستغفار والإنابة، بل تشمل البيان وإظهار الحقائق، فقد تصدق التوبة على الكف عن المعصية وإرتكاب الذنب، وجاءت هذه الآية بذكر مصداق للتوبة يتجلى بإعلان الحقائق فلا

يصح الإمتناع والإقلاع عن كتمان الحقائق إلا بإعلانها والإخبار عنها، لذا جاءت الآية بثلاثة أمور متلازمة ومتداخلة وهي:

الأول: التوبة.

الثاني: الإصلاح.

الثالث: البيان.

وهذا التعدد والتلازم آية إعجازية في ذات الآية وتوكيد لأهمية موضوع التوبة في باب كتمان الآيات والمعجزات، ومن إعجاز الآية وإنعدام الفترة بين توبة العبد من كتمان الآيات وقبولها من عند الله، وفيه ترغيب بالتوبة وحث عليها، وزجر عن البقاء على العناد والإصرار على إخفاء البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن مصاديق الإستثناء في المقام سلامة وأمن التائبين من اللعنة والطرد من رحمة الله.

والتوبة في المقام أعم من أن تنحصر بالذات والنية والقصد بل تشمل عالم الأقوال والأفعال وتجلي مصاديق التوبة على الجوانح والأركان، ومصاحبتها للعبد كملكة مستقرة غير متزلزلة، وتكون مرآة للهداية ودعوة للناس للتوبة والصلاح، ولم تأت الآية بلفظ(وصلحوا) وإراد الصلاح الذاتي بل جاءت بصيغة الفاعل وأنه يجب على التائبين الصلاح والإصلاح وهداية الناس، ليكون التائب إماماً في الخيرات وداعية إلى الله عز وجل.

ويمكن أن نسمي هذه الآية آية (إلا الذين تابوا).

الآية سلاح

في الآية مسائل:

الأولى : تدعو الآية أهل الكتاب إلى التوبة وإجتناب الإصرار على كتمان الآيات.

الثانية : تحث الآية المسلمين على دعوتهم إلى الهدى والصلاح وإظهار

الحقائق.

الثالثة : عدم اليأس من توبتهم ولو على نحو الموجبة الجزئية.

الرابعة : فيها إكرام للذين أسلموا منهم وتنبيه للمسلمين بعدم مؤاخذتهم على ذنوب الذين استمروا على كتمان الحق من أبناء ملتهم أو ذويهم وأقاربهم فقد يسلم الإبن ويبقى الأب على الكفر أو العكس، وقد وردت الآيات النصوص في حسن العشرة معهم قال تعالى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[1].

الخامسة : الآية بشارة للذين أسلموا بمغفرة ذنوبهم لإرتقائهم بالقول والعمل إلى منازل عدم كتمان الآيات أي أن الآية تساعد في إخلاصهم وصدقهم والتخفيف عنهم ورفع عناء وزر الأيام السالفة.

السادسة : في الآية دعوة للتوبة النصوح، وتوقع توبة بعضهم وندمه.

السابعة : جاءت هذه الآية حرباً على إخفاء الحقائق وأسرار التنزيل.

الثامنة : الآية وسيلة سماوية مباركة للترغيب بالتوبة والإنابة.

التاسعة : الآية برزخ دون البقاء في منازل العنت والصدود عن المعجزات.

لقد أراد الله عز وجل أن تكون التوبة قريبة من العباد، ليس بينهم وبينها حاجز وتبعث الآية في النفوس الميل إلى الصلاح والتقوى والنفرة من ضدها ومن الضد الخاص لها كتمان وإخفاء الآيات.

لقد أراد الله عز وجل أن تكون هذه الآية عوناً للناس للتوبة والإنابة، من وجوه:

الأول: ترغيب من يخفي الآيات بإظهارها وإعلانها.

الثاني: زجر الناس عن الرجوع إلى الذين يخفون الآيات، ودعوتهم للتوجه إلى أهل التوبة والإنابة والصلاح، والإتعاظ والأخذ منهم.

---

(١) سورة لقمان ١٥.

الثالث: إقامة الحجة على الذين يبقون في منازل إخفاء وكتمان المعجزات.

الرابع: تفقه المسلمين في الدين، ومعرفة عظيم منزلة التوابين، وإكرام الذين يظهرون الآيات ويكفون عن إخفائها.

الخامس: نشر معاني الصلاح في المجتمات وبين الناس، لتكون سبباً في قبول المعجزات والإصغاء إلى الآيات، وإخلاص التوبة من الذنوب والمعاصي وعن بكر بن عبد الله المزني: أن قصابا ولع بجارية فأرسها أهلها إلى حاجة لهم في قرية أخرى فتبعها فراودها عن نفسها فقالت : لا تفعل لأنا أشد جبا لك منك لي ولكني أخاف الله قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائبا فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله قال : ما لك قال : العطش قال : تعال ندعو حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية قال : ما لي من عمل فادعو قال : فأنا أدعو فأمن أنت قال : فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية فأخذ القصاب إلى مكانه ومالت السحابة فمالت عليه ورجع الرسول فقال له : زعمت أن ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت أمنت فأظلتنا السحابة ثم تبعتك لتخبرني ما أمرك ؟ فأخبره فقال الرسول : التائب إلى الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه[1].

مفهوم الآية

من مفاهيم الآية أنها تأديب للمسلمين وعدم مؤاخذة من أسلم من أهل الكتاب وإن كان من رؤساء ملته لأن الإسلام يجّب ما قبله والتوبة ماحية للذنوب وفيها مسائل :

الأولى : إنها إقرار عملي مبارك بالذنب.

الثانية : إنها إعتراف بالتقصير ورجوع وتنزه عنه.

---

(1) شعب الإيمان ٥/٤٢١.

الثالثة : إنها شهادة على صدق نزول القرآن من عند الله تعالى.

الرابعة : من معاني التوبة الإحتجاج على كتمان الآيات والذين أصروا على كتمانها.

الخامسة : إنها دعوة للإسلام ونبذ للكفر والجحود.

السادسة : التوبة لجوء إلى الله وإعلان لعدم الإصرار على الذنوب، قال تعالى ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾[1] [2].

السابعة : الثواب العظيم الذي ينتظر التائبين .

فالآية تولي عناية خاصة بمن أسلم من أهل الكتاب وتدعو إلى إكرامهم وهي بشارة لهم بحسن العاقبة، وهذه المضامين رسالة سماوية لكل فرد من أهل الكتاب وفي كل زمان تناجيه بكرة وعشياً وترجو منه التدارك والنجاة باللحاق بأهل الحق والتسليم بما تحمله الكتب السماوية من صفات الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم والبشارات ومجئ قوله تعالى ﴿أَتُوبُ﴾ بصيغة المضارع إخبار عن إستمرار فتح باب التوبة والدعوة إلى الإسلام ويتضمن في مفهومه بقاء كتمان الآيات وعدم إنحصاره بأيام التنزيل وفعلاً فانك ترى شواهد الجحود والصدود وإثارة الشبهات على الإسلام مستمرة إلى زماننا هذا، فهؤلاء ومن يتبعهم ويستمع لهم تتوجه لهم هذه الآية بالحث على التوبة ونبذ العناد والإستكبار وإخفاء الآيات.

وخاتمة الآية وعد كريم وحث إضافي، وتوكيد سماوي على لزوم التدارك والإنابة وكشف الحقائق والإخبار عن مواثيق الأنبياء.

في الآية مسائل:

---

(١) سورة آل عمران ١٣٥.

(٢) أنظر الأجزاء ٩٢-٩٤ التي جاءت في تفسير هذه الآية .

الأولى: بيان حاجة الناس إلى رحمة الله، وعدم إمكان الإستغناء عنها، وهي في المقام مركبة إذ تتجلى في الآية معاني الترغيب بالتوبة والصلاح، ونبذ الكفر والجحود.

الثانية: الذي يتوب إلى الله من إخفاء الحقائق يكون سبباً للصلاح وهداية الناس.

الثالثة: الترغيب السماوي بجهاد النفس، وعدم اللهث وراء الدنيا وزينتها والجاه والشأن بين الكفار الذي يأتي من إخفاء الحقائق وآيات التنزيل.

الرابعة: حث أهل الكتاب على إظهار البشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: توكيد نزول اللعنة بالذين يخفون الآيات بمجيء هذه الآية بإستثناء الذين تابوا منها.

السادسة: الثناء على الله عز وجل وأنه الغفور الرحيم.

السابعة: صحيح أن التوبة في الآيات جاءت بخصوص الذين ينتقلون من منازل كتمان المعجزات إلا أنها تتضمن الحث على التوبة والإنابة والصلاح من كل الذنوب والمعاصي لأن خاتمة الآية بالوعد الكريم بإطلاق قبول التوبة، وذكر إسمين من أسماء الله عز وجل هما التواب الرحيم.

الآية لطف

الآية ضياء مبارك ومصباح هداية ينفذ نوره إلى شغاف القلوب، ويبعث النفوس إلى التوبة والإنابة، والسلامة من كلام اللعنة والطرد من رحمة الله، فليس بين السلامة والهلاك إلا التوبة وإختيار الصلاح، ومن اللطف الإلهي في الآية أمور:

الأول: بقاء باب التوبة مفتوحاً.

الثاني: تتابع الآيات التي تحث على كشف الحقائق وإعلان البشارات

بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: توالي المعجزات التي تؤكد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتفضح الذين يخفون الآيات.

الرابع: إدراك الكفار لعدم ترتب الأثر على كتمان البينات وأسباب الهدى، وأن هذا الكتمان لا يضر إلا أهله وفي الآية إرشاد لكيفية التنزه من إخفاء الحقائق والبينات على البيان والتفصيل، وبعث على الصلاح فلا يقف الأمر عند التوبة بل لابد من إعلان البينات وإصلاح الذ ات، ودعوة الآخرين لإعلان البينات، وعدم البقاء في منازل الكتمان وإخفاء البشارات، والكذب على الله عز وجل، فحينما يتوب واحد من الذين يخفون الحقائق فأنهم يذمونه ويفترون عليه، فجاءت الآية بلزوم الإصلاح والإنابة، فضح الذين يخفون البينات وجدالهم وهو من عمومات قوله تعالى﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، ووردت في كيفية إسلام عدد من أقطاب اليهود قصص تتضمن قيامهم بالبيان وإلقاء الحجة .

إفاضات الآية

لقد خلق الله عز وجل الناس لعبادته والقيام بأداء الفرائض، والمناسك التي تدل على إنقيادهم لأوامره، فبعث المنعيين مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتب السماوية لجذب الناس للإيمان، وتفضل وجعل تلك الكتب وثائق سماوية تهدي إلى الإيمان بالأنبياء مطلقاً ومن الآيات مجيء الكتب السابقة لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالبشارة بنبوته ولزوم تصديقه وإتباعه ونصرته، ولكن فريقاً من الناس يخفون تلك البشارات بنبوته ولزوم تصديقه وإتباعه ونصرته، ولكن فريقاً من الناس يخفون تلك البشارات فجاءت الآية

(١)سورة النحل ١٢٥.

السابقة لفضحهم وتخويفهم وإنذارهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وجاءت هذه الآية بالإستثناء الذي يتعلق بعالم الأفعال والتوبة من إخفاء الحقائق والبشارات، ليكون هذا الإستثناء فيضاً ورحمة إلهية على الناس جميعاً فلذا جاءت خاتمة الآية بقوله تعالى(وأنا التواب الرحيم)، وتمنع الآية من الكلدورات الظلمانية التي يسببها إخفاء الحقائق والبشارات، ومن لم ينتفع من مضامين هذه الآية وما فيها من الترغيب بالتوبة فإن المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تلح عليها بالتوبة وتجعله يلوم نفسه على إقامته على إخفاء البشارات بنبوته، بالإضافة إلى يبعثه إجتماع هذه الآية والآية السابقة من الندم والحسرة والفزع في نفسه وهذه الآية باب مفتوح للتوبة، وبرزخ دون العذاب، وسبيل نجاة من اللعنة وأسبابها، وترغيب بالأخوة الإيمانية والسلامة من الصبحة القائمة على الكتب والإصرار على العناد، وإخفاء البشارات، وفيها دعوة لدخول الإسلام والفوز بنعمة صحية المسلمين وما فيها من معاني الود والإيثار والتمسك بأحكام الشريعة.

الصلة بين أول وآخر الآية

بدأت الآية بأداة الإستثناء(إلا) وتلك آية إعجازية في نظم القرآن وأسرار الصلة والتداخل بين آياته، فمع إتحاد الموضوع بين المستثنى والمستثنى منه لم يأتيا بآية واحدة، بل جاء المستثنى منه في آية، والمستثنى في آية أخرى، مما بين أمراً قرآنياً هو أخص من قواعد اللغة والنحو، وفيه مسائل:

الأولى: بيان لموضوعية موضوع الآية القرآنية، وليس الأصل هو قواعد اللغة والنحو.

الثانية: جاءت آية المستثنى منه باللعنة والطرد من رحمة الله عز وجل، أما هذه الآية فجاءت بمعاني الرحمة والعفو والتوبة.

الثالثة: التباين بين متعلق الآيتين، فتخص الآية السابقة الذين يخفون المعجزات والبشارات بالنبوة، أما هذه الآية فيتعلق موضوعها بالمؤمنين الذين

نجّوا من كتمان الآيات ومافيه من الفزع والخوف، وأصبحوا من الذين ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [(١)].

الرابعة: هذه الآية أعم في موضوعها من السلامة والإستثناء من إخفاء وكتمان حقائق التنزيل إذ تشمل الصلاح والهداية وفعل الخيرات، فقد يتوب الإنسان من إخفاء الحقائق، ويقوم بإعلانها أو لايشارك في تحريفها، ولكنه يبقى مختلفاً في منازل الجحود والصدود، ويأبى فعل الصالحات والإمتثال لأمر الله في الفرائض والعبادات، فجاءت هذه الآية للحث على الهداية ودخول الإسلام، والإنتماء إلى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [(٢)].

الخامسة: دعوة المسلمين والناس جميعاً للتدبر في خاتمتي الآيتين وما بينهما من التباين والإختلاف في الأثر المترتب على الوعيد والتخويف في خاتمة الآية السابقة، والوعد الكريم في خاتمة هذه الآية.

السادسة: جاءت هذه الآية للمعنى الأعم من الإستثناء والتوبة فهي مدرسة في التقوى، إذ تبعث الناس عامة والمسلمين خاصة على الصلاح والتقيد بالفرائض.

السابعة: تدعو هذه الآية المسلمين للنظر إلى الذين تابوا بعين الأخوة ونزع الضغائن قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

الثامنة: إبتدأت هذه الآية بأداة الإستثناء إلا للترغيب بالتوبة،ودعوة المسلمين لحث أهل الكتمان على إظهار الحقائق وبيان البشارات، وهذه الدعوة لا تتعارض مع لزوم الحذر والحيطة منهم.

التاسعة: ويدل إبتداء الآية بالإستثناء على إتصال مضمون وكلمات هذه الآية بالآية السابقة بلحاظ أنها تتضمن المستثنى منه.

---

(١)سورة البقرة ٦٢.

(٢)سورة آل عمران ١١٠.

العاشرة: تدل الآية على أن عدد الذين يتوبون ويعملون الصالحات من الذين يخفون البينات أقل من الذين يصرون على البقاء على الكتمان والإخفاء، وفيه إعجاز إضافي، ودعوة للمسلمين للحيطة والحذر من الذين يكتمون البينات وآثار وأضرار هذا الكتمان، وفيه نكتة وهي الحاحة لتوبة وصلاح الذين يخفون البينات والهدى وهذه الحاجة على وجوه:

الأول: حاجة المسلمين لتوبة وصلاح الذين يكتمون البينات، لأن في توبتهم تحقيق عن المسلمين، وسبب لدخول أفواج من الناس الإسلام وبرزخاً دون قتال كثير منهم للمسلمين.

الثاني: ندم وتوبة الذين يخفون الآيات حاجة لهم أنفسهم في الدنيا والآخرة.

الثالث: إنه حاجة للناس لما فيها من إزاحة للغشاوة التي تكون على الأبصار بسبب كتمان الآيات، وجذب للناس للبراهين والبينات، وبعث الشوق في نفوسهم لمعرفة البشارات التي جاءت في النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويدل على تعدد وجوه الحاجة في المقام ذكر الآية لصفة الإصلاح بقوله تعالى(وأصلحوا).

إن إظهار البينات من قبل الذين كانوا يخفونها مدرسة للأجيال يقتبسون منها الدروس والعبر، ولا تنحصر منافع هذه المدرسة بأبنائهم أو بالمسلمين والمسلمات بل هي عامة، ومناسبة لدخول الناس الإسلام لأن هذه التوبة حجة وشاهد سماوي من الملل السابقة على صدق نبوته، فمن إعجاز هذه الآية الذاتي والغيري كشف البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة قوية وندم أولئك الذين يخفونها، وهو شاهد على صدق نزول القرآن من عند الله من وجوه:

الأول: تتضمن هذه الآية الإخبار عن حصول التوبة من قبل فريق من الذين يخفون الآيات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: مجيء أهل التوبة بصيغة الإستثناء ومافيه من الدلالة على القلة بالقياس إلى كثرة الذين يصرون على إخفاء البينات بلحاظ صيغة العموم الشاملة للذي يكتمها عن علم أو عن غفلة وجهالة.

الثالث: في الآية حث للمسلمين لمواصلة الدعوة للذين يخفون البينات لسبل الهداية.

الرابع: التعدد في صفات التائبين من إخفاء الآيات، وكل صفة لها معنى ودلالة ومنافع، مع إجتماع منافع هذه الصفات وفي الصلة بين التوبة والإصلاح والبيان مسائل:

الأولى: الصلاح شاهد على صدق التوبة والإنابة.

الثانية: بيان الإنتفاع من التوبة بالتقوى والهداية.

الثالثة: إظهار مفاهيم التوبة بالصلاح.

الرابعة: الآية دليل على وجود آثار سلبية لإخفاء البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فجاء قيد الإصلاح بقوله تعالى(وأصلحوا) لإزالة تلك الآثار.

الخامسة: الآية من الشواهد على سعة رحمة الله ورأفته بالتوابين، ودليل حاضر على المنافع العظيمة في النشأتين لإختتام الآية بقوله تعالى(وأنا التواب الرحيم) فالإصلاح كفارة من إخفاء البينات، وقد يكون الإصلاح في باب غير باب البيان وإعلان الحقائق ولمنع وهم وهو أن التائب يقوم بالإصلاح مع بقائه على إخفاء البينات ولا ينحصر البيان في الآية بخصوص إخفاء البينات بل هو عام ويشمل أموراً:

الأول: الإخبار عن المعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عند الله.

الثاني: أداء الفرائض والمناسك لأن فيه بياناً علمياً للبينات.

الثالث: بيان قبح كتمان وإخفاء البينات، وذم الذين يصرون على الإقامة

في منازل الجحود والعناد، وفي الآية دعوة للتائبين بإنذار وتحذير الذين يخفون البينات ودعوتهم للهداية والإيمان.

ومن أسرار إجتماع الإصلاح مع البيان أن البيان وحده لا يكفي في جذب الناس إلى سبل الهداية وجعل الذين يخفون البينات يظهرونها ويعلنونها والصلاح وسيلة لإنعاتهم لدعوة الحق والهدى.

وقدمت الآية التوبة لأنها شرط في قبول الأعمال، وشاهد على أنها تأتي عن إيمان وهداية ورشاد، وشاهد عل قصد القربة الذي تتقوم به الفرائض العبادية ثم جاءت بعد التوبة الإصلاح ليكون دليلاً على حصول التوبة والإنابة، فقد يترك الإنسان منازل إخفاء الآيات لا يعلمون به، فيأتي إصلاحه إخباراً للناس عن ندمه وتوبته وإقراره بالبينات والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه توكيد لحاجة الذات والغير للإصلاح، فالإنسان يحتاج أن يكون مصلحاً للفوز بالنعم الدنيوية والآخروية، وتكون منافع الإصلاح عامة وشاملة للآخرين وجاء قيد الإصلاح للدلالة على تقوم التوبة بدخول الإسلام وفعل الصالحات.

ثم ذكرت الآية البيان وأنه مقدمة واجبة لإحراز رضا الله ونيل توبته وعفوه، قال تعالى بخصوص آدم عليه السلام ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[1]، وجاء القرآن بالآيات التي تتضمن الكلمات التي يتوب الله عز وجل وجل بها على الناس بالإصلاح وبيان المعجزات، وجاءت الآية بصيغة الجمع في التوبة الإصلاح والبيان وفيه وجوه:

الأول: بيان كثرة التائبين والحاجة إلى صيرورتهم أمة تكشف ضلالة الذين يخفون البينات.

الثاني: الآية بشارة توبة كثير من أهل الكتاب.

(١)سورة البقرة ٣٧.

الثالث: دعوة المسلمين لإستقبال وقبول التائبين بمعاني الأخوة الإيمانية وإعانتهم وهدايتهم إلى سبل الصلاح، وكيفية الإصلاح، وإظهار البينات.

الرابع: بيان قانون ثابت وهو أن آثار ومنافع الآية القرآنية عظيمة ومتعددة، وجاءت الآية بالوعد الكريم الذي لا يقبل الترديد والممتنع عن اللبس والخلط إذ أخبرت عن توبة الله عز وجل عن خصوص الذين يتوبون إلى الله من إخفاء الآيات، ويقومون بالصلاح وأداء العبادات ويبينوا للناس المعجزات ولزوم التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والعمل بالميثاق قال تعالى﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ [(١)]، ومن الإعجاز في قوله تعالى(فاولئك أتوب عليهم) مسائل:

الأولى: جاءت الآية بالعطف بحرف(الفاء) الذي يفيد التعقيب وأن ما بعده لا يتأخر عما قبله وفيه نكتة عقائدية وهي مع توبة الله تنزل النعم وترفع اللعنة، وتقوم الملائكة بالدعاء للتائبين.

الثانية: توكيد إجتماع أفراد التوبة الثلاثة وسبل النجاة من اللعنة.

الثالثة: بيان الفوز العظيم الذي يناله أهل هذه الآية.

الرابعة: الترغيب بالتوبة وفعل الصالحات لأن توبة الله غاية حميدة يجب بذل الوسع لنيلها وإحرازها.

الخامسة: نسخ وإبطال اللعنة ومجيء البشارة بديلاً لها للذين يتوبون من إخفاء البينات والآيات.

السادسة: مجيء التوبة عامة للتوابين، وفيه دليل على سعة رحمة الله عز وجل وعظيم عفوه وإحسانه.

وأختتمت الآية بإسمين من أسماء الله عز وجل وهما التواب الرحيم، والضمير(أنا) في المقام ملحق بأسماء الله عز وجل لأنه يتكلم عن نفسه سبحانه، وفي خاتمة الآية مسائل:

---

(١)سورة آل عمران ١٨٧.

الأولى: توكيد لمضامينها القدسية وشاهد على أن الله عز وجل غفور رحيم ليس من حصر لمتعلق وموضوع توبته.

الثانية: عدم إنحصار التوبة بالذين تابوا من إخفاء البينات بل تشمل الناس جميعاً.

الثالثة: أن موارد التوبة أكثر من أن تحصى وما ورد في الآية فرد منها.

الرابعة: التوبة لطف وفضل من عند الله.

الخامسة: التوبة ناسخة للعنة الله والخلائق والآثار المترتبة عليها.

السادسة: من فضل الله عز وجل مصاحبة الرحمة للتوبة، فمع التوبة تأتي النعم، وتمحى النقم، ويدفع الله عز وجل الشرور والأذى، وتستعد الملائكة لإستقبال المؤمن في الجنة.

لقد جعل الله عز وجل العقل رسولاً باطنياً عند الإنسان، وجاءت خاتمتا هذه الآية والآية السابقة ليعمل الإنسان فكره في الأضرار الفادحة التي تلحقه في الدنيا والآخرة بسبب إخفاء البينات مع حصر هذه الأضرار بالذات وعدم تعديها للغير ببركة نزول القرآن وقيام الحجة على صدق نزوله من عند الله وتوالي المعجزات على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾[1]، ويستحضر الإنسان الرحمة وسقوط العقاب بالتوبة والصلاح والبيان، فيدرك الحاجة إلى التوبة وينبعث في نفسه شوق لإتيان الصالحات وصحبة المؤمنين ومحاكاتهم في أدائهم المناسك رجاء الفوز برحمة الله، قال تعالى﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾[2].□

من غايات الآية

في الآية مسائل:

---

(١)سورة المائدة ٤٢.

(٢)سورة القصص ٨٠.

الأولى: بيان إنتهاء وإنقطاع اللعنة وعدم إطلاقها.

الثانية: ذكر السلاح والوسيلة التي تنقطع بها اللعنة وهي التوبة والإنابة.

الثالثة: دعوة المسلمين للتمييز بين الذين يخفون الآيات وبين الذين تابوا وأصلحوا.

الرابعة: ترغيب أهل الكتاب وغيرهم بالتوبة والإصلاح والبيان، وجاءت هذه الأمور دفعة واحدة وفيه شاهد على صدق نزول القرآن من عند الله عز وجل فلم تذكر الآية التوبة وحدها كمرتبة أولى لترغيب الذين يكتمون الآيات بالتوبة، بل جاءت الآية بذكر التوبة والإصلاح والبيان وهو من عمومات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

الخامسة: بشارة التوبة ومحو الذنوب والسيئات عن المؤمنين.

السادسة: دعوة المسلمين جميعاً إلى الإصلاح والبيان، وفيه عون ومدد لتوبة الذين يخفون البينات، ودعوة لهم للإصلاح ونبذ التحريف وكتمان البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

السابعة: بعث الأمل في نفوس الناس جميعاً ومنهم الذين يخفون البينات، ودفع اليأس والقنوط عنهم، لأن فتح باب التوبة ترغيب بها، ودعوة للنفرة من الإقامة عن المعاصي.

الثامنة: الآية وما فيها من البشارة للتائبين من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

التاسعة: توكيد إنتفاء الحاجز بين الله وبين عباده فما أن يتوب الإنسان ويصلح حاله حتى يتوب عليه الله عز وجل.

العاشرة: دعوة المسلمين إلى إكرام التائبين وإعانتهم في التفقه في الدين

---

(١)سورة فاطر ١٥.

(٢)سورة الأنبياء ١٠٧.

ومعرفة أحكام الحلال والحرام.

الحادية عشرة: بيان حاجة الناس للقرآن وآياته وما فيه من الحث على التوبة وبيان منافعها في النشأتين.

الثانية عشرة: تلاوة المسلمين لهذه الآية واقية من التحريف وإنذار للكفار، وزجر عن إخفاء البينات.

التفسير

قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾

الأولى : تبين الآية سعة رحمة الله تعالى وبقاء باب العفو والمغفرة مفتوحاً حتى للذين تعمدوا الإساءة والظلم بغير حق وهي حث على التوبة وإظهار الندم وباب كريم يبقى مفتوحاً إلى يوم القيامة.

الثانية : إستثنت الآية من مواضع اللعنة وشدتها أولئك الذين ندموا وتنصلوا من خطيئة الكتمان وما يترتب عليه من الأضرار.

الثالثة : هل اللعنة لا تشمل هؤلاء حتى قبل توبتهم لعلمه تعالى بحصول التوبة والندم منهم، الجواب: لا لأنهم أثناء التلبس بالكتمان مشمولون بعمومات اللعن وإنطباق الحكم عليهم كجزء من موضوعه وفيه نكتة كلامية وهي أن اللعنة لا تمنع من التوبة والصلاح واللطف الإلهي بتقريب العبد إلى التوبة وتهيئة مقدماتها، ومنها آية البحث وتلاوة المسلمين لها كدعوة سماوية أرضية للتوبة، وهو من مصاديق رحمة الله وخاتمة هذه الآية بأن الله هو(التواب الرحيم) قال تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[1].

الرابعة : عند التوبة والندم وكشف وإظهار الآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وعلى لزوم إتباعه يتغير الموضوع، وتدفع وتدرأ اللعنة عن

(١) سورة الأنعام ١٩.

التائب وعن علي رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله « وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية ، كانوا على ما كرهته من معصيتي ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلا تحوّلت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي؛ وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي ، ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي ، إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي[1].

الخامسة : استثناؤهم من اللعن بالتخصص وليس بالتخصيص بعد تحقق التوبة وإختيار طريق الرشاد وإن كان الإستثناء حال الدعوة للتوبة بالتخصيص.

قوله تعالى ﴿وَأَصۡلَحُوا﴾

الأولى : قيود تأديبية وإحترازية وردت في الآية لتدل على الإعجاز والتكامل والدقة في الحكم ونفي الجهالة والغرر، وقطع الطريق على الكفار الذين قد يدّعون يوم القيامة أنهم لا يعلمون بامكان التوبة والإنتفاع من التدارك.

الثانية : إعلان الندم وحده على كتمان الحقائق وأسرار التوراة والإنجيل وما فيهما من البشارات وعلوم الغيب الخاصة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يكفي في حجب اللعنة عنهم، فلابد من نقاء السريرة ولا يكفي الصلاح الذاتي وحده من غير أن يبرز إلى الخارج بالقول والعمل.

الثالثة : لابد من الإصلاح وهو إخلاص العمل وتنقيحه وتخليصه مما يشوبه.

الرابعة : الأقوى عدم وجوب التدارك التفصيلي لما فات أيام الإخفاء والكتمان كعنوان لصدق التوبة.

---

(١) الدر المنثور ٤٨٤/٥.

الخامسة : لا يجب أن يرجع إلى كل شخص كتم عنده الحقائق ليكشفها ويخبره بالحق بل يكفي إستقبال أعماله بالتوبة، فظاهر الآية الإصلاح في مستقبل الأفعال مما يلي التوبة ويتعقبها.

بحث بلاغي

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾ قد جاءت هذه الآية في سورة النساء أيضاً[1]، ولكنها جاءت في موضعين من القرآن بزيادة من بعد ذلك قال تعالى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾[2] وهذا التشابه والزيادة له دلالات قرآنية، فالإختلاف لا ينحصر بالحرفين كما ذكر في علم البلاغة، ففي هذه الآية ورد البيان مع التوبة والإصلاح فجاءت فاصلة الآية بالإخبار الصريح والنص القرآني بتفضله سبحانه بالتوبة عليهم ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ انه وعد كريم وبشارة وحث على التوبة مع الإصلاح والتبيان.

وفي الآية من سورة آل عمران جاء ذكر التوبة والإصلاح من غير تبيان، وفيه نكتة تدل عليها الزيادة ﴿ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾[3] التي تدل بالدلالة التضمنية على التأخر الرتبي في التوبة بما يدل على إستقرارها وثباتها وعدم نسخها وتركها.

وقد يظهر في باب المقارنة بين الآيتين التأخر الزماني في التوبة ايضاً، والجمع بين الآيتين يدل على سعة باب المغفرة الإلهية وشمولها لوجوه التوبة وتؤكد الآية خصوصية وأهمية البيان وإظهار الإيمان وفضح التحريف والجحود.

---

(1) سورة النساء ١٤٦.

(2)سورة آل عمران ٨٩، سورة النحل ١١٩، سورة النور ٥.

(3) سورة آل عمران ٨٩، سورة النحل ١١٩، سورة النور ٥.

إن التشابه اللفظي يجب أن لا ينظر إليه من باب علم البلاغة فقط، ولا يكون مانعاً للبحوث العقائدية في باب المتشابه بمعنى أنه على العلماء ألا يقفوا عند البحث البلاغي فقط فقد يكون فيه حجب لعلوم قرآنية أكثر أهمية وحاجة للأمة وللبرهان.

قوله تعالى ﴿وَبَيَّنُوا﴾

الأولى : أي وأظهروا ما كانوا يكتمونه.

الثانية : تعطي هذه الآية معاني أخلاقية وإصطلاحية للتوبة.

الثالثة : جعلت الآية الإستثناء ونيل الرحمة والخلاص من شدة العذاب والنجاة من الطرد ببيان العلم وإظهاره قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(١).

الرابعة : هذا المعنى للتوبة لا يكون مطلقاً بل يختص بمن قام بفعل إضافي وهو كشف الحقائق وإعلان البشارات.

الخامسة : من التوبة ما يستحب معه ستر الذنب والإستغفار وعدم فضح النفس بين الناس وعن جابر بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : واذنوباه واذنوباه فقال هذا القول مرتين أو ثلاثا فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم : قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي و رحمتك أرجى عندي من عملي فقالها ثم قال : عد فعاد ثم قال : عد فعاد فقال : قم فقد غفر الله لك) (٢).

السادسة : البيان في المقام ضرورة وحاجة عقائدية ومبرز خارجي للندم والتوبة والصلاح، فقد يتوب من تعمد الكتمان ولكنه يتجنب الإقرار العلني بالآيات من غير ضرورة.

(١) سورة الرعد ١١.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٥/٥٠.

السابعة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على عدم الواسطة بين الإيمان والكفر، فعند هجران وترك منازل الكفر يجب التوجه إلى أداء الوظائف العبادية، قال تعالى﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾(١).

الثامنة : بالإعلان والكشف عن حقائق وكنوز النبوة المدخرة والمغطاة بسحب الحسد والبغضاء والضلالة تتجلى الهوية الإيمانية للشخص، ويساهم في إصلاح حاله عند الناس، قال تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾(٢).

التاسعة : على فرض إختياره السكوت والتردد، فان الناس يظنون أنه لا زال على قوله من نكران الآيات الخاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

العاشرة : قد يظهر الإصلاح بمسماه فقط وعلى نحو محدود أو في أبواب إجتماعية وعرفية وأخلاقية من غير أن يبين ويعلن تلك البشارات فيبقى تأثير جحوده وكتمانه سارياً بين الناس، ويزداد ضرره وتصديق الناس به لأن الذي جحد وكتم تلك الآيات يبدو لهم متلبساً بالصلاح وهو رداء يساعد على تصديق وإمضاء أقواله وليس من بينة على أنه ندم وتاب عن كتمان الآيات، وقد يؤاخذ بذنوب أولئك الذين صدّقوا به وهو يخفي الآيات مع أنه أصبح في حال ندم أو توبة وصلاح فتأتيه اللعنة بالواسطة أو بالعرض وبسبب جحود غيره من الناس الذين صدّقوا بأقواله وتكذيبه أيام كفره وإخفائه البشارات وإنما يحلل الكلام ويحرم الكلام.

الحادية عشرة : من كنوز القرآن العلمية هذا الجمع بين التوبة والإصلاح والتبيان وكيف أن التحقيق يثبت الملازمة بينها للنجاة من اللعنة وبها يدفع

(١)سورة الحج ٣٢.

(٢) سورة الرحمن ٩٦ .

الإجمال ويبرز النص الذي لا يحتمل تأويلاً آخر ولو كان ضعيفاً.

الثانية عشرة : في البيان حجة على الذات والغير فمن يظهر العلوم والأسرار الخاصة ببعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الموجودة في الكتب السماوية السباقة لا يستطيع البقاء على كفره بل يكون دخوله في الإسلام ضرورة وحاجة أخلاقية وإجتماعية وعرفية له لدفع التناقض بين القول والعمل.

الثالثة عشرة : إذا كانت الكدورات الظلمانية والنفس البهيمية والشرور العرضية تجعله يتردد في دخول الإسلام ويهادن رؤساء الكفر والضلالة فان التبيان المقرون بالصلاح والندم مدخل للهداية والإيمان ونزع رداء الكفر كما أن المسلمين يقابلونه حينئذ بالإكرام والإعتزاز وتهيئة مقدمات دخوله الإسلام، وبهذه الكيفية دخل جماعة من علماء الملل الأخرى الإسلام، ومن الإعجاز عدم وجود برزخ وحواجز بين الفرد والجماعة وبين دخولهم الإسلام فليس عليهم إلا النطق بالشهادتين.

الرابعة عشرة : في الآية نكتة عقائدية وهي أن إظهار أحدهم الحقائق واعترافه بالآيات يجعل اقطاب الكفر ييأسون منه ويبتعدون عنه مما يعني إزاحة بعض الحواجز أمام النظرة الموضوعية الهادفة ودخوله الإسلام.

قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾

في الآية مسائل :

الأولى : وعد كريم بقبول توبتهم والرضا عنهم.

الثانية : يظهر في الآية الفضل الإلهي وتعقب العفو للتوبة النصوح حال حدوثها وإجتماع شرائطها.

الثالثة : الآية لا تتحدث عن رفع اللعنة عنهم إنما تدل عليه بالدلالة التضمنية لأن الفضل الإلهي بالتوبة يعني غفران الذنب وسقوط العقاب.

الرابعة : تدل الآية في مفهومها على الوعيد وما ينتظر الذين أصروا على كتمان حقائق النبوة وبشارات الرسالة من العذاب الأليم.

الخامسة : تبين الآية أن التوبة والمغفرة فضل من الله تعالى وليست واجباً وإستحقاقاً للعبد يناله بمجرد التوبة فان إفرادها بالذكر يدل على أنها لطف وإحسان.

قوله تعالى [وَأَنَا التَّوَّابُ]

الأولى : الآية للمبالغة والإخبار القاطع والوعد بالجميل.

الثانية : فيها ثناء وشكر لله عز إسمه.

الثالثة : دفع وهم وخوف العقاب من سوء ما فعلوا بأنفسهم في سابق عهدهم وكتمانهم الآيات وما أدى إليه هذا الكتمان من الضرر النوعي العام.

الرابعة : منع تسرب اليأس إلى النفوس والإقامة على الكفر وإخفاء أسرار النبوة عمداً أو إعراضاً وعدم إكتراث.

الخامسة : أخبر الله سبحانه عن واسع مغفرته لعظيم الذنوب وأكثرها.

السادسة : قبول الله سبحانه للتوبة من العاصين وأشدهم ظلماً لنفسه دعوة سماوية لكل إنسان يأتي بها القرآن وحجة على الكافرين في النشأتين.

السابعة : في الآية حث إلهي على التوبة.

الثامنة : دعوة سماوية لإظهار كنوز التوراة والإنجيل، والكشف عن البشارات الخاصة ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

التاسعة : الآية أعم في متعلقها، لذا وردت على نحو الإطلاق والإستغراق وعموم توبته سبحانه ومغفرته.

العاشرة : التواب من أسماء الله الحسنى، وقد ورد في القرآن إحدى عشرة مرة.

الحادية عشرة : هذه الآية هي الوحيدة التي جاءت بصيغة المتكلم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ مما يفيد القطع بقبول التوبة وإنفراد الله سبحانه بالقدرة على محو الذنوب وان توبته على العباد مطلقة.

الثانية عشرة : في الآية وثيقة سماوية وحث على التوبة ووعد بقبولها وهذا الوعد لا ينحصر بموضوع الآية وأوان النزول بل هو باق وملازم للتكليف.

قوله تعالى ﴿الرَّحِيمُ﴾

الأول : مجيء هذه الصفة المباركة ملازمة لصفة التواب يدل على تفضله سبحانه بالعفو وتغشي الرحمة لهؤلاء وبداية مرحلة الثواب والأجر بعد إسقاط العقاب.

الثاني : من رحمته تعالى بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام.

الثالث : ورد في معنى إسم الرحيم عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه إسم عام بصفة خاصة) أي أنه يشمل الحياة الدنيا والآخرة ولكنه خاص بالمسلم فتتغشاه الرحمة في الدنيا وتكون وقاء من أهوال البرزخ وحرزاً وأماناً يوم الحساب.

الرابع : الكافر لا ينتفع من هذه الصفة ولكنه يستفيد من صفة الرحمن في الدنيا دون الآخرة مما يدل على إجتماع التوبة والإصلاح والتبيان في المؤمن.

الخامس : الملازمة بين النبوة والرحمة لدفع وهم الكفار بأنهم قد يستفيدون من الرحمة كما ورد في التنزيل حكاية عنهم﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران ١٤.

السادس : يتصف إيمان هؤلاء بهذه الصفات موضوعاً وحكماً.

السابع : إن تبيان وإعلان نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام الإمامة يأتي إنطباقاً مع الإيمان والهداية فلا تتحقق التوبة على من رضي بالبقاء على الجحود.

الثامن : الإصلاح مع البقاء في منازل الكفر لا يقبل لإشتراط الإسلام وقصد القربة في العبادات.

التاسع : البيان والإخبار عن صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة والإنجيل مع بقاء الشخص على الكفر حجة عليه عند الله وعند الناس ولا يكفي في صدق تحقق التوبة النصوح.

العاشر : لا ينحصر موضوع الآية بكتمان صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل يشمل كتمان الآيات مطلقاً ومنها آيات القرآن والآيات الحسية في الإسلام والإعجاز الموضوعي فيه ونحوها.

الحادي عشر : إستمرار الوعد الإلهي في الآية مستمرة إلى يوم القيامة، لتبشر بالمغفرة والرحمة كل من إستقام وأصلح حاله وصار داعية للحق جرياً وانطباقاً.

الثاني عشر : تحمل الآية القرآنية على الإطلاق مع عدم ورود دليل على التخصيص.

الثالث عشر : في الآية بيان لفضل الله تعالى بقبول التوبة فهو ليس واجباً عقلياً عليه سبحانه بل هو رحمة وتفضل وإحسان، لذا جاءت الآية للوعد به وهذا الوعد جزء من التوبة وإخبار عنها ومقدمة لها لأن الوعد الخالي من المنافع نوع إمتنان وفضل، والله عز وجل غني غير محتاج.

الرابع عشر : موضوعية الوعد تتجلى بما تلقيه الآية الكريمة من طمأنينة ورضا وسكينة في القلب.

الخامس عشر : الآية عون على التوجه لأداء الواجبات والعبادات

باستبشار وأمل.

السادس عش : يمكن إعتبار الآية مدرسة للأجيال في قبول التوبة.

السابع عشر : إن إقتران صفة الرحمة بالمعنى الأخص مع التوبة والمغفرة دليل على كفايته تعالى لعبيده التائبين وحفظهم ونجاتهم، قال تعالى﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(١).

الثامن عشر : المتتبع للوقائع والتأريخ يجد أن الذين عملوا بهذه الآية والآيات والبراهين الأخرى نالوا الكرامة والوجاهة في الدنيا إلى جانب ما ينتظرهم من الثواب العظيم في الآخرة.

بحث اصولي

(إلا) أداة إستثناء ينصب ما بعدها إذا جاءت بعد كلام تام، أي عند ذكر المستثنى منه، وموجبه لا يتضمن صيغ النفي والنهي والإستفهام، وفي علم المنطق قد تكون القضية الحملية على نحو السالبة الجزئية وهي التي يسلب فيها المحمول عن بعض أفراد الموضوع بما يسمى سورها مثل: لا، ليس، وفي البلاغة تستعمل الكثرة كناية عن الجهل عند ترك التصريح به.

ولما إختلف أحد الخلفاء مع أحد أصحابه في مسألة وإستدعى من يحكم فيها وكان من أهل العلم فلما وجد الصواب بخلاف ما قال الخليفة قال: القائلون بقول الخليفة أكثر، يريد التعريض به لقوله تعالى﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ولكنه ليس بتام لأن المراد من عدم العلم في الآية أعلاه الجهل والضلالة، وليس الإختلاف في مسألة كلامية أو فقهية.

ومن إصطلاحات علم الأصول الشائعة العام والخاص، والأول هو اللفظ

(١)سورة الزمر ٣٦.

(٢)سورة الأعراف ١٨٧.

الذي يتعلق بجميع أفراد الموضوع، وأما الخاص فهو الذي لا يتعلق إلا ببعض أفراد موضوعه، وما من عام إلا وقد خص، والمخصص قد يكون متصلاً ويدل على أن قصد المتكلم هو غير الخاص من العموم كما هو في هذه الآية.

وقد يكون المخصص منفصلاً، ولا ينعقد للكلام في المتصل ظهور إلا بالخصوص لعدم إستقراره وتمامه إلا بعد الإتيان بالمخصص المتصل كما في قولك " أشهد أن لا إله إلا الله".

ويبقى العام على حجيته فيما عدا الذي خرج بالتخصيص أي أن اللعنة تنزل بالذين يخفون البشارات ويعرضون عن معجزات النبوة بإستثناء الذين إختاروا التوبة وقاموا بالإصلاح، فجمعت هذه الآية والآية السابقة لغة(الإنذار والوعيد والتخويف) والبشارة منطوقاً ومفهوماً الإنذار والوعيد والتخويف.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ الآية ١٦١

الإعراب واللغة

ان الذين: إن حرف مشبه بالفعل، الذين: إسم موصول مبني في محل نصب إسم إن، كفروا: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول لا محل لها.

وماتوا: الواو: حرف عطف، جملة ماتوا: عطف على جملة كفروا.

وهم كفار: الواو حالية، هم: مبتدأ، كفار: خبر مرفوع ، والجملة في محل نصب على الحال والتقدير ماتوا كافرين.

أولئك: إسم إشارة مبتدأ، عليهم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم.

لعنة: مبتدأ مؤخر مرفوع، وهو مضاف، وإسم الجلالة مضاف إليه مجرور، الملائكة والناس: عطف على إسم الجلالة، أجمعين: توكيد معنوي مجرور، وعلامة جره الياء.

في سياق الآيات

بعد أن بينت الآيتان السابقتان عقوبة كتمان الآيات، وتأكيد العفو والمغفرة لمن تاب وأصلح وكشف الحقائق جاءت هذه الآية لتنذر الكافرين مطلقاً، من يعرف الآيات ويكتمها وغيره، وكأن الآيات جاءت للتخصيص والفصل والتمييز.

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (وأستعينوا بالصبر)[1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التضاد بين الإيمان والكفر في الماهية والأثر والعاقبة فالله عز وجل مع المسلمين الصابرين، أما الكفار فإن لعنة الله والخلائق تنزل عليهم وتصاحبهم.

الثانية: جاءت الآية أعلاه بالخطاب للمسلمين والذي يتضمن البشارة ويبعث على السكينة، أما هذه الآية فجاءت بالوعيد للكفار وبيان سوء حالهم، لأن اللعنة واقعة في الزمن الحاضر وملازمة لهم في الحياة الدنيا،

(١)الآية ١٥٣.

وتتعقبهم في الآخرة، فإن قلت إن اللعنة في الآية مقيدة بالموت على الكفر، وهو أمر متأخر زماناً على أيام الكافر في الحياة الدنيا، فالجواب: جاءت الآيات بالإخبار عن لعنة الله على الكفار مطلقاً من غير تقييد بأيام الآخرة قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[1]، مما يدل على تجدد اللعنة على الكفار، وشمولها لأيامهم في الدنيا، وفي عالم البرزخ والقبر، ويوم القيامة.

الثالثة: الترتيب بالصبر والصلاة والفرائض مطلقاً، وجعل النفوس تنفر من الكفر والضلالة لما فيه من القبح الذاتي وسوء العاقبة.

الرابعة: من مصاديق الصبر الصبر على الطاعة وأداء الواجبات العبادية، والإبتعاد عن المعاصي والذنوب واللذات المهلكة.

الخامسة: لما كان الله عز وجل مع الصابرين فإن الملائكة والناس معهم، وتتجلى هذه الحقيقة بنزول الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين الذين خرجوا في معركة بدر واحد والخندق وغيرها لمواجهة جيوش الكفار التي زحفت على المدينة، قال تعالى بخصوص معركة أحد ﴿تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ﴾[2]، وجاءت الآية محل البحث بالإخبار عن طرد الكفار من رحمة الله، ومصاحبة لعنة الملائكة والناس لهم.

الثاني: الصلة بين آية (بل أحياء)[3]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان التباين والتضاد حال ما بعد الموت بين المؤمنين والكفار، وأن المؤمنين الذين يقتلون في سبيل الله خالدون في النعيم، أما الكفار فهم مقيمون

(١)سورة الأحزاب ٦٤.

(٢)سورة آل عمران ١٢٥.

(٣)الآية ١٥٤.

في العذاب تلاحقهم لعنة الله والخلائق.

الثانية: لا يشعر المسلمون والناس بحياة الشهداء، وجاءت الآية أعلاه للإخبار منها وتوكيدها، وأخبرت هذه الآية عن سوء عاقبة الكفار الذين لم تدركهم التوبة في الحياة الدنيا.

الثالثة: يبعث الجمع بين الآيتين على أمور:

الأول: الغبطة والسعادة في نفوس المسلمين.

الثاني: الخوف والحزن في قلوب الكفار.

الثالث: المبادرة إلى التوبة والصلاح.

الرابع: لعن وذم الذين يغادرون الدنيا على الكفر والضلالة.

الرابعة: في الوقت التي تهدي الآية أعلاه المسلمين إلى إكرام الذين قتلوا في سبيل الله بنعتهم بالأحياء والشهداء فإن هذه الآية تتضمن ذم الكفار والإخبار عن لعنة الناس جميعاً لهم وفيها منع للحرج من ذمهم، ودعوة لعدم الدعاء لهم والصلاة عليهم، وذكر في باب نيابة الحج (يشترط الإسلام في المنوب عنه، وان كان ميتاً والحج مستحباً، فلا تصح النيابة عن الكافر وعليه الإجماع)[1].

الثالث: الصلة بين آية (ولنبلونكم)[2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه خطاباً للمسلمين، أما الآية محل البحث فأخبرت عن الأذى والعذاب النازل بالكفار.

الثانية: لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار بلاء وإمتحان، ولا ينجو فرد أو جماعة منه، ولكن مع الفارق، فالمسلمون يأتيهم البلاء الذي يقترن به الثواب والأجر والذي لا يكون عن معصية منهم، أما الكفار فإن البلاء يأتيهم بما قدمت أيديهم، ويصاحبه العذاب والضرر والحزن.

(١)رسالتنا الموسوعة مناسك الحج المسألة ١٣٩.

(٢)الآية ١٥٥.

الثالثة: يأتي البلاء للمسلمين على نحو محدود موضوعاً وزماناً وتدل عليه لغة التبعيض في الآية أعلاه﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾[1]، أما الكفار فإن البلاء والأذى مصاحب لهم في الدارين، وتلك آية في الإرادة التكوينية.

الرابعة: أختتمت الآية أعلاه ببشارة المسلمين الصابرين بالرحمة والفضل الإلهي، أما الآية محل البحث فأنها تضمنت لعنة الكفار وطردهم عن رحمة الله.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه لدعوة المسلمين للدعاء لمحو البلاء والتخفيف منه وهو من أسرار لغة التبعيض في الآية وما فيها من الترغيب بالدعاء والتضرع إلى الله، أما الكفار فأنهم حجبوا عن أنفسهم نعمة الدعاء والإستجابة له، وفي التنزيل:﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[2].

السادسة: يفيد الجمع بين الآيتين الترغيب بالإيمان المقترن بالصبر ونبذ الكفر والضلالة.

السابعة: القتل في سبيل الله، والإخبار عن حياة الشهداء دعوة للناس للإسلام والهداية.

الرابع: الصلة بين آية (الذين إذا أصابتهم) [3]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت آيات القرآن بهداية المسلمين إلى الإسترجاع عند المصيبة واللجوء إلى الله عز وجل وذم الكفار لضلالتهم.

الثانية: التلبس بالكفر مصيبة مستديمة وحال كآية مصاحبة للكافر قال

---

(١) سورة البقرة ١٥٥.

(٢) سورة غافر ٥٠.

(٣)الآية ١٥٦.

تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1]، وجاء الإسترجاع في الآية أعلاه لدعوته للإسلام.

الثالثة: مع قيام المسلمين بالإسترجاع يدعو لهم الملائكة والخلائق وتتنزل عليهم رحمة الله، أما الكفار فإنهم في شدة وعسر، قال تعالى ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾[2].

الرابعة: تجلي التباين بين المسلمين والكفار إذ يفزع المسلمون إلى الله عند المصيبة، أما الكفار فإن اللعنة تنزل عليهم في كل أوان.

الخامس: الصلة بين آية (أولئك عليهم صلوات) [3]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: بيان الماثز بين المسلمين والكفار، إذ ذكرت الآية أعلاه نعماً عظيمة لا ينالها إلا المسلمون الصابرون، وذكرت الآية محل البحث أنواعاً من البلاء والعذاب لا تصيب إلا الذين يغادرون الدنيا بكفرهم.

الثانية: التضاد بين ما ينزل على المسلمين من الرحمة وبين ما ينزل على الكفار من اللعنة والذم.

الثالثة: يهدي الله المسلمين إلى الإسترجاع ليكون مقدمة ووسيلة لنزول الرحمة الإلهية، أما الكفار فإنهم إختاروا بأنفسهم الإضرار بأنفسهم.

الرابعة: بيان منافع الإيمان وذكر الله عز وجل في حال الشدة والرخاء، وذكر اللعنة والطرد من رحمة الله.

السادس: الصلة بين آية(الصفا والمروة) [4]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

---

(١) سورة الأنعام ١٢٥.

(٢)سورة آل عمرام ١١٩.

(٣)الآية ١٥٧.

(٤)الآية ١٥٨.

مسائل:

الأولى: من أسباب نزول اللعنة على الكفار وإعراضهم عن شعائر الله.

الثانية: الترغيب بأداء المناسك ورجاء السلامة والأمن بأدائها.

الثالثة: تأتي الصلوات من الله للمسلمين، أما الكفار فإن اللعنة تنزل عليهم، ويكونون مطرودين من رحمة الله.

الرابعة: إذ جاءت خاتمة هذه الآية في ذم الكفار الذين يموتون على الكفر، جاءت الآية أعلاه بوصف المسلمين الذين يسترجعون عند المصيبة ويتسابقون إلى سوح المعارك بأنهم(المهتدون)وفيه شاهد على سلامة وعصمة المسلمين من اللعنة والطرد من رحمة الله.

الخامسة: جاءت الآية أعلاه بذكر ثلاثة أفراد لرحمة الله على المؤمنين هي:

الأول: صلوات من الله عز وجل.

الثاني: نزول الرحمة من عند الله.

الثالث: وصف المسلمين بالمهتدين وشهادة الآية لهم ببلوغ مراتب عالية في اليقين لأن الصبر عند المصيبة شاهد على الإيمان والإتقاء في منازل التقوى.

السابع: الصلة بين آية (أن الذين يكتمون) [1]،وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآيتان في ذم الكفار، وبينهما من جهة المتعلق عموم وخصوص من وجه، فمادة الإلتقاء هي الكفر والضلالة، وشمول الكفار باللعنة، أما مادة الإفتراق فهي إختصاص الآية أعلاه بالذين يخفون البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومجيء هذه الآية في الوعيد للذين يموتون على الكفر والجحود.

---

(١)الآية ١٥٩.

الثانية: بين بدايتي الآيتين عموم وخصوص مطلق، إذ إبتدأت كل منهما بقوله تعالى (إن الذين) وفاتحة الآية أعلاه أخص من فاتحة هذه الآية.

الثالثة: جاءت خاتمة الآية أعلاه بذكر اللاعنين على نحو الإطلاق والإجمال بعذ ذكر لعنة الله(ويلعنهم اللاعنون) وجاءت الآية محل البحث تفسيراً وبياناً لأفراد اللاعنين بقوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، لبيان شدة العذاب والأذى الذي يكون فيه الكفار في عالم البرزخ ويوم القيامة، وفيه بعث للنفرة في نفوس الناس من الكفر والجحود وفي التنزيل فمن يرد الله أن ﴿فَمَن يُرِدْ اللَّهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ [1].

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين دعوة الكفار لإعلان الآيات والكشف عن البشارات التي جاءت في الكتب السماوية السابقة بخصوص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الخامسة: بين الكفر الذي ذكرته هذه الآية وبين كتمان البينات الذي تحذير منه الآية أعلاه عموم وخصوص مطلق إذ أن كتمان الآيات والبينات من الكفر، ولكنه أعم منها.

الثامن: الصلة بين الآية السابقة (إلا الذين تابوا) [2]،وبين هذه الآية، وفيها وفيها مسائل:

الأولى: التباين بين التائبين وبين الذين يصرون على الكفر والضلالة.

الثانية: ما يقوم به التائبون من الإصلاح برزخ دون تأثير الكفار بالناس، ومانع من تغشي الأخلاق والعادات المذمومة التي عليها الكفار.

الثالثة: التوبة ماحية للعقاب، وواقية من اللعنة.

الرابعة: دعوة الكفار إلى التوبة والإنابة والسلامة من اللعنة والفوز

---

(1) سورة الأنعام ١٢٥.

(2)الآية ١٦٠.

بالرحمة.

الخامسة: إختتام الآية السابقة بقوله تعالى(وأنا التواب الرحيم) وإبتداء هذه بذكر الذين كفروا وذلهم دعوة للناس لنبذ الكفر والضلالة، وحث لهم على التوبة والإنابة.

السادسة: بيان سبيل النجاة من اللعنة، والوقاية من العذاب الأخروي بالتوبة الإصلاح وبيان الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية (خالدين فيها)[1]، وفيها مسائل:

الأولى: إتحاد موضوع الآيتين.

الثانية: مجيء الآية التالية بتوكيد مضامين هذه الآية، وإستمرار اللعنة على الكفار في النشأتين وحجب الرحمة والعفو الإلهي عنهم.

الثالثة: تتضمن الآية التالية الإخبار عن إستغراق الكفار للعنة، وعدم إستثناء فريق منهم.

الرابعة: جاءت هذه الآية بالإخبار عن لعنة الله للكفار الذين يموتون على الكفر وطردهم من رحمة الله، وقد يقال بأن هناك برزخاً بين الرحمة والعذاب وهو الطرد من الله، فجاءت الآية أعلاه لتوكيد إستدامة العذاب على الكافرين، وعدم تخفيفه عنهم، وإن اللعنة والطرد من رحمة الله تعني العذاب.

الخامسة: يفيد الجمع بين الآيتين الإنذار والوعيد للكفار بالعذاب الأليم إن أصروا على الكفر حتى مغادرتهم الدنيا.

(١)الآية ١٦٢.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (إلهكم إله واحد) [١]، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت هذه الآية بصيغة الجملة الخبرية، ويتعلق موضوعها بالكفار، أما الآية أعلاه فجاءت بلغة الخطاب وتحتمل في جهة الخطاب أموراً:

الأول: الذين ذكرتهم الآية السابقة وهم الكفار.

الثاني: المسلمون إذ جاءت آيات القرآن وما فيها من الوعد والبشارة خاصة بهم.

الثالث: المعنى الأعم وإرادة الناس جميعاً، والصحيح هو الأخير قال تعالى ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[٢].

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية (إن في خلق السموات) [٣]، وفيها مسائل:

الأولى: إقامة الحجة على الكفار، بلزوم نبذ الكفر والجحود.

الثانية: دعوة المسلمين للجدال بالحكمة والموعظة وبيان عظيم قدرة وسلطان الله عز وجل.

الثالثة: توكيد جحود الكفار بالنعم التي يتفضل الله عز وجل بها عليهم وعلى الناس.

الرابعة: حث الكفار والناس جميعاً على التفكر في أسرار وعظمة خلق السموات والأرض، وكيف أنه يدل على وجود الصانع ولزوم عبادته.

الخامسة: بيان قانون في الإرادة التكوينية وهو أن كفر وجحود الكفار لم يمنع من توالي النعم العظيمة من عند الله على الناس والخلائق، لذا جاءت الآية أعلاه بذكر النفع العام للناس في الحياة الدنيا بما فيهم الكفار بقوله

---

(١)الآية ١٦٣.

(٢)سورة الزمر ٦.

(٣)الآية ١٦٤.

تعالى ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾، بالإضافة إلى ذكر نزول المطر من السماء وإنتفاع البر والفاجر منه، وفيه دعوة للتوبة وأداء الفرائض والصلاح.

إعجاز الآية

تجعل الآية المدار في إستحقاق الطرد من رحمة الله على الكفر وإستقراره إلى حين الوفاة، إلا أن ترد آية توسع الحكم وإستحقاق النار وتنفي هذه الآية مع الآية السابقة البرزخية بين الإيمان والكفر، وتقطع الطريق على صيغ الضلالة ومحاولة الإقرار والإعتراف بصدق النبوة وعدم المبادرة إلى الإسلام.

وجاءت الآية بالبيان وإقامة الحجة على الكفار بأن اللعنة المذكورة في هذه الآية تتعلق بإجتماع الكفر والموت عليه، للإخبار بأنها خاصة بعالم الآخرة ويأس الكفار من نيل الرحمة فيه، وفي الحديث: خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة[1].

لتخبر هذه الآية عن مصاحبة اللعنة والطرد من رحمة الله للكفار في الآخرة، وهذا الإخبار خير محض ورحمة بالكفار لما يتضمنه من دعوتهم للتوبة والتدارك قبل الموت.

وبما أن الموت قريب من الإنسان فإن الآية دعوة للتوبة العاجلة، وإجتناب الإقامة على الكفر والضلالة، وجاء التعدد والتكرير في اللعن لتوكيد ذم الكفار وبعثهم على التوبة والإنابة.

ويمكن تسمية الآية آية(**ان الذين كفروا وماتوا**) وورد هذا اللفظ في القرآن مرتين[2].

---

(1) الدر المنثور ٣٦/٤.

(2) أنظر سورة آل عمران ٩١.

الآية سلاح

في الوعيد للكافرين تخفيف عن المؤمنين وقذف للسكينة في نفوسهم، وحجة على الذين إمتنعوا عن دخول الإسلام، ورحمة وإعزاز لأولئك الذين دخلوا الإسلام عند رؤية الآيات وظهور البراهين.

لقد جاء القرآن ليبعث الفزع والخوف في قلوب الكفار، ويقطع الغفلة ويمنع الجهالة عن الناس لذا تتضمن آياته البشارة والإنذار، ويتجليان في هذه الآيات إذ جاءت الآية السابقة بالبشرى وبالتوبة والعفو للذين تابوا وأصلحوا وأظهروا البينات، وجاءت هذه الآية بالوعيد وكما تتضمن الآية السابقة في مفهومها الوعيد للكفار الذين يخفون البينات، فإن هذه الآية تتضمن في مفهومها البشارة للمؤمنين قال تعالى﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وإبتلاء، ولكنه تفضل وجعل المدد مصاحباً للمسلمين والناس جميعاً.

وليس من حصر لهذا المدد وإن تباين موضوعاً وكيفاً وكماً بالنسبة للأفراد والملل والنحل، ففاز المسلمون بالنصيب الأوفر منه، ومنه هذه الآية الكريمة التي هي سلاح سماوي يصيب الكفار بالحزن والخيبة، ويدعوهم للتدبر في الآيات الكونية والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي أن السلاح السماوي في المقام يختلف عما هو معروف عن الأسلحة التي يتخذها الناس في الهجوم والدفاع، فيتجلى اللطف الإلهي بين ثنايا الوعيد الوارد في هذه الآية الكريمة بالنفرة من الكفر، والخشية من الموت عليه، وتزيين التوبة، والتدبر في منافعها الدنيوية والآخروية، ومنها السلامة والنجاة في اللعنة المهلكة التي جاء بها هذه الآية، إذ تنزل لعنة الله والملائكة وجميع الناس بالذين يموتون على الكفر والضلالة قال تعالى بلغة الوعد والتخويف﴿وَلَا

(١)سورة البقرة ١٣٢.

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

مفهوم الآية

جاءت الآية للإخبار عن إتساع رقعة اللعنة بلحاظ الكفر أي أنها تشمل عموم الكافرين لا الذين يخفون آيات التنزيل فقط، فالذي يتبع رؤساء الكفر الذين يكتمون البشارات تصيبه اللعنة، وإذا كان المسلمون معرضين للمصيبة فان الآيات السابقة أوصتهم بالصبر ووعدتهم بالجزاء العظيم، أما الكفار فان القرآن توعدهم وخوفهم ولعنهم وبشرهم بالعذاب الأليم.

وقد قيدت الآية الحكم بلعنة الكافرين بموتهم على الكفر والجحود، لموضوعية التوبة في رفع العذاب وللتنبيه عليها والحث على ولوج أبوابها الواسعة، فمن عظيم رحمة الله أنه لا بواب على باب التوبة ولا تزاحم ولا إذن ينتظر كي يقوم الإنسان بالتوبة ولا إبطاء في قبولها، فليس بين العبد والتوبة ونزول الرحمة إلا أن يصلح سريرته ويعلن توبته ويهجر منازل الكفر والضلالة ومستنقع الذنوب، وفي كاتمي الآيات جاءت اللعنة في الآية قبل السابقة ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[2]، أما في هذه الآية فورد قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بيان حكم الكفار في الآخرة، وما ينتظرهم من العقاب الأليم.

الثانية: دعوة الناس جميعاً للإقرار بالمعاد وأنه حق.

الثالثة: التذكير بالنار وشدة العذاب فيها، ولزوم أخذ الحائطة ليوم الحساب بالتعجيل بالتوبة.

---

(١) سورة آل عمران ١٠٢.

(٢)الآية ١٥٩.

الرابعة: حصر النجاة من لعنة الله والملائكة والناس بالتوبة والصلاح.

الخامسة: تلعن الملائكة والناس الذين يلعنهم الله.

السادسة: تتضمن الآية رفع الجهالة والغرر بتعيين الذين تنزل بهم اللعنة وهم الكفار الذين يموتون على الكفر والضلالة.

السابعة: دعوة الناس لنبذ الكفر ومفاهيم الضلالة، وحثهم على دخول الإسلام.

إفاضات الآية

يأتي الإنذار في القرآن ليكون دعوة للهداية وجذبة إلى طاعة الله عز وجل إذ لا واسطة بين الإيمان والكفر، فتتضمن الآية الإخبار عن أقسام من الكفار:

الأول: الذين ماتوا قبل نزول هذه الآية ولم يختاروا التوبة.

الثاني: الذين يموتون على الكفر والضلالة بعد نزول هذه الآية وإلى يوم القيامة.

الثالث: الكفار الذين هم في الحياة الدنيا ويسمعون هذه الآية أو الآيات الأخرى والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن معاني الرحمة واللطف الإلهي في الآية أن القسم الثالث أعلاه في طول الثاني، فتحذر الآية الكافر في حياته وتخبره بأنه سيكون من أهل النار وتحيط به اللعنة المطلقة إن أصر على الإقامة على الكفر والضلالة قال تعالى﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾[1].

ومن إعجاز القرآن أن كل آية منه تقريب إلى الإيمان، وموعظة تبعد الإنسان عن منازل الكفر، سواء كانت بشارة أو إنذاراً، وعداً أو وعيداً،

(1) سورة إبراهيم ٥٢.

ومنها هذه الآية التي جاءت باللعنة والطرد من رحمة الله للكفار بعد موتهم، وبما يجعل النفوس تنفر من الكفر وتخشى مصاحبته إلى حين المنية والأجل.

ومن فضل الله عز وجل أن جعل باب التوبة مفتوحاً إلى حين الوفاة، لتكون هذه الآية حاضرة في الوجود الذهني تلح على الكافر متحداً ومتعدداً بالتوبة والإنابة، وقد يجد الكافر الأنس والألفة مع أصحابه من الكفار وينقاد إلى كبرائهم، والملأ منهم، وبعد موتهم يزول سلطانهم عن قلبه، وتبقى هذه الآية تخبره عن حالهم وما لهم من العذاب الأليم فتنفر نفسه من مفاهيم الكفر، ويكره إجتماعه مع أهله في الآخرة، ويرجو السلامة والأمن مما أصابهم، ويدرك وجوب الإيمان والتسليم بالعبودية لله عز وجل، وهو المطلوب، وفيه تفقه وهداية في الدنيا والآخرة.

الآية لطف

جاءت الآية لبيان القبح الذاتي للكفر وسوء عواقبه في الآخرة وهذا البيان لطف بالناس جميعاً، إذ يبعث السكينة في نفوس المسلمين لإختيارهم الإسلام، ونجاتهم من الكفر وما يصاحبه من اللعنة والطرد من رحمة الله، وليس من شيء في الوجود أهم من الفوز برحمة الله والإستعانة بها، والنهل من معانيها القدسية وإفاضاتها.

وتدل هذه الآية في مفهومها على أن الرحمة قريبة من المسلمين قال تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [1]، وتبين التمايز والتباين بين المؤمنين والكفار في هذا الباب والحاجات التي تترشح عنه في أمور الدين والدنيا إذ يحتاج الفرد والجماعة رحمة الله في كل آن وزمان.

---

(١)سورة الأعراف ١٥٦.

وبيان قبح الكفر لطف بالكفار، وتنبيه سماوي متجدد للزوم تركه وطلب السبل التي تنجي منه، وتبعد الإنسان عن أسباب الطرد من رحمة الله، والآية مناسبة للتفقه في الدين وإدراك الناس لوظائفهم العبادية ولزوم الإيمان بالله عز وجل والتصديق بالأنبياء والكتب السماوية النازلة من عنده سبحانه.

ومن اللطف الإلهي في الآية أنها تخبر عن أمر واقع ولا بد منه، مما يستلزم أخذ الحائطة والحذر منه وإجتناب مقدماته، وتدل الآية على أن الدنيا دار إمتحان وإختبار وأن العقاب الذي ينزل بالإنسان إنما بإختياره.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بالحرف المشبه بالفعل(ان) ليكون إسمها الذين كفروا وماتوا على الكفر مما يدل على أن الآية من آيات الإنذار والوعيد، وجاءت بصيغة الجمع في دلالة على كثرة الذين يموتون على الكفر وأن الله عز وجل غني عنهم، وأنهم لم يضروا المسلمين في إيمانهم وأدائهم للعبادات، لقد أصبح الإسلام في المدينة قوياً عزيزاً، فجاءت آيات الإنذار لتوبيخ الكفار من غير خوف أو خشية منهم، فهذه الآية تذمهم وتخبر عن لعن وشتم الناس لمن يموت منهم على الكفر، وتذم الآية آباء الكفار الذين غادروا الدنيا على الكفر وتدعوا إلى لعنهم والدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله.

لقد جاءت الآية قبل السابقة بنزول لعنة الله واللاعنين على الذين يكتمون البينات والكتمان أخص من الكفر ومصداق من مصاديقه، ولكن هذه الآية قيدت بنزول اللعنة بالكفر على موتهم على الكفر، فهل تكون اللعنة على الكفار معلقة إلى حين وفاتهم ومغادرتهم الدنيا الجواب لا، من وجوه:

الأول: جاءت الآية للإخبار عن بقاء وإتصال اللعنة على الكفار حتى بعد موتهم.

الثاني: تدل الآية في مفهومها على أن التائبين من الكفر غير مشمولين باللعنة بل هم من ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1].

الثالث: في الآية إخبار عن مواطن الحساب في الآخرة وقوانين العقاب فيه.

الرابع: جاءت الآية لتوكيد حقيقة أن الناس في الدنيا يذمون ويلعنون الذين ماتوا على الكفر.

الخامس: الآية من الرحمة الإلهية بالكفار وعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، إذ تدعو الآية الكفار إلى التدارك والتوبة والإنابة.

السادس: جاءت الآية باللعنة على الكفار وعلى الذين يخفون البينات والبشارات، وعلى الظالمين كما في قوله تعالى ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3]، وتأتي اللعنة على ذنوب ومعاصي شخصية كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[4].

وجاءت الآية محل البحث لبيان قانون ثابت في الإرادة التكوينية وهو حجب رحمة الله عن الذين يموتون على الكفر، وفيه دعوة للناس إلى الإبتعاد عن سننهم وأفعالهم القبيحة، وترك آثار الكفار المذمومة، وحث أبنائهم على عدم الإقتداء بهم أو محاكاتهم في الكفر والضلالة، وجذبهم إلى

(١)سورة النحل ٣٢.
(٢)سورة الأنبياء ١٠٧.
(٣)سورة هود ١٨.
(٤)سورة النور ٢٣.

الإسلام والتنزه مما كان عليه آباؤهم من مفاهيم الكفر والجحود، ومع إتحاد موضوع الآية وأن المقصود بالتوبيخ والتبكيت هم الذين يموتون على الكفر فقد ذكرت الآية ثلاثة أفراد من اللعنة هي:

الأول: لعنة الله عز وجل على هؤلاء الكفار وطردهم من رحمته، وفيه بعث لليأس في نفوس الكفار من رحمة الله في الآخرة.

الثاني: لعنة الملائكة، وملاقاتهم للكفار عند الموت وما بعده بالسخط وأنواع العذاب، قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾[1].

الثالث: بغض ونفرة الناس جميعاً من الذين يموتون على الكفر، والدعاء عليهم والشماتة بهم لما يلقونه من عقوبة على سوء إختيارهم وفعلهم.

ومن الإعجاز في الآية مجيء لفظ (أجمعين) والذي يفيد التأكيد، وهو سور الموجبة الكلية الذي يمنع الإبهام وإحتمال التخصيص والإستثناء، فيدخل الكفار ذاتهم في لعن أصحابهم، قال تعالى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾[2].

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: ذم الذين كفروا.

الثانية: دعوة الكفار للتوبة.

---

(١)سورة محمد ٢٧.

(٢)سورة العنكبوت ٢٥.

الثالثة: إستحضار الإنسان للموت، وتذكره، وإدراك لزوم الإستعداد له بالإيمان والعمل الصالح.

الرابعة: توكيد حقيقة المعاد، ورجوع الناس إلى الله والوقوف بين يديه للحساب، وجاء قبل آيات قول المسلمين عند المصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[(١)].

الخامسة: تقسيم الناس تقسيماً إستقرائياً بلحاظ الملة والعقيدة ساعة الموت إلى قسمين:

الأول: المؤمنون.

الثاني: الكفار.

السادسة: بيان غضب الله على الذين يموتون وهم كفار، وعدم إتعاظهم من الآيات الكونية والمعجزات التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات القرآن التي هي دعوة للهداية والإيمان.

السابعة: تدل الآية على قيام الحجة على الكفار في الحياة الدنيا، وأن آيات التبليغ والإنذار التي وصلتهم كافية لنبذهم الكفر، ودخولهم الإسلام قال تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[(٢)].

الثامنة: بيان غضب أهل السماء على الكفار الذين يغادرون الدنيا من غير توبة، وهذا الغضب من عمومات قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[(٣)]، عندما رد الله عز وجل إستفهام الملائكة في جعل آدم خليفة في

(١)سورة البقرة ١٥٦.

(٢)سورة الأنعام ١٤٩.

(٣)سورة البقرة ٣٠.

الأرض كما ورد حكاية عنهم في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(١)، فمن علمه تعالى أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يأتي بالآيات التي تنذر الكفار وتزجر عن الكفر، وتحذر من الموت عليه، وأن الملائكة يلعنون الكفار الذين يستحقون العذاب، لبيان حقيقة وهي أن الخلافة في الأرض ليست دائمة بل هي إمتحان وإختبار وأن الذي يفسد في الأرض، ويختار الكفر يكون خالداً في النار.

التاسعة: في الآية إنذار متعدد، وهو على وجوه:

الأول: إنذار وزجر الكفار من الإقامة على الكفر والجحود.

الثاني: الوعيد من الموت على الكفر، والترغيب بالتوبة.

الثالث: الإنذار من محاكاة الكفار والآباء الذين ماتوا على الكفر والضلالة.

العاشرة: عندما يموت أحد الكفار فأنهم ييتئسون لسوء منقلبه، ولما ينتظرهم من الخلود في اللعنة والعذاب، وهو مناسبة كريمة لبعثهم وجذبهم إلى مقامات التوبة والإنابة.

الحادية عشرة: من مصاديق لعن الكفار بعضهم بعضاً اللوم والذم المتبادل بينهم.

التفسير

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾

فيه مسائل:

الأولى : تبقى آيات القرآن صوتاً يملأ الآفاق وينفذ إلى النفوس أما بالإصغاء والإستماع إليها طوعاً وسماعها اتفاقاً وانطباقاً او بتبليغها ووصولها

(١)سورة البقرة ٣٠.

الى أسماع الكافرين قهراً.

الثانية : جاءت الآية لاقامة الحجة لله عز وجل ولتكون مناسبة كريمة لإنتفاع بعضهم.

الثالثة : الآية جزء من فلسفة الوعد والوعيد التي تتغشى الناس كل أيام الحياة الدنيا وتمثل جزء من الإرادة التكوينية والتشريعية معاً، وتصل ولو بمراتب وكيفيات متفاوتة إلى كل إنسان، وهي رحمة ومدد للمؤمن، ووعيد وتبكيت وبينة على الكافر.

الرابعة : إن الإنفكاك والفصل بين الكفر وبعض الناس وإتجاههم إلى الإيمان من الممكنات وليس من الممتنع حتى بالنسبة لأشد الناس عتواً وكفراً.

الخامسة : يمكن إعتبار الآية إنذاراً وتخويفاً وتحذيراً مثلما هي بيان لحكم سماوي قطعي.

السادسة : إن موضوع الآية مركب ولها مفهوم بالإضافة إلى المنطوق وفيها قاعدة كلية وسنة ثابتة في الأرض ويوم القيامة.

السابعة : من إعجاز الآية ان الحكم لا يتوقف على التلبس بحال الكفر بل قيدته باستدامته لحين الوفاة الأمر الذي يدل على إمكان تفسير اللعنة بالعذاب في نار جهنم.

الثامنة : إطلاق الآية يدل على عدم إنحصار موضوعها بالموجود فتشمل المعدوم بطرفيه، الوعيد للذي مات على الكفر، والإنذار للذي سيولد من أبناء الكافرين بالواسطة أي أنها تخويف وتحذير للموجود من الناس على نحو مركب ومتعدد، فهي تخبره بأنك وأباك وإبنك مشمولون بمضمون هذه الآية وان إيمانك سبيل إلى نجاتك ونجاة اولادك وان نزلوا وقد تصيب الرحمة الأب ايضاً بفضله تعالى وبسبب إسلام الإبن، فصحيح أن الأصوليين لا يقولون بالإستصحاب القهقري بمعنى الأثر الرجعي للحكم إلا أن رحمته تعالى أوسع وأكبر من أن تحيط بها قوانين البشر وعقولهم.

التاسعة : ما داموا في الدنيا فقد تدركهم التوبة والهداية، وهذا من وظائف هذه الآية فانها في مفهومها حث على الإيمان.

العاشرة : الأرجح أن اللعنة مصاحبة لهم في الدنيا على نحو متزلزل من غير منع لأضرارها، وعند الموت تستقر اللعنة والطرد من رحمة الله لإنقطاع أوان التوبة وفوات وقت التدارك.

الحادية عشرة : تظهر اللعنة على الكفار في الدنيا بمظاهر شتى وبما يسلب التوفيق والتنعم الحقيقي في ملذاتها.

الثانية عشرة : ذكر حال الكفر والموت عليه في بداية الآية كموضوع مستقل إظهار وبيان لأهمية الأمر وخطورة إستيعاب الكفر لحال الحياة ولحين الموت كسبب لمضاعفة العذاب وثبوت إستحقاقه.

الثالثة عشرة : إعلان المكلف التوبة والإسلام عند الموت يترتب عليه الأثر ولن يضره شيئاً بفضله تعالى، والبقاء على الكفر يعرضه لأشد العقاب واللعنة الدائمة.

الرابعة عشرة : في الآية خطاب لأولي الألباب وأهل البصائر للتدبر والسعي في سبل ومسالك النجاة من العذاب الأخروي.

الخامسة عشرة : أيام الحياة الدنيا كلها مناسبة للتوبة ونبذ الكفر وإجتناب اللعنة والغضب الإلهي.

السادسة عشرة : تظهر الآية فائدة من أهم فوائد الحياة الدنيا باستثمارها للتدارك والندم والتوبة وبذا يصدق عليها أنها مزرعة الآخرة.

السابعة عشرة : موضوع الآية ونعت الكفر أعم من أن ينحصر بأولئك الذين يكتمون الآيات وبشارات النبوة، وهذا من إعجاز القرآن وأسرار بقائه نابضاً بالحياة مستوعباً لما يجري على الأرض من الأحداث والوقائع، وإنطباق آياته على القضايا الشخصية والنوعية وإن اختلفت المذاهب وتباينت الإعتبارات الزائدة.

الثامنة عشرة : في الآية قاعدة كلية تتضمن الوعيد والإنذار والتخويف الصريح الخالي من الإحتمال المغاير.

التاسعة عشرة : ذكر هذه القاعدة الكلية ذات الأهمية في مسألة كتمان الآيات تدل على موضوعيتها وكبير أثرها في حال الكفر ومواطنه كسبب وعلة لبقاء الكثيرين على الكفر، فقد يؤثم شخص على بقاء وثني على كفره لأنه إمتنع عن دخول الإسلام إتباعاً له ولإغوائه وإرتكازاً على ما يراه.

العشرون : ورود الآية بصيغة الجمع توكيد لدحرهم وقهرهم وخيبتهم، وإشارة إلى عدم قلتهم، وإن كثرتهم لم تنفعهم.

الحادية والعشرون : في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إخبار عن إختيارهم الكفر طواعية، وأنهم ليسوا قاصرين أو معذورين بل مقصرين عامدين.

الثانية والعشرون : تظهر الرأفة والإمهال الإلهي باجتماع الكفر والموت عليه لثبوت اللعنة والطرد من رحمة الله وكأن إستقرار اللعنة أمر معلق على وفاة العبد كافراً.

الثالثة والعشرون : يمكن أن نستقرأ قاعدة في اللطف الإلهي وهي أن الوعيد القرآني يتضمن الرحمة والحث على التدارك والتوبة بتقييد إستقرار اللعنة بالموت على الكفر، فما دام الكافر حياً مكلفاً فالقرآن يدعوه للإيمان والنجاة من العذاب بالإقرار بآيات النبوة.

الرابعة والعشرون : الآية مدرسة في فلسفة التوبة وإطلاق تشريعها وعدم تخصيصها.

الخامسة والعشرون : تحث الآية على التوبة العاجلة لإجتناب إستقرار اللعنة وإستحقاق العذاب بالموت، وهو زائر يتوقع حضوره في أي وقت.

السادسة والعشرون : الظاهر أن الواو في ﴿ وَمَاتُوا ﴾ للمعية والتي تنقسم إلى عاطفة وغير عاطفة، وهي هنا من القسم الأول، فأصل اللعنة غير مقيدة بموتهم على الكفر بل تشملهم وهم في الحياة الدنيا متلبسين بالكفر.

قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾

الأولى : أي يطردهم الله من رحمته.

الثانية : يكونون عرضة لأشد العذاب للملازمة بين الكفر وإستحقاق العقاب الأليم.

الثالثة : جاءت الآية على نحو الإخبار والقطع.

الرابعة : إسم الإشارة (اولئك) يراد منه هنا التحقير والبعد عن رحمة الله، والإنحدار والتردي في النار، والبعد واللعنة عنوان التحقير والإنحطاط عن درجة المخاطبين من المسلمين وقد تقدم قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾[١] التي بينت سوء إختيار الكفار وكانت تعريضاً بهم وإنذاراً.

وجاءت هذه الآية لتبين عاقبة إختيار الضلالة وأنهم لم يلتفتوا إلى التمييز بين الحق والباطل إلا برؤية العذاب الأليم.

ترى لماذا لم تقل (أن الذين ماتوا وهم كفار) والجواب من وجوه:

الأول: إرادة أمرين أحدهما في طول الآخر وهما الإستدامة والبقاء على الكفر، والموت عليه.

الثاني: توكيد بقاء باب التوبة مفتوحاً وهو الذي دلت عليه الآية السابقة منطوقاً ومفهوماً بقوله تعالى﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

الثالث: التذكير بالتوبة ولزوم التخلص من الكفر والضلالة في كل آن وزمان.

الرابع: بيان حقيقة وهي التفكيك بين أمرين:

---

(١) سورة البقرة ١٦.

(٢)الآية ١٦٠.

الأول: إختيار الكفر.

الثاني: البقاء على الكفر.

وهذا التفكيك عون للناس للتوبة وتقريب لمنازل الطاعة والصلاح.

الخامس: تخاطب هذه الآية العقول، وتدعو الناس للتوبة والإنابة، والإستعداد للموت ودنو الأجل بالتوبة.

قوله تعالى ﴿وَالْمَلاَئِكَةِ﴾

الأولى : هل الألف واللام في الملائكة للجنس والإستغراق، أم أنها للعهد وتخص الملائكة الذين يحضرون الموت كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾[1]، الظاهر هو الأول، الأول، ويحتمل عودة (أجمعين) إلى الملائكة أيضاً أو أنها تخص جماعة من الملائكة وظيفتهم لعن الكفار او تتعلق بالملائكة الكاتبين، الظاهر هو إعتبار أصالة الإطلاق وحمل الكلام على المعنى الأعم أيضاً وأن الألف والام للإستغراق.

الثانية : لإخلاص الملائكة وشدة قربهم من العرش ولمعرفتهم بقيام الحجة على الإنسان في لزوم العبادة يلعنون كل من يموت من الكفار كما انهم يصلون على الذين آمنوا، ولعنة الملائكة على الكفار توكيد لإستحقاقهم لها ولعل في هذه الآية بياناً وإظهاراً لقيام بعض الملائكة بالإستفهام ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا... ﴾[2] فانها تتضمن التفصيل بين الإيمان والكفر والإذن للملائكة بلعن المفسدين من الناس.

بحث كلامي

---

(1) سورة الأنفال ٥٠.

(2) سورة البقرة ٣٠.

إن لعنة الملائكة أشد وقعاً على الكافرين من لعنة الناس كماً وكيفاً وأثراً وزماناً فالملك لا يموت كالإنسان ولا ينشغل بأمور الدنيا وحاجات النفس البهيمية والملائكة يتصفون بالإنقطاع التام للعبادة من غير أن يتسرب إلى نفوسهم ملل من المواظبة على التسبيح والإنشغال التام بالدعاء، ولا يصيبهم تعب أو كسل أو شك أو قنوط.

ولعنتهم للكافرين من تعظيم الله وعبادته وفي أدعية الصحيفة السجادية: " ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات".

بالإضافة إلى كثرة عددهم فلا يعلم كثرتهم إلا الله عز وجل وكأنهم يتعاهدون قيام السماوات والارض بمواصلة العبادة والتسبيح من غير فترة أو تراخ.

وعن جابر بن عبد الله قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم، أو ملك ساجد، أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: سبحانك! ما عبدناك حَقَّ عبادتك، إلا أنا لم نشرك بك شيئًا"[1].

ولعنة الملائكة لا تنحصر بزمان دون زمان، ولا بحال دون آخر، بل هي مستديمة وتتغشى الأحوال المختلفة بحكم تعدد وشمول وظائف الملائكة وتوليهم كتابة أعمال العباد والإشراف على حسابهم.

وتبين الآية إتصال اللعنة في عالم البرزخ فقد يموت الكافر ومن عاصره من المؤمنين الذين كان يؤذيهم، وتنساه الأجيال اللاحقة أو أنها لا تعرفه كما هو الغالب ولكن الملائكة لا ينسونه ورأوا سيئاته وكتبوها وعرفوا الصلة والرابطة بينها وبين سيئات الذين جاءوا من بعده، فيجدد الملائكة لعنه.

قوله تعالى ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

---

(1) تفسير إبن كثير ٢٧٠/٨.

توكيد بقيام الناس جميعاً بلعن الكافرين، ولعن الناس: على نحو الدعاء والسخط، وفي الآية وجوه:

الأولى : يفيد التوكيد قيام كل إنسان وإن كان هو نفسه كافراً بلعن من يموت على الكفر.

الثانية : الظاهر أن المراد بالناس أعم من أهل الإيمان، فيشمل الذين ورد ذمهم في القرآن بانهم ﴿كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [1]، إلا أن حال الغفلة والجحود لا تمنع من صدور اللعنة منهم للكافرين ولو بعد حين.

الثالثة : تأتي اللعنة من المؤمنين، أما الكفار فيلعن اللاحق منهم السابق.

الرابعة : إن اللعنة يوم القيامة بعد ثبوت الحق وظهور الآيات قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾[2] والآية تؤكد مطاردة اللعنة للكافرين حتى في يوم القيامة مما يعني أنهم خارجون عن موضوع الرحمة آنذاك بالتخصص.

الخامسة : إن الإنسان في تكوينه وخلقته وسنخيته مجبول على لعن الكافرين.

السادسة : إن الله عز وجل أخذ العهد من الناس بلعن الكافرين.

السابعة: الظاهر أن في الآية إذناً بلعن من مات كافراً، وقد ورد قوله تعالى ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾[3] وعدم الصلاة أخص من اللعن زماناً وموضوع.

الثامنة : إن اللعن يصدر منهم طوعاً وانطباقاً لأن وظيفة الإنسان في الأصل هي العبادة.

---

(١)سورة الأعراف ١٧٩.

(٢) سورة العنكبوت ٢٥.

(٣) سورة التوبة ٨٤.

التاسعة : تحقق طبيعي اللعن ومسماه، فالكافر نفسه يعلم في قرارة نفسه إستحقاقه اللعن ولا يمنع من إجتماع عدة وجوه وصيغ للعن.

العاشرة : الآية إنذار وتوبيخ وإخبار عن إنعدام الشفاعة بالنسبة للكفار، فالكل يلعنهم وساخط عليهم لظلمهم أنفسهم ولغيرهم ممن يتبعهم أو يوافقهم ومن ساهموا في إضلاله وجعلوه لا يستوحش من دروب الكفر ما داموا معه إنتماء أو تأريخاً أو فكراً او صحبة شخصية.

قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ الآية ١٦٢

الإعراب واللغة

خالدين: حال من الضمير هم في ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ ﴾.

فيها: جار ومجرور، والظاهر أن الضمير يعود إلى النار من غير أن يتعارض مع إرادة اللعنة وفيه نكتة وهي أن آثار اللعنة متصلة ومستمرة.

لا يخفف: لا: نافية، يخفف: فعل مضارع مبني للمجهول، عنهم: جار

ومجرور، العذاب: نائب فاعل.

ولا هم ينظرون: الواو: حرف عطف، لا: نافية، هم: مبتدأ، ينظرون: فعل مضارع مبني للمجهول، الواو: نائب فاعل.

الخلود: التأبيد والدوام، ونسب إلى الأشاعرة: أن المراد بالخلود في النار هو المكث الطويل استقراء من قوله تعالى: أخلد إلى الأرض)، أي مال وانقطع إلى الدنيا وآثرها وسكن لها ولم ينظر إلى ما بعدها، ولكن الخلود بهذا المعنى مبين بالقرينة الدالة على إنقطاع هذا الخلود قهراً بالموت.

وكذا يقال أخلد أي أقام، والمخلد من الرجال: المسن الذي لم يصبغ شعره البياض والشيب. ويطلق أيضاً على الرجل الذي لم تسقط أسنانه من الهرم.

وفي حديث علي عليه السلام في ذم الدنيا: "من دان لها وأخلد إليها، أي ركن ومال إليها.

في سياق الآيات

الأول : ذكر إتصال العذاب للذين ماتوا وهم كفار.

الثاني : البيان التفصيلي للوعيد.

الثالث : الإخبار عن شدة العذاب ودوامه.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين آية (إستعينوا بالصبر) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه خطاباً للمسلمين يتضمن معاني الإكرام والإرشاد، أما هذه الآية فجاءت بصيغة الجملة الخبرية وتفيد الذم والوعيد

(١)الآية ١٥٣.

للكفار الذين يغادرون الدنيا وهم على ملة الكفر والضلالة.

الثانية: دعوة المسلمين للصبر على ما يلاقون من أذى الكفار، لأن بيان سوء عاقبتهم شفاء لصدور المسلمين.

الثالثة: إستعانة المسلمين بالصبر وأداؤهم الصلاة دعوة للكفار للتوبة والإنابة، وهو من عمومات قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1].

الرابعة: بينما أخبرت هذه الآية عن خلود الكفار في النار فإن الآية أعلاه جاءت بالإخبار بأن الله مع المسلمين في الدنيا والآخرة لصبرهم وأدائهم الفرائض، وفيه بشارة دخول المسلمين الجنة، وتأكيد التباين بينهم وبين الكفار في منازل الآخرة.

الخامسة: ترغيب الكفار بالتحلي بالصبر، وهو مقدمة ومناسبة للتدبر بمعجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودخول الإسلام، مثلما هو سلاح بيد المسلمين في أمور الدين والدنيا.

الثاني: الصلة بين آية (بل أحياء) [2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: جاءت الآية أعلاه تأديباً وإرشاداً للمسلمين، أما هذه الآية فتضمنت الوعيد للكافرين.

الثانية: في الآية أعلاه بشارة للمسلمين عامة بالحياة الدائمة في دار الآخرة للشهداء، بينما جاءت هذه الآية بالإخبار عن خلود الكفار في النار.

الثالثة: يؤدي الجمع بين الآيتين إلى كيفية نفسانية على وجوه:

الأول: ترغيب الناس بالإسلام.

الثاني: بعث الشوق في نفوس المسلمين للقتال في سبيل الله.

الثالث: النفرة العامة من الكفر لسوء عاقبته.

---

(١)سورة سبأ ٢٨.

(٢)الآية ١٥٤.

الرابعة: زجر الناس عن توجيه اللوم للمسلم الذي يجاهد ويقتل في سبيل الله، وغبطته لأنه إشترى السعادة الأبدية وأمن من العذاب الأخروي.

الخامسة: كل من مضامين الآيتين من علم الغيب الذي أطلع الله عز وجل رسوله عليه، وجعله كنزاً وضياء عند المسلمين يميزون به طريق الهدى عن طريق الضلالة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، لما فيه من دعوة الناس جميعاً إلى الإسلام ببيان حال الناس في في الآخرة، وتوكيد قانون تعيين مقاماتهم فيها بلحاظ أعمالهم في الدنيا.

الثالث: الصلة بين آية (ولنبلونكم)[2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: في البلاء الذي يتعرض له المسلمون الأجر والثواب.

الثانية: يتلقى المسلمون صنوف الإبتلاء بالصبر والرضا، وفي التنزيل ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾[3].

الثالثة: جاءت خاتمة الآية أعلاه بالبشارة للصابرين، وتضمنت هذه الآية الوعيد للكفار والجاحدين.

الرابعة: يصيب الإبتلاء المسلمين في الحياة الدنيا ليكون صبرهم فيه واقية لهم يوم القيامة، أما الكفار فانهم يصابون بالإبتلاء من غير أجر أو ثواب، وينتظرهم العذاب يوم القيامة.

إعجاز الآية

في الآية مسائل:

الأولى : لملازمة بين اللعنة المطلقة والخلود في النار.

---

(١)سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢)الآية ١٥٥.

(٣)سورة التوبة ٥١.

الثانية : تفتح الآية آفاق الدراسة لوجود الشبه والصلة بين اللعنة والخلود في النار.

الثالثة : وضوح الوعيد وإقترابه، فالآية تجعله واقعاً تعليقياً.

الرابعة : تقريب الكليات العقلية ووصفها بلغة المحسوس لإقامة الحجة وعموم الإعتبار.

الخامسة : منع الإعتذار يومئذ كما لو إدعوا أنهم لم يعلموا بشدة العذاب.

السادسة : في الآية رد على أولئك الذين قالوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾[1].

إبتدأت الآية(بحال) متعلق بالآية السابقة ترى لماذا لم يأتي الحال من ضمن الآية السابقة، الجواب على وجوه:

الأول: بيان أهمية موضوع خلود الكفار في نار جهنم.

الثاني: التوكيد على العموم الإستغراقي لما ينزل بالكفار من العذاب.

الثالث: دعوة الناس للإقرار باليوم الآخر وما فيه من أهوال الحساب، ولزوم الحذر والحيطة منه، وتتجلى الحيطة بإجتناب مفاهيم الكفر والضلالة.

الرابع: بعث الفزع والخوف في قلوب الكفار بجعل آية مستقلة لموضوع خلودهم في النار.

الخامس: حث الناس على التوبة والإنابة للسلامة من عذاب النار، والخلود فيها، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

ويمكن تسمية هذه الآية آية (**خالدين فيها**) ولم يرد هذا اللفظ في أول آية قرآنية إلا هذه الآية.

الآية سلاح

---

(1) سورة آل عمران ٢٤.

(2) سورة البقرة ٢٢٢.

الأولى : تساهم الآية في التخفيف عن المسلمين لأنها تطلعهم على حال الكفار يوم القيامة.

الثانية : إنها عون ووسيلة للتقليل من أثر الأذى الذي يتلقونه من الكفار.

الثالثة : تقذف الآية في قلوب الكفار الرعب والخوف واليأس.

الرابعة : تبعث الآية الطمأنينة في نفس المسلم للتوفيق بإختيار الإسلام والنجاة من العذاب الأليم.

هذه الآية برزخ نازل من السماء لمنع الكفار من الإقامة على الكفر ومغادرة الدنيا عليه، وإن مات أحدهم وهو متلبس بالكفر ومن غير أن يتوب إلى الله يصيب الكفار الفزع والخوف من ذات العاقبة، لقد نزل الملائكة مدداً للمؤمنين في بدر وأحد وحنين وغيرها من معارك الإسلام الأولى وإنهزم الكفار، ونجا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من كيدهم وبطشهم ليرجع وأصحابه إلى المدينة بلواء النصر والغنيمة قال تعالى﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[1].□

وجاءت هذه الآية مدداً سماوياً متجدداً وعلى نحو الإطلاق في أفراد الزمان الطولية، والمكان العرضية، وسلاحاً لنفرة الناس ومنهم الكفار من منازل الكفر والضلالة.

ومضامين هذه الآية الكريمة مناسبة لتفقه المسلمين في الدين ومعرفة أحوال الآخرة وأهوال عالم الحساب، وما يلقاه أعداؤهم يوم القيامة من العذاب الأليم، ومنها التذكير الدائم للناس بلزوم الإستعداد للموت بالهداية والإيمان، وإجتناب الموت على الكفر والضلالة.

وتأتي إنذارات القرآن لزجر الناس عن المعاصي، وتقريبهم إلى مقامات الإيمان وسنن طاعة الله ورسوله، والإنتفاع المثل من آنات الزمان وضروب

---

(١) سورة آل عمران ١٥١.

العبادة فيها، كما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقّت أبواب النيران وصفدت الشياطين.

مفهوم الآية

الإخبار عما يتعرض له الكافرون من شديد العذاب بسبب اخفائهم الآيات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من سبل تثبيت معالم التوحيد في الأرض وهو حجة على الكافرين والجاحدين ودعوة لهم للتوبة والإنابة والإستدراك لذا ترى الإخبار القرآني يتداخل مع الحث على التوبة والإصلاح ونبذ الكفر وتبيان الحقائق وتسليم ودائع الأنبياء العلمية والبشارات التي دلت على بزوغ شمس الإسلام، مع انه حتمي الحدوث سواء اعلنت او اخفيت للإعجاز الذاتي للقرآن والآيات التي جاء بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتدل شدة العذاب والخلود في النار على ان الكفر بالله وبالرسالات اكبر الذنوب واكثرها ضرراً على الذات والغير.

وفي الآية مسائل:

الأولى: بعث اليأس في قلوب الكفار من الخروج من النار، إذ تخبر الآية عن خلودهم فيها، قال تعالى﴿فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

الثانية: بقاء التمايز والتباين بين المؤمنين والكفار إلى الأبد، إذ ينقطع المؤمنون إلى ذكر الله وإقامة الفرائض في الدنيا، وفي الآخرة يفوزون بالنعيم الدائم، أما الكفار فأنهم يصرون على الجحود والكفر، ويقيمون في العذاب الأليم ولا يغادرونه أبداً.

---

(1) سورة النازعات ٣٧-٣٩.

الثالثة: الكشف عن علم من علوم الغيب وهو أن العذاب الذي ينال الكفار في النار من الكلي المتواطئ الذي يكون على مرتبة واحدة في شدته وأن تقادمت السنون والأحقاب، ويحتمل أمرين:

الأول: عذاب جميع الكفار على مرتبة واحدة لذكر الآية السابقة قيد الموت على الكفر.

الثاني: التباين بين عذاب الكفار من جهة كيفيته وكمه وشدة وطأته وأن المراد من إتحاد المرتبة هو عذاب الفرد الواحد منهم.

والصحيح هو الثاني للإختلاف في إستحقاق ومراتب العذاب بحسب درجات الظلم والفجور وتدل عليه آيات عديدة منها ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ﴾ (1).

ولم تقل الآية في الدرجة الأسفل من النار، لأن العرب تطلق لفظ درك على الإنحطاط والهبوط وتطلق لفظ درج على إرتقى وصعد علواً وعن عبد الله بن مسعود في الآية أعلاه قال: يُجْعَلُونَ فِي تَوَابِيتَ مِنْ نَارٍ، فَتُطْبَقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ النَّارِ)(2).

وعن حطان بن عبد الله الرقاشي قال: سمعت علياً يقول: هل تدرون كيف أبواب النار؟ قالوا: كنحو هذه الأبواب، قال: لا ولكن هكذا ، فوصف بعضها فوق بعض(3).

أما القيد الذي ذكرته الآية السابقة فأنه للدلالة على شمولهم بلعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولبيان تغشيهم بالعذاب الأليم، فمع التباين في

(1)سورة النساء ١٤٥.

(2)تفسير إبن أبي حاتم ٤/٤١٢.

(3) تفسير الطبري ١٧/١٠٦.

مراتب العذاب بين الكفار كالمتبوعين والتابعين منهم فإن كل فرد منه هو عذاب أليم قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾[1].

الرابعة: إنعدام الفترة والإمهال للكفار، وفيه إنذار إضافي لهم، ودعوة للتدراك والتوبة والإنابة.

إفاضات الآية

لقد جعل الله كل آية من آيات القرآن شفاء لصدور المسلمين، ووسيلة لزيادة إيمانهم، ومنها هذه الآية التي تتضمن الوعيد لأهل النار وتعينهم وهم الذين يموتون على الكفر والضلالة ولا يغادرون منازلها، كما ذكرت الآية السابقة.

وتبعث الآية الفزع من نار جهنم، وتجعل القارئ والسامع لها يحس بلهيب النار، ويشعر بإنعدام المهرب من الخلود إلا بالإسلام والتخلص من براثن الكفر، وتدفع الآية شرور الأرواح الظلمانية الخبيثة، والكدورات التي تكون مقدمة للكفر والتي تترشح عنه.

لقد جاء القرآن لتخليص الناس من سجن الكفر والضلالة وجذبهم لعالم النور والغبطة والسعادة الدائمة والفوز العظيم.

الآية لطف

تبعث الآية النفرة في النفوس من الكفر والإقامة عليه لسوء عاقبته، وتجعل الكفار منشغلين بأنفسهم، وفي هذا الإنشغال لطف من وجوه:

الأول: إنه لطف بالمسلمين من جهات:

الأولى: إمتناع الكفار عن التعدي عليهم.

الثانية: التخفيف عن المسلمين بضعف وإنشغال عدوهم.

الثالثة: بعث المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله.

الرابعة: تفقه المسلمين في أحكام الشريعة.

---

[1] سورة البقرة ١٦٦.

الخامسة: تعاهد المسلمين لمعاني الوحدة بينهم والتمسك بالقرآن والسنة، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، بأن ينشغل عدوهم بنفسه وظلمه لها.

الثاني: إنشغال الكفار بأنفسهم لطف بهم من جهات:

الأولى: جعلهم عاجزين عن الإضرار بالمسلمين، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾[2].

الثانية: بعث الكفار للتدبر في حالهم وتخلفهم عن وظائفهم الشرعية.

الثالثة: حصول الفرقة والشقاق بين الكفار، قال تعالى ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[3].

الرابعة: إحاطة الكفار علماً بما ينتظرهم من سوء العاقبة سبيل للتوبة والإنابة.

الخامسة: إظهار البينات والمعجزات النبوية والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: إنشغال الكفار بأنفسهم وسوء عاقبتهم رحمة ولطف بالناس من جهات:

الأولى: إجتناب الكفار والإبتعاد عنهم، وهو من مصاديق ما ورد في الآية السابقة من لعنة الناس أجمعين على الكفار.

الثانية: النفرة من مفاهيم الكفر والضلالة.

الثالثة: الميل إلى الإسلام ومبادئه، والتدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

(٢)سورة آل عمران ١١١.

(٣)سورة الحشر ١٤.

الرابعة: إدراك التباين والتمايز بين المسلمين والكفار في العواقب وخواتيم الأمور وما يفوز به المسلمون من السعادة، والخيبة والخسارة التي تنتظر الكفار والجاحدين.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاءت الآية من ثلاثة أطراف:

الطرف الأول: الإخبار عن خلود الكفار على نحو العموم الإستغراقي في النار، وتوكيد الملازمة بين الموت على الكفر وبين دخول النار وكأن دخولها بالنسبة للموت على الكفر من المعلول الذي لا يتخلف عن علته ويحتمل الخلود في النار، من جهة الكيفية وجوهاً منها:

الأول: التباين في درجة ومرتبة العذاب.

الثاني: تخفيف العذاب عنهم.

الثالث: حصول فترات خالية من العذاب.

الرابع: إتصال العذاب وشدته.

والصحيح الوجه الأخير.

الطرف الثاني: عدم تخفيف العذاب عن الكفار، كما في الوجه الرابع أعلاه وفيه بعث للفزع والخوف في قلوب الكفار عامة، وتحذير إضافي من الموت على الكفر والجحود، وإدراك حقيقة وهي أن الكفر لا يستحق هذا العناء والأذى، وليس فيه نفع سواء في الدنيا أو في الآخرة وهو ضرر محض ودائم ويورث العذاب والحسرة.

الطرف الثالث: عدم إمهال الكفار، إذ يكون عذابهم حاضراً، ويتعذر عليهم الإعتذار ومن الآيات أن كل طرف من الآية مسألة كلامية مستقلة تدعو إلى الإسلام، وإخلاص العبادة لله عز وجل.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: بيان حال الكفار في الآخرة وما هم فيه من شدة العذاب.

الثانية: ملاحقة اللعنة للكفار في الدنيا والآخرة.

الثالثة: توكيد وجود النار في الآخرة، والتحذير منها، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(1).

الرابعة: إن الآخرة هي الحياة الأبدية الدائمة وأن أهل النار خالدون فيها.

الخامسة: توكيد حقيقة وهي أن الملك يوم القيامة لله عز وجل، ولا يستطيع الكفار جلب منفعة أو دفع سوء.

السادسة: كل طرف من أطراف الآية الثلاثة إنذار وتخويف للكفار ودعوة للهداية والصلاح.

السابعة: شفاء صدور المسلمين، والتخفيف عنهم لما يلاقونه من الكفار من الأذى إذ يتفضل الله ويخبرهم عما ينتظر أعداءهم من العذاب الأليم.

---

(1)سورة آل عمران ١٣١.

التفسير

قوله تعالى﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾

هل يعود الضمير في ﴿فِيهَا﴾ الى اللعنة أم الى النار، الجواب هو الأخير لشهرتها وقرينة الخلود وهذا لا يمنع من شمول اطلاق الآية للعنة باعتبار ان اهل النار ملعونون وان العذاب اشد انواع اللعنة الواقعية المادية، فتكون النار كالمذكورة في الآية وهو من البديع، وارادة تهويل أمرها وبقرينة آيات كثيرة تفيد خلود الكفار في النار كما في قوله تعالى ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[1] الذي تكرر في عدة آيات، وقد وردت ﴿خَالِدِينَ﴾ بصيغة الجمع تسعاً وستين مرة، منها ثمان وثلاثون مرة تتعلق بالخلود في الجنة، وثمان وعشرون تتعلق بالخلود في النار، واللعنة من مقدمات لبث الكفار في النار وتصاحبهم فيها.

ثم ان اللعنة سخط وعرض صادر من الغير، وقد يترشح الأذى منه على الملعون بالواسطة اما الخلود فهو اذى مباشر ومتصل ويعني البقاء الدائم بدليل ان ﴿فِيهَا﴾ حرف يفيد الظرفية.

واللعن سبب ومقدمة للعذاب وايجاب للعقاب ولأن ما بعدها وهو قوله تعالى ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ آية في الوعيد والإخبار ويتصف بالدقة عن استدامة كيفية ثابتة للعذاب .

وهذه الآية من آيات الإنذار وفيها أشد مضامين الوعيد والتهديد لما في الاستدامة والدوام من اعتبار وأهمية في الموضوع او الفعل، فكما ان الصدقة القليلة الراتبة الدائمة أفضل من الكثيرة الدفعية التي تحصل على نحو الإتحاد، فكذا العذاب والعقاب القليل اذا كان دائماً فهو أشد من العذاب الدفعي وان كان شديداً، فكيف الحال اذا كان دائماً في شدته، مع اليأس من انقطاعه او تخفيفه.

---

(١) سورة الزمر ٧٦.

قوله تعالى ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾

وعيد واخبار قرآني بأن العذاب في النار ليس من الكلي المشكك، بل هو من الكلي المتواطئ الذي يكون على مرتبة واحدة ويصدق على افراده على السواء من دون تباين واختلاف في الشدة والضعف، الا ان تدل النصوص على التباين في كيفيته كما في حال اصحاب الدرك الأسفل من النار.

وبالاضافة لما في منطوق الآية من التهديد والوعيد فإن مفهومها دعوة للمسلمين للثبات على الإيمان ومعرفة حال الكافرين، وعدم الافتتان بما عندهم من زينة الدنيا وأسباب القوة المؤقتة.

ومع الايجاز في الآية وقلة عدد كلماتها فانها تضمنت ثلاثة أحكام كل فرد منها مستقل عن الآخر مع اتحادها في الماهية والمكان والزمان وهي:

الأول : الخلود في النار كحكم قطعي.

الثاني : عدم تخفيف العقاب.

الثالث : إتصاله وعدم فتوره، فليس من فترة في النار.

قوله تعالى ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾

أي مع شدة العذاب فإنه متصل وليس فيه ثمة فترة أو إمهال وإن سألوا ذلك، وإنعدام الفترة لا يتعلق بأوقات العذاب المتعاقبة بل يشمل البداية أيضاً مما يلي الحساب يوم القيامة، ولعله يتعلق أيضاً بعذاب البرزخ وأن العذاب يبدأ مع دخول القبر لما ورد في بعض النصوص بأن قبر الكافر يكون كحفرة من حفر النيران.

بحث كلامي

تظهر الدراسات الفلكية الحديثة والأقمار الصناعية أسراراً تكشف عظمة أفلاك السماء والفيض الوجودي المنبسط والمترامي ولكنها تبدو صغيرة أزاء هول جهنم وعظمة خلقها، إذ جعلها الله عز وجل سجناً أخروياً لأهل الكفر

والمعاصي، وسميت جهنم لبعد قعرها، وذكر أن بين أعلاها وقعرها سبعمائة وخمساً من السنين، أي بتقدير قطعها مشياً وسيراً على الأقدام للمتوسط.

وأهل النار هم مادتها بمعاصيهم وذنوبهم كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[1] ، ليكون إستحضار السيئات والذنوب ملازماً لوصف ما تستحدثه من الآلام التي تقع على النفس الإنسانية أو الناطقة المدركة للأحكام والتي تسعى لإكرام الذات بحسن الإستجابة وطلب العلوم بالآت التصور ونيل المطالب واتباع سبيل الحكمة الذي يقود إلى الإيمان، لذا فإن الزبانية والملائكة القائمين عليها يدخلون إليها من غير ألم أو أذى، وهم منقطعون إلى الله عز وجل بالذكر والتسبيح مع الإعراض عن المجرمين.

وهل يحس الكافر بشرور جهنم في الدنيا، الجواب: نعم بآيات وبراهين وضيق وإنعدام التلذذ بنعم الدنيا، والملائكة يحصون عليه أيامه وينتظرون دنو أجله لتتنزه الأرض منه ويستحق اللعنة الأبدية.

روي "ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعداً مع أصحابه في المسجد فسمعوا هدّة عظيمة فارتاعوا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أتعرفون ما هذه الهدّة، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حجر ألقي من أعلى جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها، فكان وصوله إلى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدّة، فما فرغ من كلامه صلى الله عليه وآله وسلم إلا والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات، وكان عمره سبعين سنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر فعلم الصحابة ان هذا الحجر هو ذلك المنافق، وانه منذ خلقه الله يهوي في جهنم إلى أن بلغ عمره سبعين سنة، فلما مات حصل في قعرها".

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

---

(١) سورة الأنبياء ٩٨.

قوله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الآية ١٦٣

الإعراب واللغة

والهكم: الواو إستئنافية، إلهكم: إله: مبتدأ، والضمير مضاف إليه.

إله: خبر مرفوع بالضمة، وترى ذات اللفظ (اله) يكون مبتدأ وخبراً في آية اعجازية، فالله هو الأول والآخر، وبذا تطابق الصناعة النحوية قواعد التوحيد وتكون فرعاً من الدراسات العرفانية.

واحد: صفة إله، لا: نافية للجنس وتسمى تبرئة لأنها تنفي الحكم عن جميع أفراد جنس إسمها إلا ما أستثني، وهي تعمل عمل (ان) فتدخل على المبتدأ والخبر فتنصب الأول وترفع الثاني بشروط منها النص على نفي الجنس، وأن يكون إسمها وخبرها نكرتين وإلا وجب الإهمال والتكرار وأن لا يتقدم خبرها على إسمها، وقال إبن هشام: إنها لا تعمل إلا في نكرة منفية.

إله: إسمها مبني على الفتح في محل نصب، إلا: أداة حصر ولا تكون كذلك إلا في الإستثناء المفرغ.

هو: بدل من إسم لا، ويجوز أن يكون (هو) مبتدأ مؤخراً و(إله) خبراً مقدماً، أي أن الأصل هو إله على مبنى الزمخشري الذي نفى الحذف في كلمة الشهادة، وعلى هذا أخرج نظائره في الإعراب نحو: لا فتى الا علي ولا سيف إلا ذو الفقار.

الرحمن: صفة للضمير ﴿هُوَ﴾، وقيل خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو.

في سياق الآيات

بعد ان بينت الآيات السابقة خلود الكفار في العذاب، والوعيد لمن يكتم الآيات والبينات جاءت هذه الآية في التوحيد والدعوة الصريحة للتمسك

بأحكامه.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الشعبة الأولى: الصلة بين آية (وأستعينوا بالصبر) [١]، وبين هذه الآية وفيها مسائل:

الأولى: الإستعانة بالصبر طاعة لله عز وجل.

الثانية: الصبر رشحة من رشحات الإيمان.

الثالثة: الصلاة إقرار بالتوحيد والعبودية لله عز وجل.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بإسمين من أسماء الله (الرحمن الرحيم) ومن رحمة الله بلحاظ الجمع بين الآيتين وجوه:

الأول: الأمر الإلهي بالإستعانة بالصبر.

الثاني: الأمر الإلهي بالإستعانة بالصلاة.

الثالث: إن الله عز وجل مع الصابرين.

الرابع: عموم إعانة ولطف الله تعالى بالصابرين في الدنيا والآخرة.

الثاني: الصلة بين آية (بل أحياء) [٢]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يقاتل المسلمون لرفع راية لا إله إلا الله.

الثانية: إن الله عز وجل هو الذي بعث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً للناس جميعاً.

الثالثة: أخبرت الآية أعلاه عن قتال المسلمين في سبيل الله، وجاءت هذه الآية بتوكيد الإلوهية المطلقة لله عز وجل.

الرابعة: من رحمة الله عز وجل أن جعل الذين يقتلون في سبيله أحياء.

الثالث: الصلة بين آية (ولنبلونكم) [١]، وبين هذه لآية، وفيها مسائل:

---

(١)الآية ١٥٣.

(٢)الآية ١٥٤.

الأولى: ذكرت الآية أعلاه وجوهاً مخصوصة من الإبتلاء وأن هذا الإبتلاء من عند الله مما يدل على أن مقاليد الأمور كلها بيد الله عز وجل.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين بأن الإبتلاء رحمة من عند الله عز وجل.

الثالثة: أختتمت الآية أعلاه بالبشارة للصابرين وهو من رحمة الله عز وجل بالمسلمين.

الرابعة: دعوة المسلمين للدعاء وسؤال التخفيف من الإبتلاء ومحوه.

الرابع: الصلة بين آية (الإسترجاع) [٢]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يدل الإسترجاع على إقرار المسلمين بالتوحيد والعبودية لله عز وجل.

الثانية: من رحمة الله عز وجل هداية المسلمين للإسترجاع.

الثالثة: يفيد الجمع بين الآيتين أن رجوع المسلمين لله رحمة بهم.

الخامس: الصلة بين آية (أولئك عليهم صلوات)[٣]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لا يقدر على إنزال الصلوات إلا الله عز وجل، وقد جعلها خاصة للمسلمين.

الثانية: إخبار الآيتين عن رحمة الله وفضله على المسلمين.

الثالثة: وصف المسلمين بأنهم المهتدون شاهد على إقرارهم بالتوحيد والعبودية لله عز وجل ونفي الشريك عنه.

السادس: الصلة بين آية (الصفا والمروة) [٤]، وهذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: لله عز وجل شعائر لابد من تعظيمها ومنها الصفا والمروة.

---

(١)الآية ١٥٥ .

(٢)الآية ١٥٦.

(٣)الآية ١٥٧.

(٤)الآية ١٥٨.

الثانية: نعت الصفا والمروة بأنهما من شعائر الله شاهد على أن ملك السماوات والأرض لله عز وجل.

الثالثة: من رحمة الله عز وجل تفضله بالشكر للمسلمين على عبادتهم.

الرابعة: من صفات الله عز وجل أنه العالم إذ يحيط بكل شيء علماً، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

الخامسة: حج البيت وأداء المناسك إقرار بالتوحيد، وعصمة من الشرك والضلالة.

السادسة: من رحمة الله عز وجل بالمسلمين هدايتهم لأداء مناسك الحج والعمرة.

السابع: الصلة بين آية (أن الذين يكتمون) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل هو الذي ينزل البينات من السماء، ولا يقدر غيره على إنزالها.

الثانية: نزول البينات من الشواهد على التوحيد.

الثالثة: لزوم الخشية الخضوع لله عز وجل فهو الإله الذي لا شريك له، ومن الخشية منه إظهار البينات وإجتناب سترها وإخفاءها.

الرابعة: لا يقدر على بيان الآيات إلا الله عز وجل، وقد تفضل ببيانها بالنبوة والكتاب.

الخامسة: من رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً بيان الآيات.

السادسة: كل من هاتين الآيتين بيان للآيات.

السابعة: القرآن بيان وتبيان للآيات، قال تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى

---

(١) الآية ١٥٩.

وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

الثامنة: هذه الآية من الهدى الذي ذكرت الآية أعلاه نزوله.

التاسعة: من رحمة الله بالناس جميعاً والمسلمين خاصة ومصاديق قوله تعالى (هو الرحمن الرحيم) مجيء الآية أعلاه بالزجر عن إخفاء البينات، والحث على كشف الحقائق.

الثامن: الصلة بين آية (إلا الذين تابوا)[(٢)]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل هو التواب، ولا يغفر الذنوب سواه.

الثانية: من رحمة الله عز وجل فتح باب التوبة.

الثالثة: جاءت الآية أعلاه بالحث على البيان والإخبار عن الثواب عليه، ومن البيان الآية محل البحث وتلاوتها والتدبر في معانيها القدسية.

الرابعة: لما تضمنت الآية أعلاه الحث على التوبة وإستثناء التائبين من اللعنة ومقدمات العذاب، جاءت هذه الآية بالبشارة بتغشيهم برحمة الله،

الخامسة: تكرر في الآيتين إسم من أسماء الله الحسنى وهو(الرحيم).

التاسع: الصلة بين آية (إن الذين كفروا وماتوا)[(٣)]، وبين هذه الآية، مسائل:

الأولى: توبيخ الكفار لكفرهم بالله الواحد الأحد، وإصرارهم على الجحود.

الثانية: جاءت هذه الآية لتبعث النفوس على النفرة من الكفر والضلالة.

الثالثة: التحذير من نزول لعنة الله الذي لا إله إلا هو.

الرابعة: الآية أعلاه من رشحات إسمي (الرحمن الرحيم) فهي رحمة في

---

(١)سورة آل عمران ١٣٨.

(٢)الآية ١٦٠.

(٣)الآية ١٦١.

الدنيا لما في منطوقها ومفهومها من الإنذار والزجر على الكفر.

العاشر: الصلة بين الآية السابقة (خالدين فيها) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين بيان قدرة الله عز وجل وبطشه بالكفار.

الثانية: من رحمة الله عز وجل إنذار الكفار والناس جميعاً بذكر عاقبة الكفار وخلودهم في النار.

الثالثة: الزجر عن التفريط والإمتناع عن الإيمان.

الرابعة: بعث السكينة في نفوس المسلمين بالأمن من النار التي أعدها الله للكفار.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآية التالية(تصريف الرياح) [2]، وفيها مسائل:

الأولى: خلق السماوات والأرض شاهد على التوحيد ولزوم الخضوع والخشوع لله عز وجل.

الثانية: لقد سخر الله ما في السماوات والأرض للناس وهو من رحمته سبحانه.

الثالثة: ذكرت الآية التالية آيات تكوينية عظيمة وكل واحدة منها دليل على وجود الصانع وإنحصار الإلوهية به سبحانه، ونفي الشريك عنه.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (ومن الناس) [3]، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين إن إتخاذ الأنداد كبيرة ومعصية.

الثانية: بيان لزوم الجهاد في سبيل الله، والثبات على الإيمان، ومحاربة الشرك والضلالة.

---

(١)الآية ١٦٢.

(٢)الآية ١٦٤ .

(٣)الآية ١٦٥.

الثالثة: الآية أعلاه من رحمة الله من وجوه:

الأول: تثبيت أقدام المسلمين في منازل الإيمان.

الثاني: الآية رحمة بالكفار لأنها زجر وتحذير من الكفر والضلالة.

الثالث: دعوة الناس لنبذ الكفر والجحود، ودعوتهم للإيمان.

الرابعة: من الشواهد على ان عز وجل هو الإله والرب وأن القوة جميعاً له سبحانه.

الخامسة: جاءت خاتمة الآية محل البحث بتأكيد رحمة الله وأنه الرحمن الرحيم، وتضمنت خاتمة الآية أعلاه الإنذار والوعيد بالعذاب الأليم للمشركين، وفي كل منهما والجمع بينهما شواهد على التوحيد وإنتفاء الشريك.

إعجاز الآية

توكيد الإقرار بالربوبية في بضع كلمات مع إقترانه بالرحمة المطلقة فيه بشارة ومدد، وإعلان لغة الخطاب في الآية وعد كريم للمسلمين وإكرام لهم، وتلاحظ كلمات التوحيد قصيرة جامعة مانعة، فواجب الوجود بسيط، والحقائق والبراهين ظاهرة.

جاءت الآية بصيغة الخطاب وعلى نحو العموم الإستغراقي الشامل للناس جميعاً لمضامينها القدسية وما فيها من دلائل التوحيد، ومن الإعجاز في الآية لغة التوكيد في الوحدانية ومضامين الرحمة إذ أنها أختتمت بأسمين من أسماء الله عز وجل هما(الرحمن الرحيم).

ويمكن تسمية الآية آية (إلهكم إله واحد) وبلحاظ حرف العطف الواو في الآية لم يأت هذا اللفظ في القرآن إلا في هذه الآية، بينما جاء قوله تعالى (إلهكم إله واحد) خمس مرات في القرآن.

الآية سلاح

تحث الآية على الإيمان المطلق وصدق السريرة والإخلاص في العبادة وصيغ العفو والرحمة.

لقد خلق الله عز وجل الإنسان خليفة في الأرض ليعمرها بالعباد ويتوارث الناس مبادئ التوحيد، ولكن فريقاً من الناس إختاروا الكفر والضلالة، وجحدوا بنعم الله، ولما جاءت الآيات السابقة بذكر عذاب الكفار، والذين يخفون البينات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإستثناء أهل التوبة والصلاح والبيان وجاءت هذه الآية خطاباً عاماً لتكون للناس سبيل هداية، ووسيلة لتثبيت الإيمان، وحرباً على الكفر ودعوة للتنزه منه.

وتنمي الآية ملكة التوكل على الله عند المسلمين، وتجعلهم أغنياء بلطفه تملؤهم الثقة بعظيم قدرته حسن إستجابته وفيها واقية من الركون إلى الظالمين وبرزخ دون رجاء الحاجات منهم قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[1]، الآية عون للمسلمين في أداء الوظائف العبادية والتنزه عن الكسل والخمول.

والتوحيد سلاح في الدنيا والآخرة وهو واقية من دخول النار، وباعث للأمن من العذاب، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

روي عن إبن عباس: أن كفار قريش قالوا يا محمد صف لنا وأنسب لنا ربك، فانزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص[3].

---

(١)سورة الزمر ٣٥.

(٢)سورة البقرة ٢٧٧.

(٣) سورة .

مفهوم الآية

الآية حرب على الشرك وإعلان لإنتهاء تأثير الكافرين والمشركين على المسلمين، وإحتراز عقائدي إلى يوم القيامة، وهي الفيصل بين الإسلام والكفر إذ لا واسطة بينهما ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1].

وتبين الآية قبلة الجهاد وسنام الإسلام وعز الشريعة وإستقامة طريق المسلمين، إنها نور يضيء للناس دروب الهداية ويطرد شبح الظلمة وشقاء الجحود والعناد.

وتحبب الآية الإيمان والتقيد بأحكام التوحيد إلى النفوس بتضمنها لأسمى آيات الرحمة وفي ذكره تعالى باسم الرحمن والرحيم دلالة على دعوة الكفار والمشركين إلى الإيمان وحثهم على الإسلام.

فمن المعارف الإلهية مقابلة الجحود بالرأفة، والكفر بالحجة والبرهان، والضلالة والعناد بالتودد واللطف، مما يعني ان رحمته تعالى تتغشى الناس جميعاً في الحياة الدنيا، فاما ان يكون مؤمناً فينال من فضله تعالى ومن إسم الرحيم والرحمن، وأما أن يكون كافراً فينتفع من إسم الرحمن ويصيب النماء في المال والرزق ودفع البلاء، ومعه أيضاً الموعظة والتذكرة والإعتبار وتطرق آذان قلبه آيات الدعوة لذا تعتبر لغة الخطاب في الآية شاملة تشمل المسلم وغير المسلم.

وتتضمن الآية في مفهومها الثناء على المؤمنين لإختيارهم الإسلام، وتدعوهم للتفقه في الدين وتحمل الأذى في جنب الله، والوثوق بالنصر والغلبة من عند الله عز وجل، وتتضمن توبيخ الكفار على سوء إختيارهم وقبيح أفعالهم ومنها إخفائهم الحقائق وعدم إعلانهم البشارات البشارات

---

(١) سورة النساء ١٤١.

التي وردت في التوراة والإنجيل بخصوص نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم إتباعه ونصرته، وفي الآية مسائل:

الأولى: تتضمن الآية البشارة للمسلمين، والإنذار والوعيد للكفار، وتتجلى البشارة بمجيء الآية بإسمين من أسماء الله فيهما معاني الرحمة والعفو، والإنذار بحرمان الكفار من رحمة الله.

الثانية: تساوي الناس في العبودية لله ولزوم الخضوع والخشوع له سبحانه.

الثالثة: إنعدام الشريك لله عز وجل.

الرابعة: إن الله عز وجل رحمن الدنيا والرحيم الآخرة.

الخامسة: حرمان الكفار لأنفسهم من رحمة الله عز وجل.

السادسة: عدم التعارض بين السعة في رحمة الله، ونزول العذاب بالكفار.

السابعة: الآية ترغيب للكفار بالتوبة والإنابة.

الثامنة: بعث الغبطة والسعادة في نفوس الذين تابوا ودعوة لهم للإجتهاد في الإصلاح وبيان الحقائق.

إفاضات الآية

الآية سياحة في عالم الملكوت، والمتدبر في الآية لا يرى في الوجود إلا الله عز وجل، وكل شيء هو مخلوق بمشيئته ، منقاد لأمره، مفيض كمال كل موجود، ويصبح الذي يتلوها ضمن إشعاع أنوار الحضرة الإلهية، يرجو فضله ويتطلع إلى واسع رحمته الذي أكدته الآية والرحمة صفة كمال تتضمن الإخبار عن تنزه الله عن الظلم، والإشارة إلى أن الوعيد للكافرين في الآيات السابقة وتبعث الآية على حب الله، والحرص على الفناء في مرضاته والشوق للقائه، والنفرة من معصيته.

والآية حجة على الناس في ماهية رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتأكيد لصدقها، فهو لم يأت إلا لجذب الناس لعبادة الله ونبذ الشرك والقضاء على تجبر وإستكبار الطواغيت في الأرض.

ومن أسرار مجيء الآية بصيغة الخطاب جعل الناس بمرتبة واحدة في مقامات العبودية(وإلهكم إله واحد) لتكون حرباً على الإفتتان بالظالمين وإتباعهم في غيهم وتعديهم.

وفي الآية قهر للنفس الشهوية، ودعوة للإنقياد إلى أحكام الحلال والحرام، والإمتثال للأوامر الإلهية وباعث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طلباً لمرضاة الله وما يسمى بالتوحيد في القصد والطلب.

والآية ترغيب بفضل الله، والتطلع إلى سعة رحمته وإصلاح للنفس لمنازل التوبة.

الآية لطف

تطرد الآية عن القلوب حب غير الله، وتبين حاجة الناس إليه سبحانه، وإذ جاءت الآيات السابقة بذم الذين يخفون البينات والبشارة للذين يتوبون إلى الله ويبقونها جاءت هذه الآية للبعث على إظهار الآيات وتصديق الذين يظهرونها وعدم محاربتهم، والإخبار بأن مقاليد الأمور بيد الله وأن إخفاء الآيات لن يضر إلا أهله الذين لم ينتفعوا من سعة رحمة الله، بل أصروا على الكذب والإفتراء والجحود، لتكون هذه الآية تذكيراً بالوظائف العبادية، ودعوة لإكتساب العلوم وأنوار المعرفة، وهذه الآية هبة سماوية لـ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، وجذبة إلى مقامات التقريب من لطف وإحسان الله عز وجل وخزائن رحمته.

(١)سورة آل عمران ١١٠.

الصلة بين أول وآخر الآية

جاءت الآية في الثناء على الله عز وجل وتوكيد التوحيد، وإثبات الربوبية له سبحانه، ونفي الشريك عنه، ووردت بصيغة الخطاب الإستغراقي الذي تدل عليه(الكاف)، في إلهكم، ومع قلة كلمات الآية فقد تكرر لفظ(إله) فيها ثلاث مرات، وإضافة الإله إلى الناس دليل على إكرامهم ولزوم إفتخارهم بهذه الإضافة والتقيد بطاعة الله عز وجل.

ولما أخبرت بأن الله إله واحد ليس له ثان، جاء الشطر الثاني بتوكيد إنتفاء الشريك وأنه لا إله إلا الله لتحبيب اللوذ بمقام الربوبية، وطرد مفاهيم الشرك الظاهر والخفي عن النفوس فالله عز وجل إله الناس والخلائق كلها، فليس من إله في الوجود سواه ومن خصائص الألوهية المطلقة أن الله عز وجل هو الرحمن الرحيم، الذي تفيض من فضله مضامين العفو والمغفرة والمدد لأهل الإيمان الذين يصلحون في الأرض، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وإبتدأت الآية بصيغة الخطاب للناس جميعاً، وفيه ثناء من الله عز وجل نفسه ورحمته بالناس لهدايتهم سواء السبيل، وهي حرب على الوثنية والأصنام لتكون هذه الآية مدداً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في إصلاح المجتمعات وبعث النفرة في النفوس من الشرك وأدرانه.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: توكيد التوحيد.

الثانية: القطع بإنتفاء الشريك للباري.

الثالثة: وجوب عبادة الله.

الرابعة: لزوم التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء الآخرين الواسطة المباركة بين الله وبين خلقه.

الخامسة: إمتلاء الكون بأسباب الرحمة والعفو، وخلق الإنسان ذاته رحمة من عند الله، لتتغشاه رحمة الله في النشأتين بإستثناء الذين يصرون على الكفر والجحود، الذين يحرمون أنفسهم من الرحمة في الآخرة وتلاحقهم اللعنة وأسباب العذاب.

التفسير

قوله تعالى [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

تجسد الآية الكريمة فلسفة التوحيد وفيها تعليم وتأديب للمسلمين وقطع للشرك والشك والوهم.

عن ابن الأثير: وأصله من أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّر)[1]، يريد اذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله.

أقول: المعنى أعم من هذا الاشتقاق، والتأويل يصلح مترشحاً عن صفات الذات، لأن صفة الإلوهية تتعلق بالأصالة وعلى نحو الفاعلية، والظاهر أن الإله إسم للمعبود الذي يفزع اليه المتألهون ويلجأ اليه العابدون، وصفة إنفرد بها الله سبحانه.

وأشكل على علي بن عيسى في قوله معنى إله هو المستحق للعبادة، وقال الطبرسي: وهذا غلط، لأنه لو كان كذلك لما كان القديم سبحانه إلهاً فيما لم يزل في الأزل ما يستحق به العبادة)[2]، أقول: ان إستحقاقه للعبادة أمر ذاتي سواء وجد العابد أو لم يوجد بعد،، والممكن ليس بممتنع.

وقوله تعالى ﴿وَاحِدٌ﴾ وصف له دلالات عديدة منها أنه بسيط غير مركب

---

(١) لسان العرب ٤٦٧/١٣.

(٢) مجمع البيان ٤٥١/١.

لا يقبل الإنقسام والتعدد ولا تطرأ عليه التجزئة، وانه واحد في صفاته لا شبيه ولا مثيل له، واحد في الألوهية والربوبية وفي صفاته واسمائه الحسنى، والشريك منتف عنه.

والآية دعوة للمسلمين للتصديق والتسليم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وحث على الصبر في جنب الله والجهاد والدفاع عن الاسلام، إنها حصانة فكرية لهم ووقاية من الشك والريب وما يحاول المشركون بثه وزرعه في نفوسهم من أسباب ضعف الإيمان، وهي سلاح عقائدي.

بحث كلامي بلاغي

قوله تعالى ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نفي مطلق للشريك والمثل له سبحانه، فليس من مستحق للعبادة غيره ويتضمن معاني التقديس والإجلال له تعالى وفيها توكيد وإثبات لألوهيته تعالى وإن كان مجرد التقدير بياناً وتوضيحاً.

والله سبحانه ليس بمركب أو ذي أجزاء، وليس له شريك أو ند أو شبيه في وجوب الوجود والألوهية، كما انه تفرد بالقدم والقدرة المطلقة والغنى والعلم بصفات ذاته، فكل ما عداه يطرأ عليه التغيير والتبدل، وهما من علامات الإمكان والإضافة إلى المخاطبين.

وتبين الآية حقيقة ثابتة وهي إنفراد الله عز وجل بالإلوهية، مما يدل بالدلالة التضمنية على أن كل مخلوق منقاد له سبحانه ولا يقدر غيره سبحانه إدعاء الإلوهية فإن قلت ورد عن فرعون أنه قال﴿أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى﴾[1]، والجواب إن البطش به جاء سريعاً عاجلاً إذ أغرق وجنوده، وصار عبرة وموعظة للناس، وخطابه أعلاه خاص بقومه وكان جاهلاً بمعاني الربوبية

(١)سورة النازعات٢٤.

المطلقة، وفي التنزيل ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

في النحو قالوا بوجود زيادة في ألفاظ الكلام دون المعنى، وقالوا أيضاً بالحذف ووجود التقدير، ففي قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قالوا إن الخبر محذوف وتقديره لا إله موجود إلا الله، ومنهم قدره (لَنَا) والأول اولى لإعطائه معنى الإطلاق بالنسبة للخلائق.

وانكر بعض المتكلمين على النحويين القول بالتقدير هنا، لأن قوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تضمن نفي الشريك على نحو الإطلاق من غير تقييد بتقدير معين، إذ يفيد التقدير التبعيض والتقييد لماهية الشريك، واجيب عليه بان هذا التقدير يفيد أيضاً النفي المطلق للشريك على نحو القطع، لأن العدم لا إعتبار له.

وحمل الكلام على ظاهره وصياغته أولى من التقدير، ما دام يفيد المقاصد الشريفة من وضع اللفظ، ولكن التقدير لا يتعارض معه، فهو في طوله، وقد لا تجد كلمة تصفها تقديراً تكون مناسبة للحال والمقام من دون ظهور المعنى في الظاهر، فتقدير الوجود قد لا يكون كافياً لأن المراد منه الوجود الخارجي والوجود الذهني أعم منه، كما ان تقدير (الوجود) لا ينفي إمكان إله آخر، فبين الإمكان والوجود عموم وخصوص مطلق فكل موجود سوى الله ممكن وليس كل ممكن موجوداً، وهو سبحانه قادر على كل ممكن ما كان منه موجوداً أو لم يكن موجوداً فلا تستعصي عليه سبحانه مسألة، وقدروا أيضاً (مستحق للعبادة) وهو لا ينفي التعدد بلحاظ من لا يستحق العبادة.

وقالوا بتقدير (لنا) ولكن الآية الكريمة جاءت بالمعنى الأعم لإلوهيته تعالى من أن تقيد بالإنس أو الثقلين أو شطر من الخلائق إلا على مبنى إثبات شيء

---

(١) سورة الشعراء ٢٣.

لشيء لا يدل على نفيه عن غيره.

وأصل الخلاف الإختلاف في المرتكز، فمن قواعد الصناعة النحوية إستحالة وجود مبتدأ بلا خبر سواء كان ظاهراً أو مقدراً، مع عدم إعتراضهم على المعنى فهم لا يعتبرون من التقدير تغيير المعنى أو الإشكال أو الغمز فيه، إن القول بالحذف إقرار بوجوه البراعة في الكلام وإعتماده الإيجاز والإختصار من غير تغيير بالمعنى، فقواعد النحو هذه جاءت لبيان إعجاز القرآن.

وحاول جمع من المحققين التوفيق بين القولين، وقالوا بالتقديم والتأخير وأنه لا يحتاج إلى تقديم خبر، وأن (إلا الله) مبتدأ أما الخبر فهو (لا إله) وأن الأصل (الله إله) فلما أريد الحصر زيد لا وإلا، والظاهر انها مصالحة لا تنسجم والقواعد النحوية، ومنهم من جعل (الا الله) هو الخبر، ويرد عليه كيف يكون المبتدأ نكرة والخبر معرفة وفي الخبر عن ألوهية الله الأولى القول(الله إلا له) وليس بصيغة التنكير.

ومن الإعجاز أن تتعدد الأقوال في معاني كلمة التوحيد وتتفرع عنها الدراسات فهي أشرف لفظة في الوجود والجامعة للنعوت القدسية والكمالات التي تنجذب إليها النفوس لدلالتها على الذات الأحدية وهي مع بساطتها وإيجازها فان العقول تعجز عن إدراك كنهها، وقال بعض أهل العرفان: الوجود الحق هو الله خاصة من حيث ذاته وعينه.

ومن أسرار القرآن أن كلمة التوحيد (لا اله الا الله) وردت في القرآن مرتين بقوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾(١) ، ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٢) ، وجاءت مرات عديدة بقوله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١) سورة محمد ١٩.

(٢) سورة الصافات ٣٥..

قوله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

الأولى : الرحمن على وزن فعلان صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والرحيم فعيل ويراد منه الفاعل وصفة تدل على الدوام والإستدامة.

الثانية : هذان الوصفان من أعظم صفاته سبحانه التي تكون محط حاجة الإنسان في دنياه وآخرته.

الثالثة : جاء إقترانهما بآية التوحيد وقول ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لتوكيد الثبات على الإيمان ومواصلة المسلمين السعي في مسالك الجهاد وطلب مرضاة الله تعالى.

الرابعة : الآية دعوة لعدم الإلتفات إلى أسباب الشك وإفتراءات المشركين وأهل الريب والحسد.

الخامسة : الآية منطوقاً ومفهوماً بشارة ووعد وإخبار عن الثواب الجزيل.

السادسة : في إجتماع التوحيد والرحمة تمام النعمة وأسباب كمال الدين.

السابعة: فيها ترغيب وحث على التوبة والإنابة.

الثامنة : تدل الآية بالدلالة التضمنية على رجاء قبول التوبة ومحو السيئات بالمغفرة.

التاسعة : لغة الخطاب في الآية مطلقة تشمل المسلمين وأهل الكتاب والكافرين وإن إمتنعوا باختيارهم عن الإيمان وقطع ثماره الحاضرة واللاحقة.

بحث فلسفي

تمثل فلسفة التوحيد الركيزة الأساسية لدوام الحياة على الأرض لا بلحاظ العقيدة والتشريع فحسب بل بلحاظ الواقع المادي والوجود الذهني والخارجي، وفيها إحكام للمعرفة ومنع لتبددها وضياع العلم وتعتبر رادعاً للشك وحالة الريب وما تفرزه الكدورات الظلمانية ويثه الشيطان من الوسوسة الشخصية والنوعية، ليفسد طغيان الشك القيم الأخلاقية ويصيب بالوهن العقائد المبنية على العقل والوجدان وإنجذاب الروح إلى أسباب الهداية لما يسببه من إعراض عنها.

لذا كان من أهم وظائف النبوة التصدي لقوى الضلالة والغواية، والتحذير من الشيطان ومكره وحيله وتلاعبه بأذهان الذين في قلوبهم مرض والمترددين.

لقد أرادوا جعل الشك إتجاهاً فكرياً مضاداً ومعادياً للإسلام في محاولة لإيجاد حالة من الاضطراب والتعارض بين الأديان وفقدان الإستقرار الإجتماعي لأن الإسلام يحتاج إلى الإستقرار ليتدبر الناس آيات القرآن والنبوة، وهذا الشك والريب في موضوعه ومقاصده غير الشك الذي ظهر في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي لمواجهة إصرار الكنيسة على فرض أفكار بعض العلماء، ومحاولات ديكارت فيما بعد لتضييق دائرته وإبطال أثره بقوله المشهور: "أنا أشك، إذن أنا موجود"، نعم هذا الشك جاء بسبب إنحلال القيم العقائدية والأخلاقية والإبتعاد عن الدين وأحكامه.

وأنت ترى الشريعة الإسلامية كيف تحاصر الشك وتزيحه عن سويداء القلب، وفي أحكام الصلاة والعبادات الأخرى

أبواب خاصة لأحكام الشك مبنية على التخفيف والتيسير والإعراض عنه كآلة وسلاح ضعيف للشيطان.

وليس من تجرأ أو رأي للعلماء خارج عن أصل الشريعة وأسس الإستنباط من الأدلة التفصيلية والقيد الأخير (من الأدلة التفصيلية) لإخراج الذي يعلم الأحكام الشرعية من غير إستدلال ومعرفة الدليل، كالعامي الذي يعرف وجوب الصلاة وحرمة الخمر ونحوها تسليماً بظاهر القرآن، وفتوى الفقيه المستنبط للحكم، أما العالم فيطالب بالدليل على الفتوى والبرهان الشرعي على الحكم.

لقد رافق عصر النهضة في أوربا في القرن الرابع عشر الميلادي نقص في الإيمان بالغيب وكانت الكنيسة تؤكد على اعتبار طريق النفس ومخاطبة القلب دون العقل، وكذا بالنسبة لشك ووهم الذين أصروا على الجحود وعدم الإيمان بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فانه نتيجة الفترة التي سبقت نبوته صلى الله عليه وآله وسلم وما رافقها من إنحطاط الدين وإنحسار العلم، فجاء الإسلام بالسنن والأحكام بلباس الصلاح ومتزينة بالعقل ومقرونة بالبراهين، وتلازمها الحجج إلى يوم القيامة قال تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[1].

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

(١) سورة آل عمران ١٩.

قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآية ١٦٤.

القراءة والإعراب واللغة

قرأ حمزة والكسائي (الريح) بصيغة المفرد والباقون بصيغة الجمع[1]، وقرأ وقرأ الكسائي الرياح في ثلاثة مواضع في الحجر والفرقان وأول الروم، ووافقه حمزة إلا في الحجر.

ان: حرف مشبه بالفعل، في خلق: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ان المقدم.

السماوات: مضاف اليه، والأرض: عطف على السماوات.

وإختلاف الليل والنهار: عطف على خلق السماوات.

والفلك: معطوف على خلق السماوات.

التي: صفة الفلك.

تجري في البحر: تجري: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي، والجملة الفعلية لا محل لها لأنها صلة الموصول.

بما: الباء: حرف جر، ما: إسم موصول في محل جر بالباء.

ينفع: فعل مضارع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو.

---

(١)أنظر مجمع البيان١/٢٢٤.

الناس: مفعول به منصوب بالفتحة.

والجملة الإسمية لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول.

وما: عطف على "ما" الأولى.

انزل: فعل ماض، الله: فاعل مرفوع.

من السماء: جار ومجرور متعلقان بأنزل.

من ماء: جار ومجرور بدل من قوله تعالى "من السماء".

فأحيا: عطف على فأنزل، به: جار ومجرور متعلقان بأحيا.

الأرض: مفعول به منصوب بالفتحة.

بعد موتها: بعد: ظرف زمان منصوب متعلق بـ(احيا).

موتها: موت مضاف إليه، وهو مضاف، والضمير مضاف إليه، وبث: عطف على أحيا.

فيها: جار ومجرور، متعلقان بمحذوف حال.

من كل دابة: من كل: جار ومجرور، وكل: مضاف، دابة: مضاف إليه.

وتصريف الرياح: عطف على خلق، الرياح: مضاف إليه، والسحاب معطوف على الرياح.

المسخر: صفة للسحاب.

بين السماء والأرض: بين ظرف مكان متعلق بمسخر وهو مضاف، السماء: مضاف اليه، الأرض، معطوف على السماء.

لآيات: اللام هي المزحلقة، آيات: إسم إن المؤخر منصوب وعلامة نصبه الكسرة.

لقوم: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآيات، يعقلون: فعل مضارع مرفوع، الواو: فاعل.

الفلك: السفينة، ويأتي للمفرد والجمع، ويذكر ويؤنث.

والسحاب - بفتح السين ـ الغيم، جمع سحابة، ويجمع على سُحب وسحائب.

والتسخير: التذليل وجعل الشيء سهلاً ميسراً.

ومن أسمائه تعالى الخالق والخلاق، وهذه الصفة خاصة به تعالى أصالة وحقيقة، والخلق إبتداع الشيء على غير مثال سابق، قال تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]، وقد يرد الخلق بمعنى التقدير كما في قوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[2]، والمراد في الآية الكريمة محل البحث المعنى الأول أي الإبتداع إبتداءً ومن العدم.

والإختلاف: التباين والمغايرة، وفي المقام يشمل معنى الخِلفة: أي ان كلاً منهما خَلَف للآخر، يذهب هذا فيأتي ذاك.

والليل: معروف ويبدأ من غروب الشمس وظهور الحمرة المشرقية إلى طلوع الفجر، والنهار: ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وعلى قول من طلوع الشمس باعتبار ضيائه وانه لا ينبسط ويصدق إلا بعد طلوع الشمس.

ومع ان اليوم هو اوان النهار لغة وكأن اليوم اعم من النهار بلحاظ كونه وعاء للوقائع والحوادث ذات الإمتداد الزماني.

والفلك - بضم الفاء ـ السفينة، وتقع على الواحد والإثنين والجمع وتذكر وتؤنت، وورد هنا بالجمع والتأنيث، وورد في آية أخرى بالإتحاد والتذكير بقوله تعالى ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[3].

ومنهم من قال بالتفصيل بالفلك إذا كان واحداً فهو مذكر وإن جاء جمعاً

---

(1) سورة غافر ٦٤.

(2) سورة المؤمنون ١٤.

(3) سورة الشعراء ١١٩.

فهو مؤنث، ولكنه لا يصلح كقاعدة لغوية كلية بدليل قوله تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾(١) فجاءت الفلك مؤنثة مع انها مفردة.

والبث: النشر الظاهر والتفريق والتوزيع، ويقال: بث الله الخلق أي خلقهم ونشرهم على نحو التفريق، ويقال بثه يبثه بثاً: نشره وفرقه، ويأتي للشيء الحسي وللخبر والموضوع الإعتباري ويفيد احياناً معنى الكثرة والتكاثر.

الدابة: إسم للحيوان لأنه يدب على الأرض، يقال دبّ يدبُ دباً ودبيباً اي مشى رويداً من غير إسراع، وقد شاع استعمال لفظ الدابة لما يركب من الحيوانات ولكنه مطلق يشمل الناطق وغيره.

ولما قال الخوارج لِقَطَري وهو من رؤساء الأزارقة وأشدهم بأساً: "أخرج إلينا يا دابة" وكثيراً ما كانوا يسلمون عليه بالخلافة فكان جوابه ان أمرهم بالإستغفار فاستشهدوا بقوله تعالى ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(٢).

والصرف رد الشيء عن وجهه، يقال صرفه يصرفه صرفاً فانصرف، وقد يأتي الصرف بمعنى التقلب، وتصريف الآيات تبيينها، وتصريف الرياح: تغيير اتجاهها وتحويلها من جهة إلى أخرى سواء بالحال والتعاقب أو بالأيام أو المواسم، فتكون جنوباً أو شمالاً أو صباً أو دبوراً.

والسحاب بفتح السين والسحب، والسحائب: جمع سحابة وهي الغيمة التي تأتي بالمطر قليلاً كان أو كثيراً، سميت بذلك لإنسحابها في الهواء وسيرها منقادة لإتجاهه، وفي الحديث: "كان إسم عمامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحاب سميت به تشبيهاً بسحاب المطر وما فيه من البركة"جعل الله السحاب عزابيل للمطر تذيب البرد حتى يصير ماء لكيلا يضر شيئاً يصيبه"،

---

(١) سورة المؤمنون ٢٧.

(٢) سورة النحل ٦١.

وعطف السحاب على الرياح إشارة إلى الإعجاز والتداخل في النظام الكوني.

وسخر الشيء تسخيراً: أي ذلله ووجهه حسب إرادته، وكل ما ذل وإنقاد وكان طوع أمرك فقد سُخر لك، وورود ﴿بَيْنَ﴾ يظهر أن لفظ السماء لا يعني شموله لكل ما هو فوق رؤوسنا بل هو أخص.

في سياق الآيات

بعد ان تعرضت الآيات السابقة للكفار ذماً وتقبيحاً، وجاءت الآية السابقة بإعلان التوحيد شعاراً ثابتاً لأهل الإيمان في الأرض ليلتقوا مع أهل السماء في إخلاص العبودية، تضمنت هذه الآية الدلالة على التوحيد والبراهين لبديع خلقه، وكيف أنه سبحانه يستحق العبادة بالمبرز الخارجي والوجود الذهني والحقيقي.

الصلة بين هذه الآية والآيات المجاورة على شعبتين:

الأولى: الصلة بين هذه الآية والآيات السابقة، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين آية (الصفا والمروة) [1]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: كون الصفا والمروة من أسرار خلق السماوات والأرض.

الثانية: وجود علل وخصوصيات للخلائق بمشيئة الله.

الثالثة: خلق السماوات والأرض كبرى كلية، وكل خلق له أسراره الخاصة، ومنه ما يكون من شعائر الله.

الرابعة: السعي بين الصفا والمروة إقرار بخلق الله للسماوات والأرض.

الخامسة: السعي شكر لله عز وجل على نعمة الخلق.

السادسة: من آيات إختلاف الليل والنهار حلول موسم الحج ومناسكه مرة كل عام.

الثاني: الصلة بين آية (أن الذين يكتمون) [1]، وبين هذه الآية، وفيها

---

(١)الآية ١٥٨.

مسائل:

الأولى: جاءت هذه الآية ببينات عديدة وهي:

الأول: خلق السماوات وما فيها من الأفلاك وبديع صنع الله.

الثاني: خلق الأرض وما فيها من الجبال.

الثالث: إختلاف الليل والنهار.

الرابع: جريان الفلك والسفن في البحار ومنافعها في الأجيال المتعاقبة.

الخامس: آية نزول المطر من السماء، وظهور النبات ونمو الأشجار، وحياة الحيوان.

السادس: إتجاه الريح وتغيرها باليوم والساعة والفصل.

السابع: آيات السحاب الذي يجري بين السماء والأرض، وهذه الآيات لا يمكن كتمانها وأن القدر المتيقن من الكتمان هو المعجزات والبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذكر هذه الآيات في القرآن من الشواهد على صدق نزوله من عند الله.

الثانية: الآية محل البحث وما فيها من الدلالات على وجود الصانع ولزوم عبادته من البينات والهدى الذي أنزله الله عز وجل.

الثالثة: دعوة الناس للتدبر في الآيات الكونية، وطرد الغفلة والجهالة.

الرابعة: لقد جعل الله عز وجل السماء والأرض مملوءة بالآيات ليتعظ الناس ويجتنبوا لعنة الله والملائكة لهم، وهذه الآيات والإتعاظ منها من عمومات قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

الخامسة: دعوة الناس لإستظهار الآيات وأسباب الهدى التي جاءت في

---

(١)الآية ١٥٩.

(٢)سورة لقمان ٢٠.

القرآن.

الثالث: الصلة بين آية (إلا الذين تابوا) [1]،وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: الإتعاظ بالآيات الكونية سبيل للتوبة والصلاح.

الثانية: الآيات الكونية وسيلة للإعتبار والإتعاظ، وهو من مصاديق تسخير الله عز وجل لها للناس.

الثالثة: أختتمت هذه الآية بالتوكيد على العقل والتدبر، ويدعو العقل إلى التوبة والإصلاح وبيان الآيات لأن كل واحدة منها حق وصدق.

الرابعة: كل آية من الآيات الكونية التي ذكرتها هذه الآية دعوة للتوبة والصلاح والهداية.

الخامسة: أختتمت الآية أعلاه بإسم من الأسماء الحسنى وهو(الرحيم) وكل آية كونية ذكرتها هذه الآية رحمة بالناس في ذاتها وموضوعها، ولزوم إتخاذه وسيلة للهداية.

الرابع: الصلة بين آية (أن الذين كفروا وماتوا) [2]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: إقامة الحجة على الكفار بالآيات الكونية.

الثانية: تصيب رحمة الله عز وجل في الدنيا الناس جميعاً.

الثالثة: لم تذكر الآية أعلاه لعنة السماوات والأرض على الذين كفروا، وفيه آية إعجازية في عالم الممكنات، وأن اللعنة تصدر من العقلاء، وأن السماوات والأرض سخرها الله للناس جميعاً، وليس للعن فريق منهم.

الرابعة: الآيات الكونية دعوة للناس للسلامة والعصمة من اللعنة والغضب الإلهي.

---

(١)الآية ١٦٠.

(٢)الآية ١٦١.

الخامس: الصلة بين آية (خالدين فيها) [١]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين بيان عظيم قدرة الله عز وجل.

الثانية: لقد سخر الله الكائنات للناس، ومن لم يشكر الله على هذه النعمة بالإيمان وإتيان الفرائض يلقى العذاب الأليم في الآخرة.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، للدلالة على أنها واقية من النار لمن يتدبر في معانيها ومضامينها القدسية، وما تشير إليه من الآيات الكونية قال تعالى﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [٢].

السادس: الصلة بين الآية السابقة (وإلهكم إله واحد) [٣]، وبين هذه الآية، وفيها مسائل:

الأولى: ما في السماوات والأرض من الشواهد على التوحيد.

الثانية: الله تعالى هو بديع السماوات والأرض.

الثالثة: لا يقدر على خلق مثل السماوات والأرض وتصريف الرياح وجريان السحاب إلا الله عز وجل.

الرابعة: ما ذكرته هذه الآية من الآيات الكونية من رحمة الله عز وجل بالناس، وتيسير أسباب العيشة لهم، وإتخاذهم لها وسيلة للإتعاظ وتثبيت الإيمان.

الخامسة: تدل هذه الآية على حاجة الخلائق إلى رحمة الله عز وجل وإنعدام الشريك، قال تعالى﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [٤].

---

(١)الآية ١٦٢.

(٢)سورة فصلت ٥٣.

(٣)الآية ١٦٣.

(٤)سورة الأنبياء ٢٢.

السادسة: كل آية كونية ذكرتها هذه الآية مصداق وشاهد على الآية أعلاه ووجوب التوحيد والإقرار لله عز وجل بالإلوهية والربوبية.

الشعبة الثانية: الصلة بين هذه الآية والآيات التالية، وفيها وجوه:

الأول: الصلة بين هذه الآية والآية التالية آية (ومن الناس)[1]، وفيها مسائل:

الأولى: إن الله عز وجل هو الذي خلق السماوات والأرض رحمة بالإنسان، ودعوة له لعبادته.

الثانية: ليس من موجود وهو مخلوق لله عز وجل وخاضع لمشيئته، فلا يجوز إتخاذ الشريك للباري.

الثالثة: الآيات الكونية التي ذكرتها هذه الآية شاهد على ما جاء في خاتمة الآية أعلاه (أن القوة لله جميعاً).

الرابعة: يفيد الجمع بين الآيتين إنذار الذين لا يتعظون بالآيات الكونية، ولا يتخذونها وسيلة ومقدمة للهداية والإيمان.

الثاني: الصلة بين هذه الآية وآية (إذ تبرأ) [2]، وفيها مسائل:

الأولى: إن الدنيا وما فيها من النعم إختبار وإمتحان للناس، ولم يتعظ الكفار مما فيها من الآيات.

الثانية: يفيد الجمع بين الآيتين جذب الناس للإسلام، وحثهم على التوبة والإنابة.

الثالثة: من لم يتعظ من الآيات الكونية في الدنيا، ولم يشكر الله عز وجل على النعم فيها، ويبقى مصراً على الكفر والجحود يلقى العذاب في الآخرة.

الرابعة: إختيار الكفار عدم إعمال العقل في الآيات، ومعانيها وكيف أنها حجج لله على الخلق.

الثالث: الصلة بين هذه الآية وآية(كلوا مما في الأرض) [1]، وفيه مسائل:

---

(١)الآية ١٦٥.

(٢)الآية ١٦٦.

الأولى: يفيد الجمع بين الآيتين بيان النعم العظيمة التي تفضل الله عز وجل بها على الناس.

الثانية: لم ينحصر الإنتفاع من النعم بالمسلمين بل هو شامل للناس كافة.

الثالثة: حث الناس على التنزه عن الظلم والتعدي.

الرابعة: أختتمت هذه الآية بقوله تعالى﴿آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وجاءت هذه الآية بالتحذير من خطوات الشيطان وإتباع الهدى.

إعجاز الآية

ثمان آيات كونية بتوال وتعاقب في آية البحث يجعله كالمتحد والسهل اليسير من قدرة الله تعالى، ومع أنها من بديع الصنع فإنها محسوسة ظاهرة للعيان وتتفرع عن كل آية منها آيات كونية ومسائل متعددة، وأظهرت الآية الكريمة الصلة والضرورة بين نشأة الخلق والتكوين وحوادث النظام الكوني، كما أنها تطرد الغفلة بالإلتفات الحاصل عن الحضور المستمر لهذه الآيات.

وفي الآية إعجاز مركب، وعلى وجوه متعددة هي:

الأولى : الخلق مطلقاً.

الثانية : خلق السماوات وإبتداعها.

الثالثة : خلق الأرض وبسطها.

الرابعة : آية الليل والنهار وتعاقبهما وإختلافهما، والدقة في عدم التداخل بينهما.

الخامسة : نعمة البحار.

السادسة : جريان الفلك فيها.

السابعة : النفع العظيم من وسائط النقل البحرية بل مطلقاً.

الثامنة : نزول المطر.

---

(١)الآية ١٦٨.

التاسعة : ذكر السماء كعائدية ومصدر.

العاشرة : منافع المطر.

الحادية عشرة : تعلق الحياة على الأرض بالمدد المتصل من السماء أي حاجة الخلائق المستديمة والمتجددة للسماء.

الثانية عشرة : بعث الحياة والتكاثر في الحيوان.

الثالثة عشرة : الرياح وتغير اتجاهها وحدوث العواصف.

الرابعة عشرة : التذكير والإعتبار بالآيات.

الخامسة عشرة : مدح الذين يوظفون العقل ويتخذونه طريقاً لإدراك أسرار الخلق.

وجاءت الآية بآيات كونية متعددة، وكل كلمة منها تدل على معجزة في الكون وآية في بديع صنع الله، والآيات التي ذكرتها الآية إنحلالية،إذ تتجدد مصاديق كل آية منها لتصاحب هذه الآية الناس وتكون حاضرة في الوجود الذهني، تدعو لعبادة الله والتنزه من الشرك والضلالة.

ولما جاءت الآية السابقة بالإخبار عن إنحصار الإلوهية بالله عز وجل، وأنه الرحمن الرحيم، جاءت هذه الآية بالشواهد على مضامين الآية السابقة، وما يؤكد رحمة الله عز وجل بالناس جميعاً، لتكون عوناً للناس لدخول الإسلام.

ومن الإعجاز أن هذه الآيات حسية تدرك بالحواس لتكون دعوة للناس جميعاً على إختلاف مداركهم ومشاربهم لدخول الإسلام، ومن الإعجاز أن كل آية كونية في هذه الآية دائمية وليس ما دامية، أي أنها دائمة ومستمرة في كل زمان ومنبسطة على الأرض كلها.

ويمكن أن نسمي هذه الآية (إن في خلق السماوات والأرض) وورد هذا اللفظ مرتين في القرآن[1] .

---

(١)أنظر سورة آل عمران ١٩٠.

الآية سلاح

الآية شاهد تأريخي ووجداني ويومي على التوحيد ودعوة عقلية وحسية الى الإيمان، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ويل لمن قرأ هذه الآية فمجّ بها"[1]، أي لم يتعظ بما فيها من المقاصد الشريفة.

لقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بالمدد في سوح المعارك الأولى ملائكة من السماء لنصرتهم، وتفضل سبحانه بآيات القرآن مدداً عاماً للناس، وهو من مصاديق رحمته المطلقة في الدنيا، ودعوة الناس جميعاً للإنتفاع منها.

وتتجلى مصاديق المدد في هذه الآية الكريمة بذكر الآيات الكونية المتعددة، وحث الناس على التفكر فيها وفق قانون العلة والمعلول، وما يسمى بالبرهان الإني وهو الإستدلال من المعلول على العلة، لدلالتها على وجود الصانع وأن الله عز وجل إله كل شيء وبيده مقاليد الأمور، والآية سلاح إحتجاج بيد المسلمين، وبرزخ دون الشرك والضلالة، وبيان لأسباب نزول الرزق الكريم من عند الله بالإيمان والإقرار بالآيات البينات من عند الله.

وتطرد الآية أسباب الشك والريب عن النفوس، ففي كل ساعة تطل على الإنسان آية من بديع صنع الله عز وجل من الآيات التي ذكرتها هذه الآية، لتكون دعوة قهرية للإسلام، وحجة دامغة على عظيم قدرة الله، قال تعالى ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾[2].

---

(1) الكشاف ١/١٥١.

(٢)سورة الأنعام ١٤٩.

أسباب النزول

سألت قريش اليهود في دراسة نوعية مقارنة عن الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام فحدثوهم عن العصا واليد البيضاء، وسألوا النصارى عن الآيات التي جاء بها عيسى عليه السلام فحدثوهم بابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، والكمه العمى الذي يولد الإنسان عليه فقالت قريش عند ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ادعُ الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً فنزداد يقيناً وقوة على عدونا، فسأل ربه ذلك فأوحى الله تعالى إليه أن يعطيهم وإن كذبوا بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، فقال عليه السلام: ذرني وقومي أدعوهم يوماً فيوماً، فأنزل الله تعالى هذه الآية مبيناً لهم أنهم كانوا يريدون أن أجعل لهم الصفا ذهباً ليزدادوا يقيناً فخلق السماوات والأرض وسائر ما ذكر أعظم[1].

وعن عطاء "ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند قدومه المدينة نزل عليه ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[2] فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فانزل الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3]، وعطاء بن دينار الهذلي مولاهم وتوفى في مصر سنة ١٢٦ للهجرة النبوية الشريفة له كتاب في التفسير يرويه عن سعيد بن جبير.

لقد جاءت الآية لبيان الصبغة العقلية والحسية لإعجاز القرآن وهي حجة يومية تواجه الناس وتدعوهم الى التوحيد.

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٨٠/٢.

(٢) سورة البقرة ١٦٢.

(٣) سورة البقرة ١٦٣.

مفهوم الآية

هذه الآية من الرحمة الإلهية وفيها بيان لعظيم إحسان الله على الناس وكأنها متفرعة عن آية التوحيد والدعوة السابقة لما فيها من اللطف والتفصيل لبديع صنعه سبحانه والآيات الكونية الظاهرة والجلية، انها دعوة كونية عالمية للإيمان وإشراك لحواس الإنسان، وحث قهري على توظيف عقله في ميادين المعرفة والتحصيل.

وتتصف هذه الآية بالباس الدعوة إلى الله لباس الشكر والثناء عليه تعالى بلحاظ ما تخبر عنه من النعم.

ومن مفاهيم الآية دوام هذه الآيات والإفاضات منه تعالى على عموم أهل الأرض لذا ورد لفظ الآية " بما ينفع الناس".

وتظهر الآية المائز بين العقل وتوظيفه فكل إنسان رزقه الله عقلاً يعرف به الحسن والقبح ويميز به بين الأشياء ويدرك الأوليات التي يصدق بها لذاتها من غير مقدمات أو وسائط حسية كما يتوصل إلى الفطريات التي تحتاج إلى تصوير طرفيها فيستحضر العقل الوسط المناسب والمقدمات مما يستلزم الطلب والفكر.

وإجماع العقلاء على أن العقل يدرك بذاته مجموعة من المفاهيم وبه قال ديكارت فيما يخص الأمور المجردة والروحية من خارج عالم المادة، ولكن الآية جاءت بالمعنى الأعم فهي تخاطب العقول بالأمور المادية والمجردة واللطيفة وكذا الظاهرة للحواس المتجددة في الليل والنهار.

وتشمل الآيات المذكورة في الآية الحالات الكونية التي تتجلى للإنسان في حضره وسفره لكي تكون صاحباً ملازماً لتذكيره بلزوم طاعته تعالى كما ان آيات السفر يستحضرها الإنسان وهو في الحضر وكذا العكس وهذا الإستحضار المتصل والمستديم يتصف به المسلمون وهو من عمومات قوله

تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١) وبدأت الآية بذكر خلق السماوات والأرض وهي آية كونية عامة ظاهرة للعيان ويدركها الإنسان بعقله ويحسها بحواسه في حله وترحاله وليله ونهاره وداخل بيته وخارجه، ومن مفاهيم الآية بيان فلسفة خلق الآيات الكونية.

انها من مصاديق اللطف الإلهي لما فيها من دعوة الناس للهداية والرشاد ومعرفة الإنسان لحقيقة نفسه وضعفه وموضوع لبعث الخوف والفزع في النفس الإنسانية من عالم الآخرة وما فيه من الأهوال والمخاطر كجزء من عالم الخلق المجهول والذي دل عليه العالم الظاهري والآيات الكونية، ومن إعجاز الآية أنها تجمع بين الآيات الكونية الثابتة والآيات المتحركة.

لقد جعل الله عز وجل الكون يجري وفق نظام دقيق فجاءت هذه الآية للثناء على الله في بديع صنعه، ودعوة للناس لدخول الإسلام والتصديق بنزول القرآن من عند الله، فتتضمن الآية الآيات المكانية والزمانية، والثابتة والمتحركة، وفي الآية مسائل:

الأولى: إن السماء والأرض مخلوقتان، وليس قديمتين.

الثانية: حاجة السماء والأرض إلى الله عز وجل في بقائهما وإستدامتهما.

الثالثة: إن كلاً من الليل والنهار من بديع صنع الله.

الرابعة: دعوة الناس للتفكر بالتباين بين ظلمة الليل وضوء النهار وأسراره ومنافعه.

الخامسة: توكيد حقيقة وهي أن المطر نعمة من عند الله، وفيه حث على الدعاء لنزول المطر والإستسقاء.

السادسة: بيان أسرار جريان السفن في البحار بآية إعجازية مع شدة الأمواج وتبدل جهة الرياح.

---

(١)سورة آل عمران ١١٠.

السابعة: دعوة الناس للتدبر في معجزة سير السفن الكبيرة والصغيرة في البحار والأنهار، وما فيه قضاء حوائج الناس، وإنتقالهم بين الأمصار، مع الأخطار التي تحيط بأهل السفن في رحلاتهم بحيث تنجذب قلوبهم إلى ذكر الله ويدركون الحاجة لرحمته في السلامة من البحر وأهواله وأمواجه حيث لا منقذ إلا الله قال تعالى﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[1].

وكأن السير في البحار عند الإبتعاد عن الأهل والناس وسط البحر مثال لمقدمات الحساب في عالم البرزخ وليس من معين وناصر إلا الله.

الثامنة: جاء ذكر الفلك والسفن من باب المثال الأمثل، فالآية تذكير بوسائط النقل مطلقاً القديمة منها والجديدة فإن قلت أن وسائط النقل الحديثة كالطائرة والقطار من صنع وإبتكار الإنسان فالجواب من وجوه:

الأول: السفن أيضاً من صنع الإنسان.

الثاني: جعل الله البحر والماء لجريان السفن، وكذا بالنسبة للجو وعاء للطائرة، والأرض محلاً لإنتقال وحركة المركبات.

الثالث: ذكر الآية للعلة وهي نفع الناس، وفي النقل بالوسائط البرية والسريعة نفع عظيم للناس.

إفاضات الآية

جاءت هذه الآية دعوة لأرباب الحقيقة على نحو متصل بتعدد الآيات الكونية التي تدل على بديع صنع الله عز وجل وأنه سبحانه خالق ظلمة العدم بنور الوجود، ومفيض كمال كل حي، ورزق الله عز وجل الإنسان العقل والحواس لتجتمع في الإنجذاب إلى التوحيد والإقرار بالعبودية لله عز وجل وهي حرب على الظلم ودعوة للتنزه منه والسلامة من الكدورات، وهذه الآية دعوة للوحدة الإنسانية تحت لواء النعم الإلهية، والآيات التي سخرها

---

(1) سورة الأسراء ٧٠.

الله عز وجل للناس جميعاً.

ومن الإعجاز في الآية تعدد وكثرة الآيات الكونية التي ذكرتها وتشعب مصاديقها، وكل آية منها ظاهرة للحواس، وحجة على الناس جميعاً تجعلهم يدركون حاجتهم إلى رحمة الله.

وتبعث الآية العز والفخر في نفوس المسلمين لحسن إختيارهم الإسلام، ومبادرتهم إلى شكر الله عز وجل على هذه النعم، ومن مصاديق الشكر تلاوة هذه الآية والتدبر في مضامينها والتفكر في مصاديقها.

الآية لطف

تضمنت الآية ذكر آيات كونية قريبة من الإنسان، وتحيط به، وتواجهه في نهاره وليله، لا يستطيع الإستغناء أو الإعراض عنها، وفيه بيان لعظيم صنع الله وأنه قادر على كل شيء، وتفضل فجعل بديع خلقه في السماوات والأرض وما فيهما لخدمة الإنسان وإعانته على أداء وظائفه العبادية، وبرزخاً دون المعصية.

وتطرد الآية الغفلة والجهالة، وتدل على أن القرآن واسطة الفيض الإلهي، وطريق إلى عالم النور، وواقية من شرور النفس الشهوية والغضبية إذ تخبر الآية عن قرب النعم الإلهية من الإنسان وحاجته لإستدامتها والنهل فيها في الحضر والسفر، وتبعث على الإجتهاد في العبادة والتفكر في آيات الله وملازمة الخشية منه تعالى، والإمتناع عن الجحود والإستكبار.

الصلة بين أول وآخر الآية

إبتدأت الآية بذكر أمرين:

الأول: خلق السماوات.

الثاني: خلق الأرض، وذكرتهما مجتمعين بلغة الخلق وهذا الجمع دليل على عظيم قدرة الله وأنه سبحانه لا تستعصي عليه مسألة، وفيه ثناء من الله على نفسه بأن يخبر في الكتاب الباقي إلى يوم القيامة بأنه سبحانه هو الذي

خلق السماوات والأرض وجعل خلق كل فرد منها آية وبينة ودليل على عظيم قدرته، ولم تخبر الآية نصاً ولفظاً عن خلق الله عز وجل لهما وفيه مسائل:

الأولى: جاءت آيات أخرى بالإخبار بأن الله عز وجل هو الذي خلقها قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (١).

الثانية: تدل الآية في مفهومها على أنه لا يقدر على خلق السماوات والأرض إلا الله عز وجل.

الثالثة: تحتاج السماوات في إستدامتها إلى الله عز وجل خصوصاً وأنه ليس من أعمدة تقوم وترتكز عليها، ولأن عمرها ملايين السنين وإبتدأت الآية بخلق السماوات والأرض لما فيها من الآيات والعظمة وبديع الصنع، وشواهد القدرة المطلقة، ومصاديق الآية السابقة بأن الله عز وجل هو الإله ليس له شريك وأنه تعالى هو الرحمن الرحيم فخلق السماوات والأرض رحمة من الله بالملائكة والإنس والجن، وعون للأنبياء في دعوتهم إلى الله، وحرب على الشريك والضلالة، لما فيهما من الحجة والمانع من إنصات الناس للكفار وأهل الشك والريب.

ومن أسرار خلق السماوات والأرض أن الآيات الكونية الأخرى المذكورة في الآية متعلقة بخلق السماوات والأرض وهما وعاء لها، فجاءت آية التباين والإختلاف بسير الكواكب والشمس والقمر وحركة الأرض ودورانها حول نفسها، وهو آية في طول خلق السماوات والأرض، ثم جاء ذكر الفلك التي تجري في البحر، وهناك فارق كبير بين عظمة ما ذكر قبل آية جريان الفلك وبينها وفيه وجوه:

الأول: التوكيد على آية البحار وخلقها وكيف أنها تحيط بالعالم، ويمكن من خلالها الوصول إلى أقصى الأرض.

---

(١)سورة الأنعام ١.

الثاني: الدعوة السماوية لتطوير وسائط النقل المائي والإعتماد عليه في التجارات والمكاسب بدليل تقييد الآية بالنفع.

الثالث: تترشح مضامين لأسرار هذه الآية بالقيد الوارد في قوله تعالى(بما ينفع الناس) وفيه إشارة بأن الله خلق البحار لنفع الناس في الإنتقال بين الأمصار، إلى جانب منافعها الأخرى.

ومتعلق النفع المذكور أعلاه هو جريان الفلك، إلا أنه لا يمنع من المعنى الأعم، فيكون التقدير على ثلاثة وجوه:

الأول: أن في خلق السموات والأرض ما ينفع الناس.

الثاني: إختلاف الليل والنهار بما ينفع الناس.

الثالث: الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس.

ومن الإعجاز في الآية مجيؤها بلفظ الناس وهو من رحمة الله في الدنيا التي تصيب البر والكافر، ولتكون دعوة للناس جميعاً للتفكر في الخلق وإدراك حقيقة وجوب شكر النعم والذي يتجلى بأداء الفرائض، وفيها ما يتخذ البحر ووسائط النقل طريقاً ومقدمة عقلية لأدائها كمناسك الحج المتجددة في كل عام، قال تعالى﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[(1)].

وهي آلة ووسيلة للجهاد إذ أن النفع مركب وشامل للغزاة ولأهل الأمصار التي يتم فتحها، ويدخل أهلها الإسلام، وبعد ذكر الفلك جاء ذكر نزول الماء من السماء لبيان آية عظمى ليس للإنسان فيها موضوعية وأثر، نعم بإمكانه الدعاء والإستسقاء وسؤال نزول المطر، وبينت الآية منافع المطر وأنه من عمومات قوله تعالى﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[(2)]، بلحاظ

(1)سورة الحج ٢٧.
(2)سورة الأنبياء ٣٠.

إرادة الإبتداء والإستدامة، فإن تعاهد الحياة يكون بالماء ويشمل الجماد والنبات والحيوان.

وهل في الآية إنذار من حبس المطر عن الناس إذا شاع بينهم الكفر والمعاصي، الجواب جاءت الآية لبيان فضل الله عز وجل المتعدد على الناس جميعاً وبيان سعة رحمته وعظيم إحسانه على الناس، وهي وعد كريم في إدامة حياة الحيوانات التي جعلها الله سائمة في الأرض، ثم ذكرت الآية تصريف الرياح لما فيه من أسباب إستدامة الحياة وصلاح الأبدان وسلامتها من الأدران، وذكرت الآية الرياح بصيغة المصدر(تصريف) وما فيها من معاني التجدد لبيان أن كل تغيير فيها يتم بأمر من عند الله وليس هي نظاماً ثابتاً كما في سير الشمس والقمر بل يصرف الله الرياح حيث يشاء وهو من عمومات قوله تعالى﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، وقيام وقيام الملائكة القائمين على الريح بما يأمرهم الله عز وجل ومع أن الآية ذكرت نزول الماء من السماء وبيان منافعه العظيمة فأنها ذكرت السحاب على نحو مستقل وأنه مسخر بين السماء والأرض لتوكيد آية سيره وإنتقاله بنظام دقيق من غير أن يرتكز على شيء وفق قانون الجاذبية خصوصاً وأنه جرم وأثقل من الهواء ونعته بأنه(مسخر) دليل على أنه آية من وجوه:

الأول: ذات السحاب آية.

الثاني: جريان السحاب بين السماء والأرض.

الثالث: سير وجريان السحاب إلى جهات مخصوصة، فهو يمر على أراض وأمصار عديدة منها ما يمطر فيها، ومنها لا ينزل مطر عليها، ليكون مروره دعوة للناس لسؤال المطر، والشكر له تعالى على نعمة نزوله.

الرابع: تسخير السحاب لإحياء الأرض، ونفع الناس، وجاءت الآية متصلة بأولها، إذ أن لفظ (آيات) إسم للحرف المشبه بالفعل(إن)الذي إبتدأت

---

(١)سورة يس ٨٢.

به الآية والتقدير(إن الآيات لقوم يعقلون في خلق السموات والأرض).

وفي خاتمة الآية دعوة للتدبر في كل آية من الآيات والدلالات على عظيم قدرة الله التي ذكرتها الآية، وبرهان على سعة رحمته بالناس جميعاً ولزوم عبادته.

من غايات الآية

في الآية مسائل:

الأولى: الثناء على الله عز وجل العظيم قدرته وسلطانه.

الثانية: بيان سعة رحمة الله عز وجل بتسخير المخلوقات العظيمة للناس، من الشواهد الكونية المتجددة على إكرام الله عز وجل للإنسان، وعمومات قوله تعالى﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، فمن خصائص خليفة الله أن يسخر الله عز وجل له المجرات الكونية الواسعة، وكائنات عظيمة، وآيات لا يقدر عليها إلا الله، لذا قال الملائكة﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[2].

وتقدير الجمع بين الآية أعلاه والآية محل البحث الإحتجاج على انتفاع من يفسد في الأرض ولا يؤدي حق الشكر بهذه النعم، والأصل أن يتقي الله ويفعل كما تفعل الملائكة بالإنقطاع إلى التسبيح وطاعة الله، فجاء قوله تعالى﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3]، للإشارة إلى بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإعمار المسلمين الأرض بذكر الله عز وجل فما أن يدخل أوان إحدى الصلوات اليومية الخمس حتى يصطفوا في صفوف متراصة بين يدي الله، ويأتي شهر رمضان فيكون الجامع بينهم في مشارق الأرض ومغاربها بالصيام والإمساك عن المفطرات، وما أن يأتي موسم الحج حتى

(١)سورة البقرة ٣٠.

(٢)سورة البقرة ٣٠.

(٣)سورة البقرة ٣٠.

فيتوجه المؤمنون أهل الإستطاعة من كل صوب وحدب ليجتمعوا في مكة المكرمة فيسمع سكان السماوات تلبيتهم(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك).

وجاءت التوراة الصناعية والفضائيات ليرى ويسمع الناس جميعاً في أمصارهم المختلفة التلبية في أعظم إجتماع إيماني سنوي متجدد في تأريخ الأرض، ليكونوا من أهل خاتمة هذه الآية ومصداق الذين يعقلون ويتدبرون في الآيات الكونية، والسبب في إستدامة النعم على عموم أهل الأرض.

الثالثة: قدمت الآية خلق السماوات والأرض، وفيها وجوه:

الأول: ما فيها من الشواهد على عظيم قدرة الله عز وجل والظاهرة للحواس والمدركة بالعقول.

الثاني: بيان حاجة الإنسان للسماوات والأرض.

الثالث: دعوة الناس للإنتفاع من النعم الإلهية في السماوات والأرض.

الرابع: خلق السماوات والأرض الآية العظمى التي تدل على بديع صنع الله في خلقها وإستدامتها وعائديتها، قال تعالى﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (1).

الرابعة: حث الناس على التدبر في إختلاف الليل والنهار الدوري الراتب، فليس من تغيير في أصل التعاقب بينهما مع الإختلاف الجزئي في الطول والقصر على مدار السنة.

الخامسة: نعمة دوران السفن حول الأرض وسيرها في البحار، والفلك لفظ يقع على الواحد والجمع وقيل هو إسم للدوران خاصة، وجاءت الآية بذكر المنافع والأحمال والتجارات التي تنقلها السفن، وفيه إشارة إلى النفع العامة من السفر والتنقل بين البلدان، وتبادل المعارف وتحصيل الأموال وطلب العلم، ومنافع الإختلاط بين أهل الأمصار، فمن الإعجاز أن الآية لم تحصر النفع بباب مخصوص كالتجارة ونقل البضائع والأحمال، بل جاء ذكر

---
(1)سورة الحديد ١٠.

النفع مطلقاً، وفيه إشارة إلى سعته وتعدد وجوهه وظهور مصاديق مستحدثة منه في كل زمان.

السادسة: جريان أقوات الناس بما ينزل من الماء فضلاً من عند الله عز وجل، ومن الآيات في منافع المطر أنه على أقسام:

الأول: النفع المباشر للإنسان بأن يتخذه للشرب وحاجاته الخاصة كالغسل وأسباب النظافة.

الثاني: نزول المطر وسيلة للزراعة وعمارة الأرض.

الثالث: في الماء إستدامة لحياة الحيوان، وفيه ثروة وغذاء للإنسان من لحمه ومنتجاته ونمائه المتصل كالصوف أو المنفصل كالحليب والبيض.

السابعة: بيان موضوعية الزراعة في إستدامة الحياة على الأرض وحفظ الكائنات البرية والطيور.

الثامنة: إن الله عز وجل هو الذي خلق الإنسان والحيوانات، وكل محتاج إلى واجب الوجود في بقائه.

التاسعة: بيان آية سير الرياح وهبوبها ونسيمها وتغير إتجاهها، ودعوة الناس لذكر الله وإستحضار عظيم قدرته عند هبوب الرياح وتغيرها.

العاشرة: آية السحاب وقطعه مسافات طويلة محملاً بالماء إلى أن يأذن الله عز وجل بنزوله.

الحادية عشرة: فضل الله عز وجل في تعدد الآيات الكونية، وتسخيرها للناس للإتعاظ بها وبمنافعها وإتخاذها وإستحضارها في الذهن مناسبة لذكر الله عز وجل.

التفسير

في الآية مسائل:

الأولى : من الآيات الدالة على الوحدانية تفضل الله تعالى بخلق وابتداع السماوات والأرض من غير مثال ولا شبيه يحتذى لبيان التعدد والتركيب في الآيات إنشاء وموضوعاً.

الثانية : الإبتداع وحده آية مستقلة لا يمكن أن يدرك كنهها أو يصل إلى تكوين فكرة عنها أحد من الخلائق.

الثالثة : الآية تدعو للتفكر والتدبر في بديع صنع الله تعالى كطريق معبد وسالك للإقرار له سبحانه بالوحدانية ونفي الشريك.

الرابعة : يساهم القرآن في حث الكفار على دخول الإسلام بالإصغاء النوعي العام لآيات التوحيد.

الخامسة : طرح المدركات العقلية بصيغة المحسوس الذي يستطيع كل إنسان تلمسه.

السادسة : إرادة تنبيه الناس ولفت أنظارهم إلى أعظم الآيات التي تصاحبهم كل ساعة في حياتهم الدنيا، فقد تنسي المصاحبة الإنسان إدراك ما يتصف به الصاحب من الخصائص ولا يلتفت إليها إلا حين مغادرته والفراق، وهو في المقام الموت حيث لا ينفع الندم.

السابعة : الإلتفات إلى بديع صنع السماوات والأرض مناسبة كريمة لدوام هذه النعمة، قال تعالى وأرباب العقول ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1].

الثامنة : خلق السماوات والأرض والآيات الأخرى المذكورة في هذه الآية مصاديق لرحمته تعالى بالناس.

---

(1) سورة آل عمران ١٩١.

التاسعة : الله سبحانه إله في الأرض وإله في السماء، فالأجرام العلوية خلقاً وإستدامة لم تكن إلا بأمره وقدرته ومشيئته تعالى.

العاشرة : الخلق هو إخراج الشيء من العدم إلى الوجود وإيجاد الفعل إختراعاً بالقدرة القديمة الأزلية ومن غير آلة أو سهو أو عبث، فالآية توكيد للوحدانية، قال تعالى﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[1].

الحادية عشرة : الآية دعوة للبحث والتحقيق في أسرار السماوات والأرض وبديع صنعها.

الثانية عشرة : تحمِّل الآية الكريمة أهل العلم من المؤمنين مسؤولية توظيف الإكتشافات الجديدة في النظام الكوني وفي كل رسالة لإثبات وجود الصانع.

الثالثة عشرة : قراءة أسرار وأحوال السماوات والأرض في القرآن وما تخبر به آياته.

الرابعة عشرة : التحدي الخالد في خلق السماوات والأرض ومنافعه المركبة والمتعددة ومنها منع الغفلة عنها عند بيان العلوم الحديثة للسير المنظم للكواكب والأجرام، فمثلاً ما يجري خارجاً من الكسوف والخسوف وإخبار الرصدي عنهما قبل أوانهما وبالدقة العقلية وزوال خوف الناس من حصولهما لا ينفي القدرة الإلهية في الخلق والتكوين.

الخامسةعشرة : إستقراء عظمة خلق السماوات والأرض من العلوم الجديدة بتفصيل دقة الصنع فيها.

السادسة عشرة : إستثمار صعود الإنسان في السماء وزيارته الكواكب الأخرى في تثبيت أركان التوحيد وإيجاد وجوه المطابقة بين ما يتم إكتشافه وبين علوم القرآن بما يظهر إعجازه.

السابعة عشرة : يتجدد تفسير هذه الآية بالعلوم الفلكية الحديثة ويمكن القول أن شطراً من أسرارها لم يستظهر بعد.

---

(1) سورة الأنبياء ١٦.

قوله تعالى ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾

الأولى : أي إختلافهما في الصفات والمسمى، فالنهار تطل علينا فيه الشمس بضيائها بخلاف الليل حيث تغيب ويطلع القمر ويبدأ رحلته في أول الشهر هلالاً ثم يكبر إلى أن تكمل دائرته وسط الشهر يبدد ظلمة الليل ثم يأخذ بالنقصان وهكذا.

الثانية : إختلاف الليل والنهار بالطول والقصر بأن يكون أحدهما أطول من الآخر.

الثالثة : الإختلاف الذاتي لكل منهما في أفراده الطولية بأن يكون نهار الصيف أطول من نهار الشتاء والعكس بالنسبة لليل بأن يكون ليل الشتاء أطول من ليل الصيف.

الرابعة : الإختلاف في الصيام والإفطار فيوم شهر رمضان وليلته وما فيه من الفعل العبادي والبركة يختلف عن باقي أيام السنة.

الخامسة : اختلاف درجة الحرارة والبرودة فيهما بسبب ضياء الشمس.

السادسة : التباين بينهما فالنهار ظرف للعمل والكسب وطلب المعاش، والليل سكن وكل منهما نعمة ورحمة.

السابعة : آية إختلاف الليل والنهار فضل من الله تعالى وهو من عمومات بديع الخلق، قال تعالى﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[1].

الثامنة : إمكان تدارك ما فات في أحدهما من العبادات باتيانه في الآخر وهو خلفه سواء كان نهاراً او ليلاً، لذا ترى صلاة القضاء تؤدى في أي وقت فاذا فاتت صلاة الظهر ولم تصل في وقتها فيجوز أن تصلى قضاءً في الليل مثلاً.

التاسعة : في إختلاف الليل والنهار شمول زماني ومكاني لإستدامة

---

(١) سورة فصلت ٣٧.

التوجه إلى القبلة، فهذا البلد يدخل فيه وقت صلاة الظهر، وهذا تؤدى فيه بنفس الساعة صلاة المغرب، وهذا صلاة الصبح وهكذا، فلا يمر أوان إلا والإستقبال منبسط على الأرض كسبب عبادي لدوام الحياة ونزول الرزق.

العاشرة : إعتبار الواو في ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إستئنافية فيكون المعنى الإختلاف الحاصل في أفراد النهار الطولية بعضها طويل وبعضها قصير ويختلف أوان طلوع الشمس أو زوالها ومغيبها فيه، وكذا بالنسبة لليل لتقاسمهما ساعات معينة في اليوم وليلته، فما يزداد وقت أحدهما الا وينقص الآخر.

الحادية عشرة : إنبساط الإختلاف على كل يوم وليلة، فكل يوم وليلته يختلف عن الآخر على مدار السنة بلحاظ أوان الشروق والغروب أو إطلالة الشمس ومنزل القمر وما يجري فيهما من الحوادث وتجدد رحمة الله تعالى في كل يوم.

الثانية عشرة : الملازمة بين إختلاف النهار والليل وحالات الشمس وحركاتها ومطالعها.

الثالثة عشرة : النظر للمعنى اللغوي للإختلاف وهو التعاقب والتردد في الذهاب والمجيء، فما أن ينقضي الليل حتى يطل علينا النهار مرة أخرى.

الرابعة عشرة : كل يوم وكل ليلة هما غير اللذين سبقاهما فلذا يقال: "ما كرّ الجديدان" أي الليل والنهار.

الخامسة عشرة : إطلاق الآية وشمولها للأرض جميعها بما في ذلك المنطقة القطبية فترى فيها الإختلاف والتعاقب بين الليل والنهار، وإن كان أحدهما لا يأتي إلا بعد ستة أشهر على الآخر، وتلك آية إعجازية أخرى وتتضمن معنى الإختلاف أيضاً بأن تعاقب الليل والنهار عندنا كل أربع وعشرين ساعة، وهناك تعاقبهما لا يكون إلا مرتين في السنة وكأنها أمارة على ضبط السنة كتوقيت كوني وعالمي دائم يتعاهد عدة الشهور قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ

عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾[١].

بحث فقهي في كلمة اختلاف

في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إختلاف أمتي رحمة"[٢]، وقد ذكره في الجامع الصغير وقال: أخرج بغير سند"، وعدّه بعض العلماء الإختلاف في فروع الدين.

وعبد المؤمن الانصاري قال: "قلت للصادق عليه السلام: ان قوماً يروون ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "اختلاف أمتي رحمة"، فقال: صدقوا، فقلت:إن كان إختلافهم رحمة فاجتماعهم عذاب، قال عليه السلام: ليس حيث تذهب وذهبوا إنما أراد قول الله عز وجل ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٣] فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويختلفوا إليه فيتعلموا ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلموهم إنما أراد إختلافهم من البلدان لا إختلافاً في دين الله، إنما الدين واحد"[٤].

وقوله عليه السلام(ليس حيث تذهب وذهبوا) جاءت على نحو التنكير مما يحتمل عدة وجوه، مع إحتمال التباين بين الذي يذهب إليه السائل والذي يذهب إليه القوم، وإن كان الأرجح هو الظاهر من كلام السائل وإرادته مفهوم المخالفة.

وصحيح أن الرواية ضعيفة لا أقل بأحمد بن هلال العبرتائي وورد فيه ذم وتحذير عن الإمام عليه السلام وبضعفه قال مشهور الرجاليين وان كان ظاهر

---

(١) سورة التوبة ٣٦.

(٢) تفسير القرطبي٤/١٥٥.

(٣) سورة التوبة ١٢٢.

(٤) بحار الأنوار / الجزء الأول / ص٢٢٧ رواية ١٩ باب ٧.

النجاشي الأخذ بروايته، وقد بينا ذلك تفصيلاً في الجزء الاول من تقريرات بحثنا الخارج في الفقه الموسوم "كنوز الشرائع"، فالإمام ينفي ان يكون له مفهوم مخالفة ويعطي للحديث تأويلاً وتفسيراً غير المتبادر من ظاهره، الأمر الذي يدل بالدلالة التضمنية على توكيد الحديث، وضعف السند لا يضر لإنجباره بالشهرة وذكره في الجامع الصحيح[1] وغيره.

قوله تعالى ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾

في الآية مسائل:

الأولى : نعمة جريان السفن في البحار والأنهار لنقل الناس والمتاع والأرزاق من بلد إلى بلد آخر وفق المصلحة والنفع العام.

الثانية : في الآية نكتة عقائدية وهي ذكر الفلك والسفن – وهي من صنع الإنسان – مع عظيم آياته الكونية للدلالة على خلق البحار والماء ووظيفتها وتسخيرها للناس في حوائجهم وتنقلهم بفضل الله، قال تعالى﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾[2].

الثالثة : ذكر جريان السفن في البحر لا يمنع من أهمية منافعه الأخرى.

الرابعة : الفتوحات الإسلامية في البحار وأداء الفرائض كفريضة الحج لمن يسلك طريق البحر آية من الله تعالى، ولبيان بديع صنعه في البحار وتشعب منافعها وإتساع دائرة تسخير الإنسان لها.

الخامسة : سُمي البحر بحراً لإنبساطه وسعته، وقيل: لأنه شق في الأرض، وبكلا المعنيين إعجاز كوني، وموضوع الآية يتعلق بأسرار الحال، والبيان يشمل آيات الخلق في المحل.

السادسة : في الآية إخبار عن الحاجة إلى رحمة الله تعالى في تسيير الفلك،

---

(١) السيوطي/الجامع الصغير.

(٢)سورة لقمان ٣١.

ووصولها إلى الساحل بأمان، فلو كانت أمواج البحر عاتية شديدة لما إستطاعت الفلك والسفن أن تجري فيه بأمان سواء الشراعية القديمة منها أو الصناعية الحديثة.

السابعة : تمنع الآية الإنسان من نسبة جريان الفلك في البحر إليه وإلى إبداعه وصناعته وتطويره للسفن، وهذا المنع حاجز عن الغرور، ودعوة للإيمان والإقرار بالتوحيد.

الثامنة : إن الله عز وجل جعل البحار وعاء مناسباً لإنتقال الفلك وأرشد الناس إلى صناعتها بواسطة أنبيائه كما في قيام نوح عليه السلام بعمل الفلك مع أعراض غير المؤمنين عنه ، قال تعالى ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[1].

التاسعة : لعل في ذكر الفلك إشارة إلى تسخير المركبات البرية كالسيارات والطائرات في الجو لنقل الإنسان.

العاشرة : إن الله عز وجل جعل الأرض منبسطة صالحة لحركة المركبات، وصيّر سكون الهواء وعاء ومحلا لحركة الطائرات السريعة وقطعها المسافات، وجاء ذكر الفلك من باب المثال وليس الحصر.

الحادية عشرة : جريان الفلك في البحر مناسبة لتفكر الإنسان في بديع صنع الله تعالى، فهناك مواطن في أعماق البحار وطولها لا يصلها الإنسان إلا باستعمالها في أسفاره.

الثانية عشرة : في الآية إخبار إعجازي عن حاجة الإنسان المستمرة إلى الإنتفاع من البحر، وأنت ترى التشعب في وسائط النقل والحمولة وإستخدام الشاحنات وطائرات الشحن والطرق الحديثة الثابتة كأنابيب النفط والغاز، ولكن أفضلية النقل البحري ظاهرة بوجوه عديدة، ولعل هناك وجوهاً

(1) سورة هود ٣٨.

وخصائص يتصف بها النقل البحري لم تظهر بعد.

الثالثة عشرة : مع خطورة ركوب البحر وهول سلطانه لاسيما حال هيجانه وإضطراب أمواجه فإنه يوصلك إلى غايتك ومقصدك في الغالب الأعم.

الرابعة عشرة : ركوب السفن مناسبة للدعاء والتأمل في قدرة الله تعالى واللجوء إليه لما يبدو في البحر من المخاطر والأهوال وعند إضطراب الأمواج والإنقطاع عن الناس وأسباب العون والمدد، قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[(١)].

الخامسة عشرة : حمل البحر للسفينة والباخرة وعدم غرقها آية منه تعالى، مع ان السفينة أثقل من مقدار الماء الظاهر الذي تطفو عليه.

السادسة عشرة : البحر آلة ووسيلة لتحقيق الفتوحات الإسلامية، وهو مسخر للمسلمين وللناس جميعاً في أسفارهم وتجاراتهم.

السابعة عشرة : مناسبة اتجاه الريح في تسيير السفن الشراعية وتحريكها الى جهة معينة مقصودة ليتم النفع منها.

الثامنة عشرة : إطلاق الآية وعدم تعرضها لفضله تعالى بتسخير الريح واتجاهها لحركة السفن فلولاها ما كانت السفن تصل إلى السواحل والبلاد المقصودة، واستمرت الحاجة إلى الريح وموضوعيتها في النقل البحري إلى عصر النهضة، فعدم تعرض الآية لأهمية اتجاه الرياح من إعجاز القرآن الخاص بهذا الزمان، وان حركتها في البحر وحدها آية من عنده تعالى.

التاسعة عشرة : كيفية سير الفلك في البحر وما فيها من العجائب دليل على وجود الصانع سبحانه خالقاً ومبدعاً ومدبراً.

العشرون : إن الله عز وجل يرحم الناس في أرزاقهم وفي وسائط وأسباب

---

(١)سورة يونس٢٢.

هذا الرزق ومقدماته، وجعلهم ينتفعون منه الإنتفاع الأمثل.

الحادية والعشرون : لو لم ينعم الله عز وجل علينا بسير السفن في البحار والأنهار لتعذر صيد السمك أو لأصبح قليلاً، فإذا إنحصر الصيد على الساحل وحافات الأرض لغار السمك في عمق البحار ولما إقترب من أطراف المياه، ولتعطلت تجارة اللؤلؤ والمرجان.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: "البحر كله نار في نار، وأيضاً روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يركبنّ رجل بحراً إلا غازياً أو معتمراً، فان تحت البحر ناراً، وهذا يدل على الإعجاز في تسخير الفلك والبحر معاً لخدمة الإنسان، ويبين موضوع الاستفادة منه وفق أحكام الشريعة ولعل في الحديث إشارة إلى كنوز تحت البحار لم تكتشف بعد تصلح أن تكون مصدراً للطاقة، ومنها النفط.

قوله تعالى ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾

في الآية إعجاز وهو إظهار النفع وحده مع أن جريان الفلك يأتي بالنفع وأحياناً يكون فيه ضرر أو انه يوظف للضرر والأذى وذكر النفع وحده فيه وجوه:

الأولى : جاءت الآية لبيان النعمة.

الثانية : الأصل والأكثر في البحر النفع والفائدة، أما الضرر فهو أمر عرضي يترشح عن ذنوب الإنسان وتقصيره في موارد العبادة ، قال تعالى﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

الثالثة : إن الضرر أمر عارض بسبب إتباع الهوى والنفس الشهوانية والوساوس الشيطانية، أو أنه موضوع للإبتلاء ومناسبة للأجر والثواب.

الرابعة : الآية بشارة التخلص من الأضرار والمخاطر في النقل البحري في

(١)سورة النحل ١١٨.

الجملة وسيادة النفع العام من الفلك سواء بارتقاء صناعة السفن أو بتحسين ومضاعفة أسباب السلامة.

الخامسة : في الآية تأديب للناس وإخبار عن الخطأ والذنب في تسخير البحر ووسائط النقل فيه للشر والأذى.

السادسة : النفع الوارد في الآية أعم من النقل فهو يشمل صيد الأسماك البحرية والثروة المائية وخزائن البحار مطلقاً.

السابعة : تدعو الآية لإستنباط واكتشاف صيغ متعددة لاستثمار النقل البحري في أبواب متعددة ومختلفة.

الثامنة : تحث الآية على وضع ضوابط عالمية دقيقة للسلامة البحرية سواء في السفن أو الموانئ خاصة مع وجود أجهزة الإتصال السريع والإنذار المبكر، وإمكان حضور طائرات الإنقاذ وغيرها عند الضرورة والحاجة، وبذا يصبح النقل البحري يختلف عن النقل الجوي بإمكان إنقاذ جميع أو بعض ركاب السفينة عندما تشرف على الغرق او تتعرض للتلف ويصيبها الخلل.

التاسعة : فيها دعوة للإنتفاع الأمثل من البحر وكأنها توصي بعقد مؤتمر عالمي لإقرار إتفاقية دولية تنظم سنن البحار وبما يجعلها خالية من الضرر بالناس مطلقاً.

العاشرة : لعل في الآية إنذاراً من سوء إستعمال الفلك وإتخاذها لغير ما سخرت له مما يسبب زوال نعمة البحار، فليس من الغلو القول بان هذا التسابق في إستخدام البحار للأغراض العسكرية واحتمال تكرار المعارك فيه يؤدي إلى ظهور فتنة نقص مياه البحار وإنكشاف بعض أطرافه، تلك الفتنة التي ستكون لا سامح الله مصدر فزع لأهل الأرض جميعاً ولم يلتفتوا إلى أصلها وهو عدم إستثمار هذا النعمة وتبديلها وتوظيفها للحرب والشر والأذى وإظهار قوة وأسلحة الفتك والدمار في غير مرضاة الله وإستغلال البحار لإرهاب المسلمين مثلاً بالمباشرة أو بالتسبيب، نسأله تعالى نماء نعمة

البحار والأنهار بفضل منه تعالى وعدم مؤاخذتنا بما يفعل السفهاء وأهل الدنيا.

وما يدريك لعل الفتنة والإبتلاء بنقصانها رحمة للمؤمنين وتخفيف عنهم وانذار للكافرين، ولكن الله سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فهو القادر على إبقاء نعمة البحار مع إتساعها وجريان الفلك فيها للتجارات والمعاشات والمكاسب، خصوصاً أن الآية وردت بصيغة المضارع مما يدل في ظاهره على الدوام والإستدامة وتوكيد ذكرها إعجاز وإشارة إجمالية إلى دوامها بالإضافة إلى كثرتها وجعل مائها شديد الملوحة ، وليكون في السير في الأرض التي كانت بحاراً من مصاديق آية البحث والإتعاظ مما أصاب المكذبين بالآيات.

الحادية عشرة : من آياته سبحانه أنك ترى أن إجرة النقل في البحار زهيدة وأقل بكثير من أجرة الوسائط البرية والجوية، وان المقادير الكبيرة من الحمولات لا يصلح لها إلا البحر، فان قلت ان هناك بدائل كأنابيب نقل النفط وإمكان ربط المشرق بالغرب بل العالم كله بشبكة من الأنابيب قلت:

أن الحاجة إلى البحر لا تنحصر بالنقل بل تشمل الثروات العظيمة والكنوز الموجودة فيه، وهي توليدية كالثروات السمكية.

الثانية عشرة : لا بأس في المقام من دراسة إسلامية ولو إجمالية تبين منافع البحار ومقدار الثروة السمكية المستخرجة كل عام وعدد المنتفعين منها في العالم إلى جانب ثروات اللؤلؤ والمرجان.

الثالثة عشرة : إن الأنابيب لا تصلح لنقل كل شيء فهي تنقل النفط وهو ثروة ناضبة مع بقاء البحار، والسفن تستعمل لشتى وجوه النقل.

الرابعة عشرة : إن تلك الشبكة غير مأمونة المخاطر خصوصاً في المناطق غير المستقرة سياسياً.

الخامسة عشرة : إن الله واسع كريم وحينما تغيب عن أهل الأرض نعمة

فإنه تعالى يقيض أسباباً لنعمة أخرى بديلة، ولكنها ومع الجحود وعدم الشكر المناسب قد تكون باهضة التكاليف وتحف بها المشاق والعناء.

السادسة عشرة :تحث الآية على إظهار عظيم النعمة في ركوب البحر فلا بأس ان تصنف بعض الكتب في منافع البحر وركوبه بدأً من السفينة التي صنعها نوح عليه السلام ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[1]، وعبور موسى عليه السلام وبني إسرائيل البحر وغرق فرعون وقومه، وتسخير المسلمين للبحر في الفتوحات وبيان الأضرار في سوء إستخدامه لغير مرضاة الله، وكيف إنتفع المسلمون الأوائل من البحر وقوّى الله عز وجل قلوبهم على ركوبه وإقتحام المخاطر جهاداً في سبيله مع أنهم أهل بادية، وإستخدموا وسائل بسيطة وبدائية، ومع إفتقارهم إلى الخبرة والتجربة في ركوبه إتخذوه وسيلة للجهاد والفتح من الوهلة الأولى لركوبه بعزيمة الإيمان وقصد القربة، وإبراز هذه النعمة بدراسات وثائقية ومقارنة وتأريخية وجغرافية وسياسية وإقتصادية وأخلاقية ومالية محضة مقرونة بشواهد من القرآن والسنة.

قوله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾

الأولى : تذكير بنعمة نزول المطر الذي يصيب البر والفاجر.

الثانية : إن النعم المذكورة في الآية نعم نوعية عامة تصيب جميع الناس.

الثالثة : هل المراد من السماء جهة السماء، أم السحاب، الخلاف صغروي، ويحمل الكلام على ظاهره فالمراد منه جهة السماء، كموضع ينزل منه المطر، ويدخل السحاب لغة في معنى السماء لأنه في جهة العلو.

الرابعة : أطلق لفظ الماء على المطر دلالة على كثرة المطر وان نزوله يتم بتقدير وعلم منه تعالى بحسب الإستحقاق والزمان والإستدراج أو الفضل

---

(1) سورة هود ٣٦.

الإلهي، ولإرادة تعدد المنافع والمصالح من نزول المطر وأنه لا ينزل بما يخرب البلاد ويهلك الزرع إلا أن يشاء الله.

الخامسة : تطرد الآية الغفلة عن علة نزول المطر، وفيها تنبيه وموضوع إضافي ضروري للدراسات العلمية عما يتوقع نزوله من الأمطار بأنها من الله تعالى وقابلة للزيادة بالدعاء والصلاح.

ولو صار شطر من المطر ينزل بالمعالجة والطرق العلمية والتسخين والتسيير والتحكم بهطوله كلاً أو جزءٍ عن بعد فهل يبقى من مصاديق الآية الكريمة وأنه من عند الله أيضاً ، الجواب نعم من وجوه:

الأول : نزل من السماء فهو من عند الله وإن كان بالأسباب والوسائط.

الثاني : موضوعية هيئة الكون.

الثالث : قانون جاذبية الأرض.

الرابع : قابلية الماء للإستحالة إلى بخار بقدرة الله وعودته وكثافته من جديد بآية منه تعالى.

الخامس : مدخلية الريح وإتجاهها وسرعتها وفي التنزيل﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[1].

السادس : عدم وجود موانع طبيعية بين السماء والأرض تحول دون جريان السحاب.

نعم لابد من قوانين وأنظمة دولية تمنع من التصرف بكمية الأمطار والماء والمتبخر من البحار والجهة التي تتوجه إليها، للزوم الحفاظ على الثروة المائية ومياه البحار وعدم الظلم والتعدي في سير السحاب وحجبه عن بعض الأمصار والمواضع

(١)سورة الروم ٤٨.

قوله تعالى ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

الأولى : في الآية بيان النعم المتفرعة والمتولدة من نزول المطر، فبه ينبت الزرع الذي يعتبر حياة للأرض ونماء للنبات وما فيه من الخير وإنتفاع الناس منه في أقواتهم ومعاشاتهم.

الثانية : قيل أن المراد إحياء أهل الأرض، والأول أظهر لأن الحياة في الآية تعلقت بالأرض وهو أمر محسوس، ولا مانع من إجتماع الأمرين.

الثالثة : من إعجاز الآية أنها لم تذكر المطر وخروج النبات وأنواع الثمار كسبب للحياة فقد يأتي زمان على الناس تكون معيشة شطر من الناس على المنتجات الصناعية ولو في الجملة لتبقى كل آية من آيات القرآن نابضة بالحياة وملائمة لروح العصر.

الرابعة : تدعو الآية للتوجه إلى الباري عز وجل في عمارة الأرض والحصول على الأقوات.

الخامسة : تظهر الآية الملازمة والتداخل بين أسباب المعيشة في الأرض وإتحاد المصدر، وأنها جميعاً نعمة من الله تعالى، فلولا البحار لما كان المطر، ولولا المطر لما ظهر النبات والكلأ والعشب، ولولاهما لما عاش الحيوان.

السادسة : إحياء الأرض بالمطر والنبات يعني توقف بقائها على نعمة المطر والزراعة اذ لا واسطة بين الحياة كأمر وجودي وحصول الموت، فإن قلت: إن الموت مذكور في الآية لذا يحمل على المجاز، قلتُ: إن الموت المذكور في الآية مؤقت وخاص بالأرض وتدل عليه قرائن وشواهد كثيرة، يصيب الأرض الجفاف لمدة أو ينقطع عنها المطر في غير موسمه ثم يأتي مندفعاً مباركاً، فتصبح الأرض نضرة ذات بهجة، فيتجدد النشاط والأمل في النفوس.

السابعة : إحياء الأرض بالنبات والمزروعات تذكير بوجود الصانع وإستحقاقه العبادة والشكر.

الثامنة : فيه تنظيم لمعائش الناس وحياتهم الإجتماعية والإقتصادية

لإرتباطها قهراً بمواسم الزراعة والحصاد وجني الثمار، وهو أوان لإخراج الزكاة والحقوق الشرعية لتكون مناسبة كريمة لإتيان الفرائض التي تعتبر باباً لدوام النعم.

بحث اجتماعي

بغض النظر عن الخلاف في أهلية العقل مجرداً للحكم كما ذهب إليه المعتزلة وانه مؤهل لمعرفة الحسن والقبح الذاتيين في الأفعال أو أنه تابع للشرع كما ذهب إليه الأشاعرة وأن الحسن ما حسنه الشرع، والقبح ما قبحه الشرع فان العقلاء على مر العصور إتفقوا على حرمة خمسة أمور وأطلق عليها إسم الأصول الخمسة النظامية وهي:

الأولى : قتل النفس المحترمة بغير حق.

الثانية : الزنا والفاحشة.

الثالثة : الظلم والتعدي على الآخرين ويشمل ايضاً ظلم النفس بما لا يحتمل.

الرابعة : السرقة ونهب أموال الغير.

الخامسة : ترك الصنائع التي يحتاج اليها الناس ولها موضوعية في حفظ النظام العام.

والزجر عن كل أمر منها يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء الأرض وجعلها صالحة للزراعة من أسباب بقاء الحياة في الأرض ودوام عبادة الله سبحانه.

قوله تعالى ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾

الأولى : حال إحياء الأرض بالنبات إذ أن أرزاق الخلائق والحيوانات متعلقة منذ بدء وجودها على النبات والزراعة في الأعم الغالب.

الثانية : جاءت الآية بصيغة الماضي لأن إستدامة وجود الإنسان والكائنات الحية ليس بقدرتها الذاتية بل بفضل وتقدير من الله تعالى.

الثالثة : كما إحتاج العالم في وجوده إلى الصانع فإنه لا يستغني في بقائه ودوام الحياة مطلقاً النوعية والشخصية، البشرية والحيوانية والنباتية عن الباري عز وجل وان تعددت أفراد العلل فانه لا يستلزم التسلسل أو الدور.

الرابعة : العلة الطبيعية المحسوسة والمدركة بالوجدان لا تنفي العلة الواجبة بل تثبتها.

الخامسة : من نعمته تعالى تعدد أشكال وصور الحيوان والدواب وتباينها بحسب المناخ والبيئة واختلاف كميات المطر النازلة على نحو متفاوت زماناً ومكاناً.

السادسة : إحياء الأرض ليس علة تامة للحياة وديمومتها، ولكنها سبب مبارك تم بمشيئته، وقد أنعم الله عز وجل على الإنسان بالعقل وسخر له الأشياء وجعله قادراً على إبتكار أسباب دوام الحياة، ولكنه سبحانه خفف عنه وأراد له أن يتنعم بشطر من جهده العقلي والبدني في طاعة الله بدلاً من إنشغاله التام بأسباب المعيشة.

قوله تعالى ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾

الأولى : موعظة وتذكير بالنعم التي تحيط بها السماوات والأرض، وبيان لما فيها من الإعجاز وما تدل عليه من عظيم القدرة، وهو أمر مركب متكون من القدرة على أصل الريح، والثاني في تقليبها وتغييرها وتبديل إتجاهها.

الثانية : ظاهر الآية أن تغير سمت وإتجاه الريح وسرعتها ونحوها ليست أموراً طبيعية تتم وفق عللها الطبيعية الممكنة كما يعتقد علماء الطبيعة بل أنها

تتغير ذاتاً بأمره وإذنه، تعالى وتصريفها يحمل على وجوه:

الأول : تغيير إتجاهها بأن تكون شمالاً أي من جهة الشمال وتسمى حائلاً، او جنوباً وتسمى لاقحاً، وريح الصبا من جهة الشرق، والدبور من جهة الغرب، وقد تكون جهتها أكثر سعة وتداخلاً وبرزخاً بين اثنين من هذه الأربعة، فاذا كانت بين الصبا والشمال فهي النكباء، واذا كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربياء.

الثاني : بعض الرياح يأتي بالرحمة والمنفعة فتكون سبباً لتلقيح النبات وتطييب المكان برفع الروائح الكريهة وتجفيف الرطوبات وتسيير السحاب وما فيه حياة الإنسان والحيوان والنبات، وبعضها يأتي بالعذاب والأذى والعواصف المدمرة، وعن ابن عباس: لا تسبوها فإنها تجيء بالرحمة وتجيء بالعذاب ، ولكن قولوا : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً) [١].

الثالث : تصريفها تباينها وانتقالها وتغير حركتها من بلد إلى آخر، ومن زمان إلى آخر، فتراهم يعرفون أوان زوبعة الرياح وهيجانها، فالآية تذكرهم بان هذا الهيجان أو ضده من سكون الريح ليس امراً منحصراً بالطبيعة بل هو من عند الله وبأمره، الأمر الذي يستلزم الشكر والدعاء والتوسل لرفع الأذى والشر المصاحب لحركة الريح.

الرابع : جاءت هذه الآية لطرد الغفلة والجهالة، إذ أن آية الرياح وهبوبها وتصريفها وتغييرها لم يلتفت إليها بما يناسب عظمتها ضمن بديع صنعه تعالى، وكيف ان كل الخلائق تعجز عن تنظيمها وسوقها للحظة واحدة خاصة مع خفة الهواء وتغشيه لما بين السماوات والأرض، ومع هذا لم تعط ما يناسبها من التدبر والتذكر والشكر للباري عز وجل والإقرار بربوبيته.

الثالثة : بيان حقيقة إنصياع الرياح لأمره تعالى وعدم إرتباطها المجرد بأحوال الطبيعة يجعل الإنسان يلجأ إلى الله عز وجل في تبديل إتجاه الرياح

---

(١) الدر المنثور ٣٣١/١.

وهبوبها وتصريفها بما يلائم حاجته ويحقق منفعته.

الرابعة : استحضار بديع خلقه وعظيم قدرته تعالى عند هبوب الرياح لما رسخ في الذهن من استجابتها المطلقة لأمره تعالى وفي الآية تحد ولا يقد على تصريفها إلا الله عز وجل، لذا ورد من أوقات استحباب الدعاء هبوب الرياح، وفي صحيحة زيد الشحام عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "اطلبوا الدعاء في اربع ساعات عند هبوب الرياح وزوال الافياء ونزول القطر..." الحديث[1].

الخامسة : الإخبار عما في تصريف الرياح حركة وسكوناً من المنافع العظيمة وملائمة الطباع ونضوج الثمار.

السادسة : ورود نعت ﴿ الْمُسَخَّرِ ﴾ للسحاب فيه دلالات على عدم وقوف الهواء في الجو وأنه في حركة دائمة تتسع أو تضيق أحياناً أو بحسب المكان.

السابعة : الرياح من جنود الباري عز وجل وتسخيرها وتذليلها له معاني مختلفة فهو رحمة للمؤمنين، وقد يكون أستدراجاً أو عذاباً للكافرين.

الثامنة : لقد جعل الله عز وجل ملائكة قائمين على توجيه الرياح وإتجاه مسيرها ومقاديرها، (وعن أمير المؤمنين عليه السلام: لم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يد ملك، إلا يوم عاد فانه اذن لها دون الخزان فخرجت فذلك قوله تعالى ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[2].

التاسعة : لقد إستفاد الإنسان من الرياح في حركة وسير السفن وفي تشغيل بعض المطاحن ونحوها، فالآية تذكر الإنسان بالنعمة الإبتدائية التي كان توظيفها حاجة لعمله.

العاشرة : لم ينحصر الإنتفاع بالرياح في الأزمنة القديمة بل هي نعمة دائمة لتيسير بعض الآلات، ومنافعها في الأزمنة اللاحقة متنوعة ومتعددة بلحاظ

---
(١) الوسائل ١٧٠/٤.
(٢) سورة الحاقة ٦.

الإرتقاء العلمي السريع والحاجة وقلة الكلفة.

الحادية عشرة : من إعجاز الآية أن الآيات المذكورة فيها متلازمة وكل واحدة منها مبنية على الأخرى، فالآية تمنع من الخلط والنظرة الجامعة المتحدة القاصرة وحدها، وتدعو إلى التفكيك بينها كنعم وآيات من غير أن يتعارض ذلك مع النظر لها بصفة الإتحاد.

الثانية عشرة : تبديل وتغيير اتجاه الرياح تترشح عنه منافع إضافية فإذا هبت رياح الجنوب يأتي معها خير وتكون سبباً للتلقيح، واذا هبت الشمال وهي تقابل الجنوب فانها تنشف الرطوبات، ويقول العرب للإثنين من الناس إذا كانا متصافيين: ريحهما جنوب، واذا تفرقا: شَمَلَت ريحهما، وقال الشاعر:

لعمري، لئن ريح المودة أصبحت

شمالاً، لقد بُدّلت وهي جَنُوبُ

بالإضافة إلى التباين في حرارة وبرودة كل ريح من الرياح الاربعة،(وقال إبن منظور: الجنوب في كل موضع حارة إلا بنجد فإنها باردة[1].

قوله تعالى ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾

الأولى : السحاب يتولد من الأبخرة المتصاعدة إلى السماء بسبب حرارة الشمس وتسليطها على البحار في آية ونعمة متجددة كل يوم على أهل الأرض وإن تباينت مواضعه.

الثانية : ذكر السحاب في نفس الآية التي ذكر فيها المطر منهما آية ونعمة مستقلة وإجتماعهما أيضاً نعمة ولأن السحاب أعم من نزول المطر، فقد يملأ السحاب السماء ويغطي الشمس، ولكن السماء لا تمطر وهذه أيضاً آية أخرى، فبين السحاب والمطر عموم وخصوص مطلق، فكل مطر من السحاب وليس كل سحاب ممطراً.

---

(1) لسان العرب ٢٧٩/١.

الثالثة : ماذا لا يمطر السحاب أحياناً وما صلته بأعمال الإنسان، فهل حالت ذنوب بني آدم دون إتمام نعمته، أم هو التقصير في الدعاء، أم الإبتلاء والإختبار، أم أن الله عز وجل يحث الناس على الدعاء والسؤال، الجواب هو إجتماع هذه الوجوه وكل واحد منها يصلح للسببية كما أن مجيء السحاب خالياً من المطر آية كونية وباب للدعاء والأمل والتدبر في بديع صنعه سبحانه، وقد ورد وصف السحاب في الآية الكريمة ﴿ الْمُسَخَّرِ ﴾ أي في تذليله وتهيئته وإمتلاكه قابلية الإستعداد للإنتفاع به ومنه وفيه، وهو منسحب ومنجر.

الرابعة : في سورة الرعد جاء قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾[1] لبيان تكون السحاب والتدبر بالآيات التي فيه، أما هذه الآية فجاءت للتدبر والتفكر في إستدامة وسير السحاب، والآيات التي فيه مجتمعة ومتفرقة متيسراً مقهوراً فيما بين السماء والأرض بالإضافة إلى ما فيه من آيات ظاهرة كغيم وغمام من غير إرتكاز أو دعامة ولحاظ حركة سيره بسرعة أو بطئ أو بينهما.

الخامسة : ما أكثر الآيات الكونية والطبيعية التي تدل على وجود الصانع ولكن الإنسان قد لا يلتفت إليها لإعتيادها وإنشغاله عنها، فجاءت هذه الآية للتذكير بها ولبيان أهميتها ولجعلها عوناً يومياً، ومناسبة لذكر وشكر الله تعالى.

السادسة : لقد قسم الله عز وجل الأرزاق وجعل فضلاً لمن يدعوه ويسأله من غير الذي كتب للخلائق، وظاهر الآية يفيد أن السحاب فضل منه تعالى ورحمة يصيب بها من يشاء.

السابعة : في الدعاء الثالث من أدعية الصحيفة السجادية خص الإمام زين العابدين عليه السلام ملائكة السحاب والرعد بذكر كريم وسؤال الرحمة لهم

---

(١) سورة الرعد ١٢.

بدعائه وتوسله: "وخزان المطر وزواجر السحاب والذي بصوت زجره يسمع زجر الرعود، وإذا سبرت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق، ومشيعي الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر اذا نزل، والقوام على خزائن الرياح".

والدعاء لهؤلاء الملائكة إقرار بإن المطر من عنده تعالى وبيده، وشاهد على تداخل وتكامل النظام الكوني وعظيم ما سخر الله عز وجل للإنسان من الخلائق الكريمة عنده سبحانه.

الثامنة : ورد عن إبن عباس أنه قال: اقبلت اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: اخبرنا ما هذا الرعد؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمر الله، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقت[1].

قوله تعالى ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

وفي الآية مسائل :

الأولى : إن الله عز وجل جعل هذه الآيات حجة وباب هداية ورشاد لأولي الألباب وأصحاب العقول والفهم والإدراك السليم.

الثانية : هل بين العقلاء والمسلمين نسبة التساوي أم بينهما عموم وخصوص مطلق، فان قلنا بالأول ننفي العقل عن غير المسلم وهذا ما لم يقل به أحد، فالظاهر هو الثاني فكل مسلم عاقل وليس العكس، ومن فقد عقله وأصيب بالجنون فذاك خارج بالتخصص.

الثالثة : من لم يكن موحدا حجبه سبب طارئ وخلل وتقصير وتكون هذه الآيات حجة عليه لإدراكه وفهمه لها خاصة.

وتبين هذه الآية فضل الله عليه من وجوه :

---

(١) الدر المنثور٥/٤٨٨.

الأول : دعوته للتدبر في الآيات الكونية التي تطل عليه كل دقيقة.

الثاني : إنتفاعه والناس من آيات السماء والأرض ، وترغيب له بالإيمان.

الثالث : بديع صنع الله.

الرابع : غنى الله عز وجل عن الناس ، قال تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[1].

الخامس : نجاة النفس والعيال والمال من الرياح الشديدة ، قال تعالى ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[2].

الرابعة : دعوة المؤمنين وعامة العقلاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتخاذ آيات الله حجة وبرهاناً ومدداً.

و(عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا العطاء ما كان عطاء ، فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوه ، ولن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة ، إن بني يأجوج قد جاؤوا ، وإن رحى الإسلام ستدور ، فحيث ما دار القرآن فدوروا به ، يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا ، إنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره ، فإن أطعتموهم أضلوكم ، وإن عصيتموهم قتلوكم ، قالوا : يا رسول الله فكيف بنا ان أدركنا ذلك؟ قال : تكونون كأصحاب عيسى ، نشروا بالمناشير ، ورفعوا على الخشب ، موت في طاعة خير من حياة في معصية ، إن أول ماكان نقص في بني إسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعزير ، فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعب عليه شيئاً ، فلعنهم الله على لسان داود ، وذلك بما عصوا

---

(١) سورة الزمر ٧.

(٢) سورة الحاقة ٦.

وكانوا يعتدون ، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم ، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم ، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرنه عليه اطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض)[1].

بحث بلاغي

ذكر لفظ (آية) بصيغة المفرد في ستة وثمانين موضعاً من القرآن، ولم ترد بصيغة المثنى الا مرة واحدة.

وجاء بصيغة الجمع (آيات) في مائتين وخمسة وتسعين موضعاً، وهذه الكثرة تدل على الأهمية والإعتبار خصوصاً وان إعجاز القرآن في آياته، وكل آية منه يصدق عليها انها قرآن، والآية لغة العلامة والدلالة، وقد تأتي عند إرادة التعجب قال الشاعر:

آية في الجمال ليس له في

الحسن شبه وما له من نظير

أما في الإصطلاح فهي الطائفة من القرآن التي لها كيان مستقل عما قبلها وما بعدها بحسب العلامة أو الوقف والفاصلة وهي موضوع للتحدي والإعجاز، وتحديد الآيات أمر توقيفي وإن أختلف بعض القراء في بعض الآيات وكذا بالنسبة للكوفيين والبصريين.

وقال الزركشي : (إن سبب إختلاف العلماء في عد الآي والكلم والحروف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف ، فاذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة)[2].

---

(١) الدر المنثور ٤٢٥/٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٥٢/١.

وإعتبار هذا القول علة تامة للإختلاف يحتاج إلى دليل، وورد عن الإمام علي عليه السلام أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتان وثمان عشرة، وذكرت أقوال أخرى، وأطول آية في القرآن هي آية الدين وهي الآية الثانية والثمانون بعد المائتين من سورة البقرة وعدد كلماتها مائة وثمان وعشرون كلمة، وعدد حروفها خمسمائة وأربعون حرفاً.

وأقصر آية فيه هي (والضحى) ثم (والفجر) خمسة أحرف لفظاً وستة رسماً، ثم (مدهامتان) وهي سبعة أحرف لفظاً ورسماً.

إن هذا التباين في عدد كلمات الآيات إعجاز قرآني وآية أخرى من آيات القرآن تتضمن عناوين التحدي.

بحث فقهي

العقل من شرائط التكليف العامة والتي اهمها ثلاثة البلوغ والعقل والإختيار فمع عدم بلوغ سن الرشد يسقط التكليف ويعرف البلوغ للذكر بإتمام خمس عشرة سنة هلالية وهو على حساب السنة الميلادية اربع عشرة سنة ومائتا يوم تقريباً، وللأنثى تسع سنوات هلالية أي ثمان سنوات ميلادية ومائتان وخمسة وستين يوماً تقريباً، مع الإلتفات إلى أن شطراً من الأشهر الرومية يكون واحداً وثلاثين يوماً وأن شهر شباط ناقص وقد يتفق مجيئه في الأشهر الستة الأخيرة بالنسبة لإحتساب سن البلوغ.

وفي خبر أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام قال: "انما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا"[1]، وهذا يدل على ان الحساب من الأمور المشككة وبلحاظ العقل وما يترتب عليه من الفطنة والإلتفات إلى الواجبات والفرائض.

ولا تكليف لفاقد العقل والمجنون سواء كان جنونه إطباقياً أو إدوارياً، نعم إذا كان جنونه إدوارياً فيسقط التكليف ساعة وأوان جنونه.

---

[1] البحار ١/١٠٦.

والظاهر أن قوله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أخص من العقلاء، فالذين يعقلون أي يوظفون العقل في معتقداتهم وأعمالهم، ويعطونه حقه في التدبر والتفكير لابد أن يلتفتوا بإمعان إلى هذه الآيات الكونية التي تواجه كل واحد منهم قهراً كل ساعة، ويرتب عليها الأثر من وجوب طاعته تعالى والإلتزام بأحكام الحلال والحرام.

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
3	المقدمة	٢٦	التفسير الذاتي
٦	قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾		
٦	القراءة الإعراب واللغة	٢٨	الصلة بين أول وآخر الآية
٨	في سياق الآيات	٣٥	من غايات الآية
١٣	إعجاز الآية	٣٧	تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ﴾
١٥	الآية سلاح	٥٢	آدم والحج
١٦	أسباب النزول	٥٨	تفسير ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾
١٧	مفهوم الآية	٦١	تفسير قوله تعالى ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾
٢٢	الآية لطف	٦١	تفسير قوله تعالى ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾
٢٤	إفاضات الآية	٦٦	بحث قرآني

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٦٧	بحث أصولي	٧٩	في سياق الآيات
٦٩	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾	٩٠	إعجاز الآية
٧٢	تفسير قوله تعالى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾	٩١	الآية سلاح
٧٤	أفعال الحج	٩٣	أسباب النزول
	إعجاز الآية	٩٤	مفهوم الآية
٧٤	واعمال العمرة المفردة سبعة	٩٧	الآية لطف
٧٦	ومن مستحبات السعي	٩٩	إفاضات الآية
٧٦	ومن واجبات السعي	١٠١	الصلة بين أول وآخر الآية
٧٨	قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾	١٠٤	من غايات الآية
٧٨	الإعراب واللغة	١٠٥	تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٠٨	تفسير قوله تعالى ﴿ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾	١٣٢	الآية لطف
١٠٩	بحث بلاغي في الوجوه والنظائر	١٣٣	إفاضات الآية
١١٠	تفسير قوله تعالى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾	١٣٤	الصلة بين أول وآخر الآية
١١٢	تفسير قوله تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ ﴾	١٤١	من غايات الآية
١١٨	قوله تعالى ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾	١٤٢	تفسير قوله تعالى ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾
١١٨	الإعراب واللغة	١٤٣	تفسير قوله تعالى ﴿وَأَصْلَحُوا﴾
١١٨	في سياق الآيات	١٤٤	بحث بلاغي
١٢٧	إعجاز الآية	١٤٥	تفسير قوله تعالى ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾
١٢٨	الآية سلاح	١٤٨	تفسير قوله تعالى ﴿ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾
١٣٠	مفهوم الآية	١٤٨	تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَنَا التَّوَّابُ ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٤٩	تفسير قوله تعالى﴿الرَّحِيمُ﴾	١٧٠	من غايات الآية
١٥١	بحث أصولي	١٧٢	تفسير قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾
١٥٣	قوله تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾	١٧٥	قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾
١٥٣	الإعراب واللغة	١٧٦	تفسير قوله تعالى﴿وَالْمَلاَئِكَةِ﴾
١٥٣	في سياق الآيات	١٧٧	بحث كلامي
١٦٢	إعجاز الآية	١٧٨	تفسير قوله تعالى﴿ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾
١٦٣	الآية سلاح	١٨٠	قوله تعالى﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾
١٦٤	مفهوم الآية	١٨٠	الإعراب واللغة
١٦٥	إفاضات الآية	١٨١	في سياق الآيات
١٦٦	الآية لطف	١٨٣	إعجاز الآية
١٦٧	الصلة بين أول وآخر الآية	١٨٤	الآية سلاح

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٥	مفهوم الآية	١٩٤	في سياق الآيات
١٨٧	إفاضات الآية	٢٠٠	إعجاز الآية
١٨٨	الآية لطف	٢٠١	الآية سلاح
١٨٩	الصلة بين أول وآخر الآية	٢٠٢	مفهوم الآية
١٩٠	من غايات الآية	٢٠٣	إفاضات الآية
١٩١	تفسير قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾	٢٠٤	الآية لطف
١٩٢	تفسير قوله تعالى ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾	٢٠٥	الصلة بين أول وآخر الآية
١٩٢	تفسير قوله تعالى ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾	٢٠٥	من غايات الآية
١٩٢	بحث كلامي	٢٠٦	تفسير قوله تعالى ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾
١٩٤	قوله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾	٢٠٧	بحث كلامي بلاغي
١٩٤	الإعراب واللغة	٢١٠	تفسير ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٠	بحث فلسفي	٢٢٨	إفاضات الآية
٢١٣	قوله تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	٢٢٩	الآية لطف
٢١٣	القراءة الإعراب واللغة	٢٢٩	الصلة بين أول وآخر الآية
٢١٧	في سياق الآيات	٢٣٣	من غايات الآية
٢٢٢	إعجاز الآية	٢٣٦	التفسير
٢٢٤	الآية سلاح	٢٣٨	تفسير ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾
٢٢٥	أسباب النزول	٢٤٠	بحث فقهي في كلمة اختلاف
٢٢٦	مفهوم الآية	٢٤١	تفسير قوله تعالى﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٤٤	تفسير قوله تعالى ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾	٢٥١	تفسير قوله تعالى ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ
٢٤٧	تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾	٢٥٤	تفسير قوله تعالى ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾
٢٤٩	تفسير قوله تعالى ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	٢٥٦	تفسير قوله تعالى ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
٢٥٠	بحث إجتماعي	٢٥٨	بحث بلاغي
٢٥١	تفسير قوله تعالى ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾	٢٥٩	بحث فقهي